د. حورية الظل

اللجوء إلى الكوكب الرمادي

رواية لليافعين

الطبعة الأولى
2025

اللجوء إلى
الكوكب الرمادي

د. حورية الظل

اللجوء إلى الكوكب الرمادي

رواية لليافعين

الطبعة الأولى

2025

عنوان الكتاب: **اللجوء إلى الكوكب الرمادي**

إسم المؤلف: د. حورية الظل

رقم الإيداع القانوني: 2025MO6040

الرقم الدولي (ردمك): 978-9920-25-118-1

الطبعة: الأولى 2025

الحجم: 21/14.8 سم

عدد الصفحات: 225 ص

الطبع والإخراج الفني: مطبعة وراقة بلال

الهاتف / الفاكس: 0535618603

العنوان: رقم 204، حي الأمل، النرجس، فاس - المغرب

© جميع الحقوق محفوظة 2025

الفصل الأول

استيقظت من النوم على صوت أمي وهي تناديني:

- آدم، آدم، استيقظ، ستتأخر عن مدرستك.

اخترق صوتها أحلامي فقطعها كسكين، فأزحت الغطاء عن وجهي متأففا وتمطيت بتكاسل وفتحت عينا واحدة. كان نسيم الصباح العليل يحرك ستائِرَ النافذة ويمسح على وجهي برقة، وطائر الشحرور يغرد في الحديقة، ورائحة القهوة المنعشة تصعد متسللة من الأسفل وتداعب أنفي فأستنشقها كعطر ثمين، بدا الصباح رائعا لو لم يعكره نداء أمي المتكرّر.

عاودَت النداء، لكن هذه المرة بصوت غاضب:

- آدم، آدم، آدم...

كانت تناديني وهي تصعد بخطوات متعجلة ومهدّدة وصوت شبشبها يقرقع على الدرج، رميت الغطاء ممتعضا وقفزت من سريري كنسناس وجريت إلى الحمام قبل وصولها، تُنبه عليّ دائما أن أضبط منبه الهاتف، فأقول لها متظاهرا بالجدية: "سأضبطه الليلة"، ثم أتجاهل القيام بذلك لأنني أحب سرقة دقائق أخرى من النوم بعد إيقاظ أمي لي والنتيجة الحتمية، سماعي كل صباح ما يكفي من التوبيخ.

كنت فتى سعيدا بقيت له أربعة أشهر ليكمل ستة عشر عاما، أُحب العلوم وأحصل على علامات جيدة في كل المواد، ومولع بالقراءة، وأمارس الرياضة في الصالة الرياضية القريبة من بيتنا، فأصبحت أملك عضلات بارزة أتباهى بها بارتداء قمصان ضيقة بلا أكمام لما يكون الجو دافئا،

وأعزف على آلة الكمان التي اشتراها لي جدي هدية في عيد ميلادي العاشر، في الكثير من المرات أعزف مع الفرقة الموسيقية في الحفلات المدرسية، وأعزف لأسرتي لما يطلب مني جدي القيام بذلك، وبما أنه الأعز على قلبي، فإنني ألبي طلبه دون تردد، أعزف أيضا في غرفتي، لكن في أوقات متباعدة، بسبب ازدحام برنامجي اليومي، يمدح جدي عزفي باستمرار:

- إنك عازف ماهر يا حبيبي.

تضيف جدتي، وهي تطلب مني أن أقترب منها لتمرر كفها على رأسي ووجهي لتمنحني بركتها:

- آدم ماهر في كل شيء، حفظتك عين الرحمن التي لا تنام يا ولدي الحبيب.

لقد كنت فتى متميزا، وهو أمر خولني تلقي الكثير من المديح، من والديّ ومن جدي وجدتي وعمتي وأساتذتي، وكنت أرى الكثير من الفخر في عيونهم، وبالمقابل خصني زملائي في المدرسة بالسخرية والتنمر الملفوفين بالغيرة والحسد، فقط أصدقائي، وكانوا قلة، من كانوا يتمتعون بالروح الرياضية، فنافسوني بدل إيذائي، ومن هؤلاء صديقتي وجارتي غيثة التي لها قلب صاف كجوهرة، وقد عزفت لها مقطوعة موسيقية في عيد ميلادها الفائت، لما دعتني لحضوره.

في سن الحادية عشر استطعت صنع رجل آلي صغير ومضحك، صنعته من علب التنك الصغيرة والأسلاك وبطارية، لم يتمكن من المشي، لكنني جعلته يحرك رأسه يمينا ويسارا، ما قمت به كان إنجازا كبيرا، مكنني من الفوز بجائزة مسابقة العلوم في مدرستنا، ويومها صحبني والدي إلى المكتبة، واشترى لي كتاب "أنا روبوت" لإسحق أزيموف، ثم

عرّجنا على محل للوجبات السريعة التي أعشقها، فتناولت همبرجر، واكتفى والدي بشرب فنجان قهوة، وظل ذلك سرا لم أفشه لوالدتي، لأنني ممنوع من تناول مثل هذه الوجبات داخل البيت وخارجه.

فجأة، وبعد حلم رأيته، انقلبت حياتي رأسا على عقب، وكأن صاعقة ضربتني، كنت نائما فسمعت صوتا ينبعث من داخل رأسي، يشبه الفحيح، لكنه عميق وخافت وكريه ومرعب:

- آدم، آدم، آدم، أنت المختار... أنت المختار.

فتحت عينيّ، فرأيت شبحا أمام وجهي، يسبح في ظلام الغرفة، لونه رمادي، وجسده غير ثابت، وكأنه من دخان، وعينيه وفمه حفر مظلمة.

اختفى الشبح فجأة وعم الظلام، جلست، وأضأت النور، ونظرت حولي مفزوعا، لا وجود لأي شبح، والغرفة يعمها السكون، فسّرْت الأمر على أنه مجرد كابوس، فدفنت رأسي تحت الغطاء، وعدت للنوم.

في اليوم التالي، لما كنا نتناول وجبة العشاء، بعدما كنت قد نسيت موضوع الشبح، لأنني كنت متأكدا بأن الأمر لا يعدو أن يكون كابوسا، وصلَنا نعيق البومة التي تسكن في مدخنة البيت المهجور قبالة بيتنا:

- شؤمك فيك.

كانت جدتي تقول ذلك، كلما سمعت نعيقها الذي يشبه الصراخ، لمع طرف شوكتي لما انعكس عليها ضوء المصباح، وأسقط أخي فوطته، فانحنت أمي، والتقطتها وثبتتها من جديد حول رقبته، واصلنا تناول عشائنا ولمسة من الرضا بادية على كل الوجوه الجالسة حول المائدة.

صعدت إلى غرفتي بعد تناول وجبة العشاء المكونة من حساء الخضر، وصدر الديك الرومي المشوي، ووجبة العَشاء هي الوجبة

الوحيدة التي تحرص أمي على أن نجتمع حولها، والأمر مقدس عندها، تعلّق على ذلك بقولها:

- متى سنجتمع ونتحدث؟ إن لم نفعل ذلك أثناء تناول وجبة العَشاء.

وجبة الفطور والغداء، نتناولها معا في العطل فقط، بسبب خروجنا أنا وأبي باكرا، هو للعمل وأنا للمدرسة، وأما عودتنا فلا تكون في أغلب الأحيان إلا بعد أن يكون من في البيت قد تناول وجبة الغذاء.

دخلت الحمّام وفرشت أسناني، ثم توجهت إلى المرآة لأمارس طقس ما قبل النوم، تأملت وجهي المنعكس على المرآة ذات الإطار الرمادي الذي اختارته أمي ليتماشى معَ لوْن سيراميك الحمام ذي اللون الرمادي الباهت، فعلْتُ ذلك لدقيقة كاملة، طالعتني عينان سوداوان، تحدقان في وجهي بتركيز، وتبحثان عن العيوب دون تسامح، يعلوهما حاجبان كثيفان، وظل شاربٍ عبارة عن خط رمادي باهت فوق شفتي العليا، مسحت عليه بسبابتي وإبهامي فأحسست ببعض الفخر، لكن لما مرّرت أصابعي على وجهي بحثا عن شعيرات لحيتي، انطفأ حماسي، وانخفضت مؤشرات ثقتي بنفسي، لأن أصابعي لم تتعثر سوى بنتوءات البثور القبيحة التي تخلف بقعا داكنة على وجهي لما تشفى، تأففت وأنا أتمتم بغضب:

- اختفي من وجهي، واتركيني في سلام أيتها البثور الغبية.

بسببها يبدو وجهي مريعا، وأعجز عن حلق شعيرات ذقني الهشة والضعيفة السيقان، وإن فعلت أرتكب مجزرة، لأن آلة الحلاقة تقطف رؤوس البثور وتترك وجهي مدمى، لكن شعري الأسود الناعم والكثيف

يعزّيني ويسد بعض النقص، تخللته بأصابعي وجعلت غرتي تميل إلى الجانب الأيسر، فتساقطت خصلة على جبيني، وفي اللحظة التي مددت يدي لرفعها إلى الخلف، تراجعْت مرعوبا، لقد ظهر مكان صورتي المنعكسة على المرآة ما يشبه الشبح الذي رأيته في الحلم، ثم اختفى في ثانية، خفق قلبي وارتجف جسمي من الخوف، أغمضت عينيّ وفتحتهما، ثم نظرت من جديد إلى المرآة، فلم يظهر على صفحتها سوى انعكاس صورتي، تساءلت: "هل سأصاب بالجنون؟" حركت رأسي وكأنني أريد أن أنفض عنه هذه الفكرة، وأقنع نفسي بأن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تخيلات، تنهدت وخرجت من الحمام، وقبل أن أستلقي على سريري توجهت إلى النافذة لأسدل الستائر، قبل أن أفعل ذلك نظرت إلى الخارج، كان أحد أعمدة مصابيح الشارع مثبتا أمام البيت المقابل لبيتنا، وقد كان ذلك البيت مهجورا منذ سنوات طويلة، أي، منذ وفاة المرأة العجوز التي كانت تقطنه، كان لها ابن وحيد يعيش في دولة بعيدة، قدِم فقط من أجل حضور جنازتها، ومن يومها لم يعد أبدا، فأصبحت مدخنته مسكنا للبومة. لما هممت بإسدال الستائر وقفت متسمرا في مكاني، ويدي تشد على طرفها بعنف وتشنج، وكأنني أتشبث بها حتى لا أتهاوى مغمى علي، فركت عيني غير مصدق، ثم نظرت من جديد، إنه نفس الشبح الذي رأيته في الحلم، ورأيت صورته منذ قليل منعكسة على مرآة الحمام، كان بجانب المدخنة بعينيه المظلمتين، لكن صوته لا يصلني رغم أنه يشير إليّ، ويحرّك فمه الشبيه بحفرة سوداء، وإنما أحسّ به في رأسي، يكرّر نفس الجملة التي سبق لي سماعها في الحلم:

- آدم، آدم، أنت المختار...أنت المختار.

وضع يده الدخانية على رأسه، فلم أفهم ماذا يقصد بحركته، ثم تسلّل إلى داخل المدخنة، أثناء تسلله، بدا وكأن فتحة المدخنة تمتص الدخان بدل تصريفه كما هي مهمتها في الأصل، سمعت نعيق البومة، ثم أحدثت جلبة، وهي تفر فزعة من نفس الفتحة التي دخل منها الشبح، وطارت بعيدا، فابتلعها الظلام.

ظللت واقفا، دون حركة، والمدخنة في مكانها، يسقط عليها الضوء الخافت لمصباح الشارع، والريح تصفر في الخارج، وتحرك أغصان الأشجار وأوراقها، فتحدث أصواتا كأصوات الأشباح، أو ربما ما أسمعه أصوات أشباح حقيقيين يتحاورون فيما بينهم ويخططون للهجوم علي.

أحسست بالبرد يجمد جسمي، فساعدني ذلك على الاستفاقة من الصدمة، أغلقت النافذة وأسدلت الستائر، وتوجهت إلى سريري، وأنا لا زلت أرتجف، حاولت أن أهدئ نفسي ولو قليلا، فعجزت عن فعل ذلك، اندسست تحت الأغطية، وتركت المصباح مضاء، وبقيت صاحيا وأنا أتوقع في أي لحظة، دخول الشبح إلى غرفتي لينتزع قلبي من مكانه ويأكله، ربما يسكن البيت المهجور، ووجوده قريبا مني هو ما أغراه بالظهور لي. لم أعرف متى نمت، لأنني استفقت على صوت أمي وهي تناديني لأستيقظ، تذكرت ما حصل لي في الليلة الماضية، فقمت في الحال، ولم أحاول سرقة لحظات أخرى من النوم كما كنت أفعل في السابق، نزلت وأنا أحمل محفظتي، قبل أن تصعد أمي بنفسها لإيقاظي كالعادة، تمتمت قائلة لما رأتني وابتسامة تنير وجهها:

- عجبا، حصلت معجزة في بيتنا.

نسيت إن كنت قلت صباح الخير أم لا، لأن رأسي مشوش، أخذت كأس عصير ورشفت منه رشفة واحدة وأنا واقف قرب المائدة، ناولتني جدتي بيضة مسلوقة، فقضمت منها قضمة صغيرة وأعدتها إلى الطبق، رمقتني أمي بنظرة متفحصة:

- ماذا حدث لك؟ هل تحس بالمرض؟
- لا تقلقي يا أمي، لست مريضا.

قلت ذلك، وغادرت دون أن أقول إلى اللقاء، كما هي عادتي، خرجت من البيت بتثاقل، واجتزت حديقة بيتنا الصغيرة وأنا أتلفت حولي خوفا من أن يكون الشبح مختبئا خلف أحد جذعي شجرتي الليمون، أو داخل أحد الأصص الفخارية التي كانت جدتي تغرس فيها شجيرات الياسمين.

فتحت الباب الخارجي، وتنفست هواء الصباح النقي، فمسحَت خيوط الشمس الدافئة على وجهي برقة، وكأنها تشجعني وتواسيني بعد ليلتي المرعبة، شعرت بالغضب من نفسي، لأنني أخشى شبحا دخانيا، ربما يكون من صنع خيالي، ومجرد أوهام، ركلت قارورة مشروب غازي فارغة بقدمي، رماها مهمل ما، لكن في الوقت الذي طوحت فيه بالقارورة، رأيت غيثة تخرج من باب بيتهم رفقة والدها، بدت كزهرة رقيقة تمشي على قدمين، ضبطتني متلبسا، وأنا أركل القارورة كطفل متهور، انتبهْت لخطئي، كان عليّ وضعها في صندوق القمامة بدل ركلها بعيدا، لقد قمت بذلك بلا شعور مني، وكأنني ركلت الشبح لأقذفه بعيدا عن طريقي، أرسلت لهما تحية صغيرة برفع يدي، وواصلت طريقي دون أن أتأكد إن كانا بادلاني التحية، فكرت أن أخبر غيثة بما حدث لي لأننا صديقان عزيزان، وإن كانت لي أحلام ومشاعر تتعدى الصداقة، وتصل حدود الإعجاب،

احتفظت بها لنفسي، ولم أجرؤ على إظهارها لها، أنس ابن عمتي هو الوحيد الذي يعرف السر، تراجعت في الحال، ماذا ستقول عني؟ إن أخبرتها بقصة الشبح، أنا الذي أحاول دائما أن أبدو أمامها مثاليا، ستتهمني بالجنون، وقد تخبر والديها، ولما تنهي كلامها، قد تقول وهي تمط شفتيها:

- كم تغير آدم، أصبح مجرد مجنون يتخيل رؤية الأشباح.

هل أخبر والديّ، "ستكون أحمق، إن قمت بذلك" قلتها لنفسي، وأنا متأكد بأن عدم إخبارهما هو التصرف السليم، إن فعلت ذلك طلبا لمساعدتهما، أول ما سيقومان به هو عرضي على طبيب نفسي، وطبعا، في أحسن الأحوال سيحرر لي ذلك الطبيب وصفة طبية يضمنها الكثير من المهدئات التي ستسبب لي النعاس المستمر، فأعجز عن ممارسة حياتي بطريقة عادية وأهمل دراستي، وفي أسوء الحالات، سيقترح حجزي في مصحة نفسية مع المرضى النفسيين العنيفين الذين قد يعرضون حياتي للخطر، سمعت مرة عمتي ليلى في إحدى زياراتها لنا، تخبر جدتي بأن ابن أخ زوجها مرض نفسيّا، فأدخله والده إلى إحدى المصحات النفسية، فكسر المرضى جمجمته ومات، فقالت لها جدتي:

- هل تتذكرين جارتنا كلثوم، لما كنا في بيتنا القديم؟ كنت لا تزالين في العاشرة من عمرك.

أجابتها عمتي:

- نعم أتذكرها، كانت لها ابنة وحيدة لكنها لم تكن تخرج من البيت، وكانت صديقتي أحلام ابنة جيراننا تقول لي، إن بداخل ذلك البيت ذي النوافذ الخضراء بنتا مجنونة.

- إنها هي، أخذوها إلى مصحة نفسية فسرق الأطباء عينيها وباعوا قرنيتيها، رفع والدها دعوى قضائية، فكان مبرر الأطباء، أن المرضى من فعلوا بها ذلك، فأضافت البنت المسكينة العمى إلى مرضها النفسي.

اقشعرّ بدني وأنا أتذكر الحكايتين، إذن، عليّ أن أتعامل مع الأمر بنفسي، وأن أحرص على عدم إفشاء سري لوالديّ، اللهم إن ظهر الشبح لهما أيضا، وقتها سنكون جميعا في سلة واحدة.

واصلت طريقي تحت سماء صافية، وسرب من الحمام يحلّق في الأعلى، دون أن يهتم لهدير المدينة المستمر أو لما أعانيه، توقفت سيارة والد غيثة بمحاذاة قدمي، فجفلت، فتحت الباب الخلفي وصعدت ليوصلني مع غيثة إلى المدرسة التي ندرس بها معا، فأراحني من انتظار الحافلة، وفي الطريق، لمّا توقفت السيارة عند الإشارة الحمراء، تراجعت إلى أقصى يمين المقعد مفزوعا، كنت قرب نافذة الجهة اليسرى للسيارة، لما التصق الشبح فجأة بزجاج النافذة قبالتي بصورة خاطفة، ثم اختفى، كما حدث لما ظهر لي منعكسا على مرآة الحمام، تمالكت نفسي، ولم أصرخ، فظهر طفل من العدم بجانب نافذة السائق، ولما أعطاه والد غيثة صدقة، نظر إليّ بتركيز، ثم استدار وانصرف، أضيئت إشارة الضوء الأخضر، فانطلقت السيارة من جديد، ولم يظهر للشبح أي أثر، انتبه والد غيثة لتنفسي السريع، فقال لي وهو مركز على الطريق أمامه:

- آدم، هل أنت بخير؟

أجبته:

- طبعا يا عمي.

تنفست بعمق لتقليل نسبة الأدرينالين في دمي، محاولا تهدئة نفسي، فأحسست ببعض التحسن. يقولون بأن الأشباح تظهر في الليل فقط، لكن يبدو أن شبحي من طينة خاصة، لأنه اختار أن يظهر لي في النهار أيضا.

دفعني ظهور الشبح في حياتي، إلى تغيير بعض عاداتي، في السابق، كنت أستجلب النوم بالقراءة، لكني الآن لم أعد أفعل ذلك، تخليت عن هذه العادة مرغما، أصبحت أضع السماعات في أذني، وأسمع موسيقى صاخبة، وأدفن رأسي تحت الأغطية بعدما أطفئ النور، حتى لا يجدني الشبح متوفرا لسماع صوته أو رؤيته، إن تسلّل إلى غرفتي.

أصبحت أمي توبخني في كل مرة تدخل فيها إلى غرفتي، لأنها لا تجد إلا الفوضى، فتلتقط ثيابي المتسخة والملقاة على الأرض لتضعها في آلة الغسيل وهي تقول:

- رتب غرفتك، أصبحت كالحظيرة.

ثم تضيف وهي تهم بالمغادرة:

- أنت من طلبت أن ترتب غرفتك وتنظفها بنفسك، تبدو نظيفة تبرق!

تهز رأسها، وهي تتأفف ثم تنصرف.

فعلا كنت قد طلبت من أمي منذ سنة أن أقوم بترتيب وتنظيف غرفتي بنفسي، حتى لا تكشف أسراري التي أدونها في مذكرتي، لأنها قد تفتح درجي وتجد المذكرة وتطلع على ما أكتبه، وخوفا من أن ترمي بعض أغراضي التي تبدو لها غير صالحة للاستعمال ومجرد قمامة، كنت فعلا أنظفها وأرتبها، لكنني لم أعد أفعل ذلك بعد ظهور الشبح في حياتي.

أجريت بحثا في الأنترنيت حول الأشباح، فلم أجد شيئا ذا قيمة قد يساعدني على التخلص من الشبح المخيف، لكن ما اكتشفته هو تطبيق لعبة فيديو، خاصة بمقاتلة المخلوقات الفضائية، فقمت بتحميلها، وجربت لعبها، فأعجبت بها، وبدأت ألعبها كل يوم في غرفتي، لاحظت بأن الشبح يزورني على الأقل مرة كل أسبوع، فلم يستعدْ قلبي طمأنينته، وظل مسكونا بالخوف والتوجس، فمنعني ذلك من التركيز على دراستي، وانخفضت علاماتي بشكل كبير، إذن، ما حدث لي كان له ثمن، وخلّف بعض الخسائر، التي كانت فادحة من وجهة نظر والديّ، لأنهما اعتادا تفوقي، فجن جنونهما، وأسمعاني كلاما كثيرا، بلا أول ولا آخر، حول خوفهما من ضياع مستقبل ابنهما الذكي، وحزِنا أيضا لخمود شعلة شغف القراءة في نفسي، وحاولا أن يقدحا في نفسي شرر ذلك الشغف من جديد، باصطحاب والدِي لي، إلى المكتبات لشراء الكتب، وإلى مطاعم الوجبات الخفيفة، لتناول البيتزا أو الهمبرجر، في بعض المرات كنت أختار كتابا أو اثنين إرضاء له، فأرى فرحا في عينيه، أقرأ بعض الصفحات، ثم لا أعود لفتحه أبدا، فيظل بجانب سريري ملقى بإهمال، فيعلوه الغبار، وبالمقابل، زاد ولعي بسماع الموسيقى، بدل عزفها على آلة الكمان الموضوعة على الرف حزينة وصامتة، دون أن تمتد إليها يدي.

كنت في إحدى الأمسيات جالسا على سريري، أقاتل المخلوقات الفضائية في هاتفي، لقد أصبحت لعبتي المفضلة، وهوايتي الجديدة التي تحقق لي المتعة، فجأة لم يهرب أحد هذه المخلوقات من إطلاق النار، بل استدار، كان يرتدي بذلة تشبه ما يرتديه رواد الفضاء، لكن لونها فضي، مع خوذة وقناع زجاجه معتم، خطا نحوي، ثم قفز من شاشة الهاتف إلى

السرير، فبدا كلعبة صغيرة، ثم قفز إلى الأرض، ووقف مواجها لي، فتراجعت إلى الخلف، واصطدم رأسي بمسند السرير، بدأ حجمه يكبر ويكبر، حتى اقترب رأسه من ملامسة السقف، فشلّني الرعب، ولم أستطع الصراخ، خاطبني بصوت مختلف عن صوت الشبح، كان صوته جهوريا وعميقا:

- إنك المختار، اخترناك لمهمة عظيمة، عليك أن تستعد، وعليكم أن تستعدوا، وعليك أن تكون مطيعا، وعليكم أن تكونوا مطيعين.

اختفى فجأة وكأنه تبخر في الهواء، ظللت في مكاني مرتجفا وخائفا، ولا أعرف إلى أين المفر أمام هذه الكارثة التي لا أعرف إن كانت حقيقة أم خيالا، لم أجد تفسيرا لمعنى كلماته، إن الشبح يقصدني بكلامه، لما يقول لي أنت المختار، لكن لماذا قال المخلوق الفضائي، بأن علينا أن نستعد؟ من نحن؟ هل يقصد بذلك أسرتي؟ هل سيأتي دوْرهم، ليظهر لهم ويرعبهم؟

"يا إلهي....، ماذا يحدث لي؟ إنني أنهار"

أصبحت محاصرا بالشبح، وبالمخلوق الفضائي، وبوالديّ اللذين أصبحا يوجّهان لي النقد باستمرار. كان تدخل أهلي في شؤوني يغضبني، ويكدر صفوي، ويتعبني، ويضيف عبئا آخر إلى نفسيتي المتعبة أصلا، فأفقد أعصابي في الكثير من الأحيان، ذات مرة أرادت أمي أن تضع لي تطبيق الرقابة الأبوية على هاتفي، فثرت وغضبت، وصرخت يومها في وجهها، وأنا أحس بالقهر والاختناق من تعاملها الظالم:

- هل أنا ريان، حتى تراقبي هاتفي؟

قالت بغضب:

- سأراقب هاتفك، وأراقب حتى أنفاسك التي تتنفس، تظن أنك كبرت بالشعيرات التي نمت على وجهك، أين آدم الذكي والمُجدّ والمحترم لنفسه ولأسرته؟

دارت حول نفسها وهي تتلفّت وكأنها تبحث عن آدم القديم، ثم رفعت يديها بيأس:

- أرأيت، لم يعد له وجود؟

قلت في نفسي:

- اختطفته المخلوقات الفضائية.

ما جعل أمي تريد وضع تطبيق الرقابة الأبوية على هاتفي أن صديقة لها أرسلت لها مقطع تيك توك، لما دخلت إلى البيت، أطلعتني على المقطع من هاتفها، والشرر يتطاير من عينيها، ويكاد يحرقني ويحرق البيت والمدينة وحتى الشبح إن كان قريبا مني، صاحت بغضب:

- ما هذه الميوعة؟ قبلات في الهواء! ماذا سيقولون عنك؟، ولمن ترسل هذه القبلات؟

أحسست بالحرج وبالإهانة في الوقت نفسه، وبالندم على نشري للمقطع الذي لم أقصد من ورائه أي شيء، فقط الضياع الذي أعيشه حاليا، وعدم تركيزي وعزلتي، ومحاولة ملء وقتي كيفما اتفق، ما جعلني أقوم بهذا التصرف الأحمق، لكنني لم أتنازل وأعترف لها بأنه كان خطأ كبيرا، ارتكبته دون تفكير في العواقب، فأجبتها مدافعا عن نفسي:

- لم أعن شيئا، فقط أردت أن أظهر في تيك توك.

- آه، أردت أن تنظمّ إلى التافهين المتزاحمين على الظهور في تيك توك، وتنشر المحتويات التافهة التي ستظل محسوبة عليك، وتندم عليها

فيما بعد، لو نشرت مقطعا وأنت في صالة الرياضة التي انسحبت منها دون سبب، كنت سأقول بأن ابني الذكي الواعي بأهمية ممارسة الرياضة يشجع الشباب على القيام بما ينفعهم والابتعاد عما يضرهم، لكنك لن تفعل ذلك لأنك خيبت أملي فيك، ألم تر المقاطع التي تنشر غيثة حول التشجيع على القراءة التي أهملتها أنت؟ لكن، أن تنشر مقطعا تلقي فيه قبلات في الهواء وأنت في سريرك وعيونك مسبلة، فلن أقبله بتاتا، تابعت وغضبها يتصاعد كنار متأججة:

- سأراقب هاتفك غصبا عنك.

ثارت ثائرتي، فضربت هاتفي بالجدار، فتحطم وتناثرت قطعه.

ليس توبيخ أمي بسبب مقطع تيك توك هو ما جعلني أكسر هاتفي، بل مقارنتها لي بغيثة التي كرهتها في تلك اللحظة، فواجهت أمي، وقلت لها وأنا أنظر في عينيها بتحد:

- فلتذهب غيثة إلى الجحيم، لا تهمني المقاطع التافهة التي تنشرها، ولا علاماتها التي تأتي والدتها إلى هنا للتباهي بها...

- أصبحت وقحا أيضا، ولا تحترم جيراننا.

التفتتْ ناحيتي، وهي متوجهة إلى المطبخ، وأنا لا زلت واقفا أسفل الدرج، ودمي يغلي من الغضب، وأضافت:

- ليكُنْ في علمك، ستبقى بلا هاتف، وإن اشتراه لك أحد سأغادر هذا البيت.

في اليوم التالي، كنت في غرفتي لما طرق أبي الباب، ودخل وفي يده علبة، تجول ببصره في جوانب الغرفة، ولم يعلّق على الفوضى العارمة، اكتفى بهز رأسه، والدي دائما ردود أفعاله غامضة، لكنه ودود وأكثر

تفهما من أمي، أزحت سترتي عن طرف السرير ودعوته للجلوس، فجلس، ومسح براحته على المكان الذي بجانبه:

- تعال، اجلس بجانبي يا ولدي العزيز.

فعلت ذلك وأنا متوجس، هل سيوبخني كما فعلت أمي؟ قبل أن أنطق بكلمة، سلم لي العلبة:

- اشتريت لك هاتفا جديدا.

فوجئت، عانقته بقوة، وقلت له:

- شكرا يا بابا.

اعترتني حالة من الضعف، وكدت أفشي له السر، لكنني تراجعت، واكتفيت بمسح دمعة نزلت على خدي.

رغم الغضب الذي أصبح يتملكني باستمرار، من المخلوقات المهددة، ومن نفسي، ومن أسرتي، ومن غيثة، ذاب كل ذلك وتحول إلى دموع في حضور أبي الذي قدم لي هذه المرة هدية، بدل حزمة من الانتقادات، عانقني ومسح دموعي، ثم أخذ وجهي بين راحتيه وسألني:

- ما بك يا حبيبي؟ أنا والدك، إن كنت تعاني من أي مشكل، أخبرني لأساعدك.

- لا شيء يا بابا، أبكي فقط بسبب ما فعلته أمي.

- أمك تحبك يا بني، هل تظن بأنها فعلا ستراقب هاتفك؟ هي قالت ذلك من باب تحذيرها لك، وخوفها عليك، إننا نحبك ونخشى أن يصيبك مكروه، أو تتأذى من هذا الخليط الافتراضي الهائل الذي اختلط فيه الجيد بالرديء، والصالح بالطالح، نخشى أن تجرك أمواج ما هو طالح وتغرقك ووقتها لن نستطيع إنقاذك، ولاحظنا أن الأمر قد بدأ، منذ

إهمالك لقراءة الكتب ولدراستك التي عليك أن تمنحها الأولوية، لأن هواياتك يجب أن تأتي في الدرجة الثانية، وخاصة ألعاب الفيديو، إن بالغت في لعبها ستصبح إدمانا وليس هواية، حاول يا بني أن تعود إلى رشدك، لا حظنا أيضا بأنك ابتعدت عنا، ولا تبدي اهتماما بأي أحد من أسرتك، وبالخصوص حبيبك جدك الذي يعزك أكثر من روحه، وهو الآن مريض وفي حاجة إليك.

لما أراد الانصراف، قال:

- اعتذر لأمك في الصباح.

ثم ضغط على كتفي وأضاف:

- تصبح على خير، أمامك الوقت الكافي لتدارك أخطائك يا بطل.

لم أجب بكلمة، لأنني لم أجد ما أقوله، أمام هذا الكم الهائل من النصائح والانتقادات التي نزلت على رأسي كمطر غزير، فجعلت ظني يخيب في والدي أيضا، ظللت جالسا في مكاني، متربعا على السرير، كالمنحوتة الفرعونية للكاتب المصري الجالس، والهاتف موضوع في حجري بدل أوراق البردي:

- يا إلهي، لا أمل لي في أسرتي.

أحسست بأن بيتنا أصبح سجنا قاسيا، بقدر ما هو سخيف، وغرفتي صارت مكانا فوضويا ومريعا، أقابل فيه الأشباح والمخلوقات الفضائية.

كنت قد زدت توغلا في عزلتي لما اقترب عيد ميلادي السادس عشر، فلم أرغب في الاحتفال به، لا رغبة لي في الفرح، وحتى أصدقائي الذين ألفت دعوتهم، أصبحت أتجنب الاختلاط بهم في المدرسة، أو التسكع

معهم، وغيثة التي كنت أفرح للاحتفال بعيد ميلادي، فقط لأنها ستحضره وستقدم لي هدية لطيفة، أصبحت أكرهها في بعض الأحيان، وأحمّل أمي مسؤولية ذلك، لأنها لا تتوقف عن مقارنتي بها.

بدأت أتضايق من الذهاب إلى المدرسة، فأصبحت أتغيب عن الكثير من الحصص الدراسية، وأتسكع على غير هدى في الشوارع، أو أجلس في الحدائق العمومية، دعا مدير المدرسة والدي وأبلغه بتغيبي المستمر، فأمطرني ذلك المساء بنصائح كثيرة، انتهت بنزول دموع أمي وهي تقول:

- إن كنت تتعاطى شيئا، أخبرنا لنساعدك؟ وإن كانت نفسيتك متعبة، نعرضك على طبيب؟

يا إلهي، هل سيحدث ما أخشاه، غضبت من ملاحظتها، لأنني اعتبرت عرضها تهديدا بتعريضي لخطر تناول المهدئات، أو حجزي في مصحة نفسية، فقمت غاضبا، وتكشيرة مرسومة على وجهي:

- اتركيني وشأني، أنت التي في حاجة إلى طبيب.

أثناء صعودي إلى غرفتي دون أن أتناول وجبة العشاء، وصلني نعيق البومة المسائي المألوف، أصبح نعيقها يطمئنني بعدما كان يزعجني، لأنه إثبات على عدم وجود الشبح في الجوار، إن وُجد ستفر، لأن الحيوانات والطيور تحس بوجود الأشباح أو ربما تراها كما أخبرتني جدتي، اكتفيت بتناول كيس رقائق بطاطس أخرجته من درج خزانتي، بعد ذلك فرشت أسناني، متخليا عن طقس ما قبل النوم، خوفا من ظهور الشبح منعكسا على المرآة، لقد غيرت توقيته فأصبحت أقوم بذلك في النهار، ارتميت على سريري، ووضعت سماعات الأذن، فوصلني في الحال هدير الموسيقى الذي يفصلني عن غرفتي وبيتنا، وعن والدي وأخي وجدي وجدتي، ويصم أذني

عن نصائح أسرتي، وعن صوت الشبح إن سولت له نفسه زيارتي، وعن غضبي المستعر الذي يجعلني مستعدا لمقاتلة المخلوق الفضائي، والانتصار عليه، ليس في لعبة الفيديو فقط، ولكن في الواقع أيضا، وحشر الشبح في المدخنة، وسد فتحاتها فلا يخرج أبدا، والتسلل إلى بيت جارتنا المتوفاة من النافذة مكسورة الزجاج، وإشعال نار ضخمة في المدفأة، ليختنق بالدخان ويحترق، وركل صخرة كبيرة فتطير وتكسر جذع شجرة الصفصاف العملاقة في طرف حديقة الحي، فتتهاوى وتصمت أغصانها وأوراقها عن إصدار ذلك الصوت المخيف في الليل لما تهب الريح، لأنها تستعيره من الأشباح والشياطين، قفزت من سريري وبدأت أرقص على الإيقاع الصاخب للموسيقى كالمجنون، وأقلد حركات لاعب الغيتار الإلكتروني، فخفّ توتري قليلا، ولما تعبت ارتميت على سريري من جديد.

لما نمت رأيت في الحلم، الرجل الفضائي يقف أمامي ويقول لي:

- لا تغضب أيها الفتى المجنون، وفّر طاقتك لما هو أهم، لأنك المختار.

استفقت على صوته الجهوري والعميق، وفضّلت ألا أرفع الغطاء عن رأسي، حتى لا أراه يملأ فضاء الغرفة، ويكاد رأسه يلامس السقف، لكنني لم أتحمل تخيله أمام فراشي، إنه أمر يجعلني أحس برعب أشد مما لو نظرت إليه مباشرة، رفعت الغطاء بحذر، فوجدت الظلمة تعم الغرفة ولا أثر له، لا بد أنه اختفى، لم أضئ المصباح، ودفنت رأسي من جديد تحت الأغطية، لكن النوم رافق المخلوق الفضائي لمّا انصرف، وتركني وحيدا مع الأرق، فلم يغمض لي جفن.

الفصل الثاني

أصبح الشبح والرجل الفضائي يتناوبان على زيارتي في الكثير من الليالي، ويكرران نفس اللازمة "أنت المختار، أنت المختار" والتي أصبحت بالنسبة لي مجرد ثرثرة مخيفة، فلم يعد يصلني نعيق جارتي البومة، ربما هجرت المدخنة، وبحثت عن مسكن آخر، بعدما زاحمها الشبح في مسكنها، وربما طردها منه، ولِمَ لا يكون قد ابتلعها بريشها.

جاءت عمتي ليلى لزيارتنا وهي عمتي الوحيدة، توفي زوجها الذي كان يملك معرضا لبيع القماش، وترك لها ثلاثة أبناء، لم تجد من يقوم بأعماله، فخلفته في إدارة المعرض، بمساعدة ابنيها اللذين سحبهما أبوهما من المدرسة لما كان لا يزال حيا، زيارات عمتي لنا أصبحت نادرة بسبب انشغالها المستمر في تسيير معرضها، لما تأتي لزيارتنا يرافقها أصغر أبنائها أنس الذي في سني، ولا يزال في المدرسة، لم تسحبه أمه منها، ربما لو ظل أبوه حيا لفعل، وهو أقرب صديق إلى نفسي، طلبت منه مرافقتي إلى غرفتي، كما هي العادة لما يزورنا، فرح لما عرف بأنني أصبحت أهوى الألعاب الإلكترونية، لأنه مولع بها، لعبنا لوقت طويل، وقتلنا عددا كبيرا من الأعداء، فكرت أن أبوح له بسري الخطير، كنت أعتبره خزينة أسراري، نظرت إلى وجهه اللطيف طويلا، وكأنني أقيس مدى قدرته على حفظ السر، ومشاركتي في حمله، هذا السر مختلف، لا يقارن بإعجابي بغيثة، ولا بلكمي لزميل لي في المدرسة على وجهه، لما تنمر عليّ، ولا بتدخيننا لأول وآخر سيجارة خلف شجرة الصفصاف الضخمة بحديقة

الحي حتى لا يرانا أحد، انتبه إلى نظرتي المثبتة على وجهه، فقال لي متسائلا:

- ما الذي يحدث معك؟ أعرف هذه النظرة جيدا، يبدو أنك في ورطة كبيرة.

تجاوزت كل تردد، وأخبرته عن الشبح وعن المخلوق الفضائي، ووصفت شكلهما وما قالاه لي، وما يسببانه لي من خوف لا ينتهي. بدا غير مصدّق:

- إنها مجرد كوابيس، أنا أيضا أرى في أحلامي المزعجة بعض أبطال ألعاب الفيديو يقومون بلكمي، أو بتعليقي على فرع شجرة، أو بإغراقي في البحر، أو يطلقون عليّ الرصاص، أو يفجرون بيتنا.

قلت له غاضبا:

- أنا أحمق كبير، لأنني بحت لك بسرّي الذي يسبب لي الكثير من الرعب، ويضعني في خطر دائم، قد يقتلني ذلك الشبح، أو قد أصاب بسكتة قلبية لما يزورني في الليل، وقد يخطفني المخلوق الفضائي ويأخذني إلى كوكبه.

- الأمر حقيقي إذن؟

- طبعا حقيقي، ما رأيك، أن تقضي معي هذه الليلة، لتتأكد بنفسك، فقد يزورني الشبح أو المخلوق الفضائي وأنت معي.

حدّق أنس في وجهي، وقد شحب وجهه واتسعت عيناه، ثم بلع ريقه:

- أنا أخشى الأشباح كثيرا، وكما تعرف، لا زلت أنام مع ماما في غرفتها منذ وفاة والدي، لأنني لا أستطيع النوم بمفردي في غرفتي، وأتحمل جراء ذلك، الكثير من النقد، من أخي هشام، الذي يقول لأمي دائما: "إنك

تفسدينه بتدليلك له، لقد أصبح عاجزا عن مواجهة الظلام والنوم بمفرده".

خفت أن يفشي السر، لما رأيت عدم تعاونه، فتظاهرت بالضحك:

- لقد نلت منك، هل صدقتني؟ كنت أمزح فقط، أردت أن أفزعك.

حمل وسادة وضربني بها:

- لقد نجحت، أفزعتني فعلا.

نادت علينا أمي لاحتساء الشاي، فقلت له:

- اسبقني، وأنا سأنزل بعد قليل.

- أنتظر زيارتك قريبا، لكن بلا أحاديث عن الأشباح.

قالها وضحك وضرب كفه بكفي.

نزل إلى الأسفل، فدخلت الحمام، ونظرت إلى صورتي المنعكسة على المرآة، وأنا راض عن نفسي، في الماضي كنت غير واثق من شكلي، لكنني الآن أصبحت متأكدا بأنني فتى وسيم، يحتاج فقط أن تختفي الأشباح والمخلوقات الفضائية من حياته، حتى البثور النابتة في وجهي أصبحت أمرا مقبولا ولم تعد تضايقني.

جدتي كثيرا ما تمازحني بقولها:

- تملك وسامة جدك في شبابه، بعيونك السود وشعرك الكثيف الأسود.

لا أهتم بنظرتها الحنونة الملتصقة بوجهي، وكأنها تستعيد وجه جدي أيام شبابه، وأهتم فقط بتشبيهها لي بجدي، هذا التشبيه الذي كان أجمل كلمة أحب سماعها في الماضي، أصبحت أراه ظالما في حقي الآن، والماضي بالنسبة لي، هو ما قبل ظهور الشبح والمخلوق الفضائي في حياتي، لقد

تغير الوضع الآن، وأراني فتى عمره ست عشرة سنة، بظل شارب وعضلات، ولا أشبه جدي في شيء، إنه لأمر مريع أن أكون شبه جدي، بوجهه المجعد، ويديه المعروقتين وأصابعه النحيفة، وشعره الأبيض، وبحاجبيه الأشيبين اللذين يضطر إلى قصهما بمقص صغير يحتفظ به مع عدة الحلاقة، حتى لا تدخل شعيرات منهما في عينيه لما تطول، أريد أن أشبه مطربي المفضل بوبي بيستن الذي حصل في العام الماضي على لقب أوسم رجل في العالم.

ما كنت أفعله، أنني لا أبدي أي رد فعل على هذا التشبيه، لمّا لا يعجبني كلام جدي أو جدتي ألزم الصمت، لأن أبي من أوصاني بذلك، بعدما لاحظ انفعالي وسرعة غضبي في الشهور الأخيرة:

- آدم عزيزي، عليك أن تكون دائما مراعيا لمشاعر جدك وجدتك، إن لم يعجبك رأيهما، الزم الصمت، حتى لا تجرحهما بكلامك، لأنهما بركة بيتنا وتاج رؤوسنا.

أصبحت أصمت في أغلب الأوقات التي يحدثني فيها جدي أو جدتي، أو يقولان لي رأيا، وقليلا ما أصبحا يفعلان ذلك، ويبدو أن صمتي كان وقعه قاسيا عليهما، لكنني لم أهتم، تساءلت بيني وبين نفسي، هل أصبحت شريرا؟ وهل الشبح مرر لي بعضا من روحه الشريرة، فحول مشاعري تجاه جدي إلى صفر، لقد أحببته في طفولتي حبا لا مثيل له، أحببته أكثر حتى من والديّ، لأنه لما وصل سن التقاعد عاد من مدينته الشاطئية، ليعيش معنا هو وجدتي، فكان الحامي، ومحقق الأمنيات، كانت أمي تحتج:

- سيفسده تدليلك له يا عمي.

إنني أحتفظ بذكريات كثيرة مع جدي، ومن أجملها، تلك المرتبطة بفصل الربيع، لما كانت تكسو الأرض الخضرة، وتتزين بالأزهار، يطلب من أمي الإذن، لتسمح لي بمرافقته في نزهته المعهودة:

- سيرافقني آدم لكي يتنفس بعض الهواء النقي.

يصحبني في سيارته "الجيتا" القديمة، ذات اللون البرتقالي الباهت، ولما يخرج من المدينة، يأخذ طريقا يخترق الريف، فأتفرج على الأبقار وقطعان الأغنام التي تسرح في الحقول والرعاة يحرسونها والكلاب تجري حولها، لما سألته ذات مرة، لماذا تفعل ذلك؟ أجابني:

- حتى لا تشرد الخرفان المشاغبة، فتأكلها الذئاب.

كنا نصعد قليلا عبر طريق مرصوف بالحصى، فنصل ربوة مرتفعة تطل على سهول واسعة خضراء، تزخرفها شقائق النعمان الشديدة الحمرة، وخلفنا الجبل المغطى بأشجار الأرز، فيجلس جدي على العشب، وينظر أمامه بتركيز وقد ضيق عينيه، يلتفت إلي ويقول:

- عليك يا حبيبي آدم أن تتعلم حب الطبيعة، لأنها علاج الروح، ثم يضيف، "لو كانت لي قطعة أرض هنا، لبنيت بيتا أقضي فيه ما تبقى من عمري".

فأقول له، وأنا أتقافز حوله:

- لماذا لا تبني بيتا خشبيا هنا يا جدي؟ كذلك الذي تسكنه ماشا مع الدب في الغابة، ونسكنه أنا وأنت لوحدنا.

ينفجر جدي ضاحكا، وأواصل مطاردة الفراشات والتمرغ على العشب، وقطف الأزهار التي أشكل منها باقتين، واحدة لأمي وأخرى لجدتي.

لما كنت أحاول اللعب خلفه، قرب السياج العالي الذي يحيط بالغابة، ينبه عليّ بصوته الجهوري:

- ابق في مرمى بصري يا بني، إياك والاقتراب من ذلك السياج.

لما أصبح عمري ثلاث عشرة سنة، ابتعدت عن جدي قليلا، ولم أعد أرافقه في خرجاته، لكن حبي له ولجدتي ظل ثابتا في قلبي كنبتة دائمة الاخضرار، فبدأ حاجز بالتكون، دون انتباه مني، كساتر ترابي، ليس بيني وبين جدي فقط، ولكن بيني وبين كل أفراد عائلتي، لانشغالي بدراستي وبالقراءة، وبمحاولتي تطوير رجلي الآلي الصغير، لأجعله يمشي بعدما استطاع أن يحرك رأسه، وبممارسة الرياضة، وبالساعات الإضافية، وبالعزف على آلة الكمان، وبتفكيري المضني في غيثة، وبأصدقائي، وبمواقع التواصل، وإن كنت أرتادها باعتدال، ولما وصلت الخامسة عشر، كان جدي وجدتي قد أتعبهما المرض، وأصبحا يفضلان المكوث في البيت، وأنا كنت جد منهمك، لاحظت بأن ابتعادي عن جدي يكربه، فكنت أحس بالذنب، لأنه لم يعد يخرج من البيت بعدما تفاقم ألم ركبتيه، ولم أبذل جهدا يذكر للتخفيف عنه، أقصى ما كنت أستطيع تقديمه له لكي أعوض عليه، مقطوعات موسيقية أعزفها له على الكمان في بعض الأوقات، لكن لا أحد يفهم جدي مثلي، كان ذلك غير كاف، وكنت أقرأ في عينيه عتابا خفيا، لأنني تخليت عنه في شيخوخته، هذا كان قبل ظهور الشبح، لأنني بعد ظهوره، أصبحت لا أطيق عائلتي، بمن فيهم جدي، أصبحت أراه مجرد عجوز مريض يتدخل في شؤوني، وغيثة أيضا لم تعد تعني لي شيئا، رغم أنها كانت الأمنية الأغلى والأهم في حياتي، كنت أتنهد بعمق حتى تكاد رئتاي تنفجران لما كنت أفكر فيها، إنها صديقة طفولتي،

لم نكن نفترق أبدا، كنا كالعلبة والغطاء، لما كنا نرافق أمي وأمها إلى الحديقة، كنت أشبك يدي بيدها اللطيفة والصغيرة والناعمة، والتي في نعومة غيمة صغيرة، بحرص شخص مسؤول عن جوهرة ثمينة، خوفا عليها أن تضيع، رغم أننا في السن نفسه، وجود والدتها معها في الحديقة لم يكن يخليني من مسؤولية حمايتها كحارس صغير، نحن جيران، بيت أسرتها في الجهة المقابلة لبيتنا، ملتصق بالبيت المهجور، لكن بيتهم أكبر وأجمل من بيتنا، وحديقتهم أكبر من حديقتنا، وأشجار حديقتهم أكثر نضرة واخضرارا من أشجار حديقتنا، ولما ينضج برتقال وخوخ أشجارهم، يكون لنا نصيب منه، والد غيثة يعمل مديرا في شركة، منصبه أهم من منصب والدي المحاسب، ووالدتها كانت ممرضة، لكنها تخلت عن وظيفتها من أجل التفرغ لرعاية غيثة وأختها الصغرى ريم، كان لي اعتقاد طفولي راسخ بأننا أنا وغيثة لن نفترق أبدا، كنا نلعب بألعابي في بيتنا لما تكون والدتي ووالدتها وجدتي، يشربن الشاي، ويأكلن الكعك، أو نلعب في بيتها بعرائسها.

لما كبرت، وأصبحت في الثانية عشر من عمري، أحببتها من طرف واحد، وهي اعتبرتني صديقها العزيز، ولم تتجاوز ذلك، فكان وضعي مريعا، لأنكم لو عرفتم غيثة أو رأيتم جمالها ورقتها وعينيها وغمازتيها وشعرها الذي تسافر به الريح في كل الاتجاهات، لرأفتم لحالي، ولتفهمتم ما كنت أعانيه، لكنني شفيت الآن من حبها، دفعها الشبح بعيدا عن قلبي، وشاركت أمي في ذلك بمقارنتها غير العادلة بيني وبينها، لكن في بعض اللحظات تستفيق مشاعري تجاهها، كجمر تحت الرماد، تعريه الريح فيتأجج، فتمتلئ نفسي بالمشاعر الحمقاء، وأشتاق لرؤيتها، وبما أننا لم

نعد ندرس في فصل واحد بسبب اختلاف توجهيْنا، هي اختارت العلوم التجريبية، وأنا اخترت العلوم الرياضية، أدخل مكتبة المدرسة لأراها وليس لأستعير كتابا لأقرأه، أعرف بأنها هناك، لأنها محبة للقراءة، تحييني بمودة وتقول:

- لم أرك منذ مدة، زرناكم أنا وماما، ولم تكن في البيت، ثم تنظر في الكتاب المفتوح بين يديها، وتسألني: "ما اسم آخر كتاب قرأت؟".

يزعجني سؤالها، فأتمتم وأنا أنظر إلى عينيها العسليتين، اللتين تغمراني كشمس دافئة، أنقل بصري إلى كتابها فتطالعني يدها اليمنى المستريحة على الصفحة التي كانت بصدد قراءتها وخاتم ذهبي يقيد سبابتها الرقيقة:

- أظنه كتاب حول الاختراعات، لقد نسيت اسم مؤلفه.
- اسمه ليونيل بندر، أليس كذلك؟
- نعم.

كاد أنفي أن يصبح في طول عصا جدي، نتيجة كذبتي، لأنني في الأشهر الأخيرة لم أقرأ أي كتاب، ابتسمت غيثة برقة، وظهرت غمازتها كهاوية سحيقة تدعوني للسقوط في أعماقها، أطلعتني على عنوان الكتاب الذي تقرأه،"حول العالم في ثمانين يوما لجول فيرن".

كانت المكتبة شبه فارغة، طاولات قليلة مشغولة ببعض التلاميذ المستغرقين في قراءة الكتب التي بين أيديهم، منهم من يحمل قلما ويسجل الملاحظات في كراسة، القيّمة على المكتبة بنظارتيها السميكتين، وشعرها الرمادي القصير، وتجاعيدها التي تمتد في خطوط على جبينها، وفستانها المزركش بالزهور والأشجار، والذي يبدو كحديقة صغيرة، تعرفني حق

المعرفة وتعرف عناوين الكتب التي قرأت، لأنها مسجلة في كشف على حاسوبها، كانت تكتب شيئا وهي مركزة على ما تقوم به، والهدوء يعم المكان، وهو أمر فرض علينا أنا وغيثة، أن نتبادل الحديث همسا، حتى لا نزعج رواد المكتبة، ولا نتعرض لتوبيخ القيمة ذات النظرة الصارمة التي تشبه نظرة أمي.

ودعتها وغادرت بخطوات ثقيلة، بعدما رأيت تململ القيمة وتصويبها ناحيتي نظرات محذرة، وكأنها تقول لي:

- خذ كتابا، أو انصرف.

في تلك الليلة رأيت غيثة في الحلم وقد تحولت إلى دمية صغيرة، بضفائر طويلة سوداء، حملتها بين يدي، ونظرت في عينيها، فتحولت إلى حفنة من الرمل، وبدأت تتسرب من بين أصابعي وتتساقط على السجاد، فصرخت أمي في وجهي، وأمرتني أن أنظف الفوضى التي أحدثتها، ثم بدأ صوت المخلوق الفضائي يرن في رأسي، وهو يقف أمامي وفي يده مفتاح، حدقت في قناعه المعتم، وأنا بين الحلم واليقظة:

- تذكر هذا المفتاح، ولا تبتئس، سنصلح كل شيء، لأن جوهرك هو ما يهمنا، وهو شبيه بالماس الموجود في الجبل، مصقول وصافٍ ولامع وثمين، أصبحت تعلوك بعض الشوائب، لكنها بسببنا، سنصقلك من جديد فتصبح أفضل مما كنت.

الفصل الثالث

حل فصل الخريف، وبدأت أوراق الأشجار الميتة تتهاوى مترنحة لتلامس الأرض بخفة، فتتلاعب بها الريح على طول حينا، وهي تصدر خشخشة كالهمسات، تزامن ذلك، مع انتشار أخبار تفيد بقرب تعرض مدينتنا للغزو، فزادت من رفع مستوى قلقي وخوفي، أنا الذي لا زلت محاصرا في دوامة الشبح والمخلوق الفضائي.

توقفت الدراسة في جميع المدارس، والأمر لم يكن بقرار من وزارة التعليم، وإنما بقرار من الأهالي الذين بادروا إلى الإبقاء على أبنائهم في البيوت، خوفا عليهم مما قد يحدث، ومنهم والديّ، مترقبين ما ستسفر عنه الأيام المقبلة. سألت أبي ونحن على مائدة العشاء التي تصر أمي على أن نجتمع حولها مهما كانت الظروف، حتى وإن ألقيت قنبلة على بيتنا، أظن بأنها ستخرجنا من تحت الأنقاض لنتناول عشاءنا الأخير معا:

- بابا، هل فعلا سيتم غزونا؟

حمل سؤالي لوالدي أملا في تكذيبه للخبر، وضع راحتيه على الطاولة ثم شد قبضتيه، وكأنه يترجم مشاعر متضاربة تمور في داخله، تابعت حركاته، وأنا أنتظر الجواب:

- لم يتأكد شيء.

جوابه المقتضب والغامض لم يشف غليلي، فتوجهت إلى جدي:

- كيف يحق لأي كان أن يقوم بغزو مدينة آمنة؟ التفت جدي نحوي، كان وجهه مكتئبا وكانت كتفاه مثقلتين، لم يجبني في الحال، وكأنه

يفكر فيما سيقوله أو لا يملك الجواب، قال أخيرا بصوت تعمد أن يجعله هادئا:

- نأمل ألا يحدث ذلك يا ولدي، فيتضح أن الأمر مجرد فقاعة هواء فارغة.

أصبح الجو العام حولي غير مطمْئن، وجه أمي علاه الشحوب، هي المعروفة بخديها اللذين يشبهان لون التفاح الأحمر، جدي وجدتي فقط من بدا عليهما الهدوء، أصبت بالأرق المستمر الذي ظللت بمنجاة منه حتى مع ظهور الشبح والمخلوق الفضائي، لأنه كان يرافقني فقط في الليالي التي يظهرا لي فيها، الأمر مختلف هذه المرة، إن الغزو أمر خطير ومهدد للحياة، بيتنا أصبح باردا وشاحبا كوجوه ساكنيه، نبهتني أمي قائلة:

- لا تصعد إلى غرفتك، ابق معنا في الأسفل.
- طبعا، سأقوم بذلك.

أحسست بالارتياح لاقتراحها، لأن فكرة نومي في الأعلى ستكون كابوسا، بعدما نزل كل أفراد أسرتي للنوم في الأسفل، كان الشبح يزورني في غرفتي وهم في الأعلى، إن بقيت هناك لوحدي، قد يُخرج أحشائي ويستعملها لشنقي، لكن الغريب، أنني لاحظت عدم ظهوره منذ بدء الإشاعات حول اقتراب غزونا، أحضرت من غرفتي غطاء ووسادة، وأعددت لنفسي مكانا للنوم في ركن بالصالون الخاص بالضيوف، والذي يبدو مرحّبا وأنيقا، بالسجاد الناعم ذي اللون الأحمر القاني والمزركش بأشكال هندسية بديعة، تجعل منه لوحة فنية ناعمة، والخشب مشغول بنقوش وزخارف تعكس جمال تراثنا، والفراش والوسائد والألوان الدافئة تقدم الراحة والترحيب، لم نكن نستعمله إلا بوجود الضيوف، لكنه الآن

أصبح مكانا للنوم لي ولوالديّ ولجدتي وأخي الصغير، جدي أيضا غادر غرفته الصغيرة المحاذية للمطبخ، وأصبح ينام في غرفة الجلوس على الأريكة، لكننا لم نغير أماكننا حول طاولة الطعام المغطاة بمفرش بني باهت، والموضوعة قرب باب المطبخ، أصبحنا نجتمع حولها لتناول كل الوجبات، بعدما كنا في الأيام العادية، نجتمع حول وجبة العشاء فقط.

بعد يومين، استيقظت في الصباح، وفتحت هاتفي، فظهر لي مقطع فيديو، ما إن شاهدته حتى كادت عيناي تخرجان من محجريهما، وتسقطان في حجري، بدأ قلبي يخفق بشدة ويداي ترتجفان، وجبيني يتفصّدُ عرقا، ولساني أصبح ثقيلا، وشعر رأسي وقف كالحراب، رأيت ما لم أكن أتوقع رؤيته، كان المخلوق الفضائي الذي سبق له أن قفز من هاتفي، وظل يتضخم حتى اقترب رأسه من ملامسة السقف، وكلّمني بصوته الجهوري، ثم رأيته بعد ذلك عدة مرات في الحلم أو ظهر أمامي مباشرة، هو نفسه الذي ظهر في مقطع الفيديو على هاتفي، بنفس بذلته التي تشبه بذلة رواد الفضاء، لكن بلون فضي، وتبدو مطاطية وملتصقة بجسده، وخوذته بنفس لون البذلة وقناع وجهه الزجاجي معتّم، تكلم بصوت خشن وعميق، كصوت رجل آلي:

- نحن الأغراب، اخترناكم واخترنا مدينتكم لنقوم بغزوها، كما اخترناها في الماضي وقمنا بغزوها.

بدأت أصرخ بهستيريا:

- جدي، ماما، بابا، جدتي.

ظللت أصرخ وأصرخ...لفتني دوامة من السواد، وغاب عني كل شيء، فتحت عيني على وجه أمي الباكي وهي تقرب زجاجة عطر من أنفي،

وسمعت صوتها الذي كان بعيدا وعميقا، وهي تطلب من أبي الاتصال بالإسعاف، جدي جالس بجانبي، وراحة يده على جبيني وهو يقرأ القرآن، وجدتي عند قدمي، تتمتم بالدعاء، وأبي واقف بجانب أمي، يحدق في وجهي باستغراب، وعيناه حمراوان، شعرت بالضعف وتذكرت مقطع الفيديو، فقلت بصوت واهن:

- الشبح... المخلوق الفضائي.

قالت أمي باكية:

- أي شبح وأي مخلوقات فضائية؟ ابني حدث له مكروه.

- المخلوقات الفضائية...المخلوقات الفضائية... ستقوم بغزونا.

حمل أبي هاتفي ليتصل بالإسعاف، وقبل أن يفعل ذلك، أعاد تشغيل مقطع الفيديو، فسمعوا جميعا ما قاله المخلوق الفضائي، حاولت الجلوس، لكن جدي منعني من فعل ذلك:

- أسمعتم؟ إنه نفس المخلوق الفضائي الذي ظل يزورني لعدة أشهر.

أخذت أمي الهاتف من يد أبي، وأعادت مشاهدة المقطع وقالت:

- يبدو أنه مقطع من فيلم سينمائي.

قال جدي:

- لا داعي لطلب الإسعاف.

ثم قال لأمي:

- أعدّي له كوبا من شاي اللويزة ليهدئ أعصابه.

أحضر أبي كرسيا وجلس قبالتي كمحقق، وسألني برقة:

- لماذا أخافك مقطع الفيديو يا حبيبي؟ يبدو أنه مقطع من فيلم سينمائي كما قالت أمك.

قلت من وراء دموعي:

- لا...ليس مقطعا من فيلم، المخلوق الذي تكلم في مقطع الفيديو، سبق له زيارتي عدة مرات في غرفتي، وكان يتناوب على زيارتي مع شبح مخيف، والأمر يحدث منذ عدة أشهر.

لم أقل بأنه خرج لأول مرة من هاتفي، لأنهم قطعا سيكذبونني، أعاد أبي تشغيل مقطع الفيديو:

- يبدو أنه حقيقي، حقق ملايين المشاهدات في ساعة واحدة، وهذا المخلوق الفضائي يخبرنا بأنهم سيقومون بغزونا، هل سيغزونا جيش من المخلوقات الفضائية؟ يا إلهي، إن تم ذلك، ستكون كارثة.

بدؤوا يحدقون في وجهي بغرابة، وكأنني أنا المخلوق الفضائي، تحاملت على نفسي، وجلست، فسارعت أمي إلى إسنادي بالوسائد، قرّب جدي رأسي إلى صدره وضمني وقبل جبيني، وقال لي:

- احْكِ لنا يا حبيبي، عن كل ما رأيته من قبل، وصولا إلى هذا الصباح لما رأيت مقطع الفيديو.

حكيت لهم بالتفصيل الممل، عن كل المرات التي زارني فيها الشبح، ووصفت لهم شكله، وما قاله لي هو والمخلوق الفضائي.

ضمتني أمّي إلى صدرها، وقبلت جبيني وهي تبكي، فبللت وجهي بدموعها:

- يا ولدي الحبيب، عانيت كل هذا لوحدك، وكنا نساعد المخلوقات المرعبة على تدميرك، بضغطنا عليك، دون أن نفكر بأن تغيّرك ربما يكون

بسبب مشاكل تعانيها، كان الأحرى أن ندعمك وليس أن نلومك، سامحني يا حبيبي.

- لقد سألتك يا بني لما أحضرت لك الهاتف الجديد، إن كنت تعاني من خطب ما، لكنك لم تخبرني بما كان يحصل معك، فظننت بأن لا مشكل هناك.

أحسست بالتحسن بعد اعترافي، وكأنني ألقيت حملا لم تكن لي الطاقة اللازمة لحمله، ندمت لأنني لم أخبرهم من قبل، بقصة الشبح والمخلوق الفضائي، واخترت أن أعاني لوحدي، لو فعلت ذلك، لكنت تخففت من العبء، رأيت بوضوح ما سببته لنفسي، لأن الضغط الذي عانيته بسبب الخوف والرعب لعدة شهور أثر عليّ سلبا، وجعلني غاضبا باستمرار، فآذيت والديّ وجدي وجدتي وتراجعت علاماتي، وأهملت القراءة، وأصبحت شريرا ولا مباليا، مجرد سماعهم لقصتي الآن، خلصني من التوتر، وسحب الخوف والرعب من نفسي، واقتلع حتى تلك المشاعر الشريرة والبغيضة التي عشّشت في قلبي كالعناكب السوداء، يا لي من أحمق! لماذا لم أخبرهم منذ البداية؟

ارتميت على الوسائد، لأنني أتعبت جدي بوضع رأسي على صدره.

حملت الهاتف وأردت مشاهدة المقطع من جديد، فانتزعته جدتي من يدي بلطف:

- لا داعي لمشاهدة أي شيء الآن يا غالي، افعلْ ذلك لما ترتاح أعصابك.

جدي كان منشغلا بي، وخائفا علي، فاكتفى بما سمعه، لكن بعدما تأكد بأنني تحسنت، طلب من أبي أن يحضر له نظارتيه ليشاهد مقطع

الفيديو، كان لا يزال جالسا على طرف فراشي، راقبته وهو يشاهد المقطع، ما إن انتهى حتى رأيت القلق يغضن ما بين حاجبيه، حدق من جديد في شاشة الهاتف، ورفع بصره ثم أعاد التحديق وهو يضيق عينيه:

- يصعب تصديق هذا، لكن الأمر حقيقي، لقد عادوا.

نظرنا إليه باستغراب وقلنا بصوت واحد.

- من عاد؟

هز رأسه، وحرك يده حول وجهه وكأنه ينش بعوضة:

- لا شيء...فقط...

ظل أبي متصلبا في مكانه وكأنه تمثال، وأمي تساقط ما تبقى على وجنتيها من تفاح أحمر، فأحسست بالخطر يقترب منا، من الصعب أن أستوعب ما جاء في مقطع الفيديو، كيف للمخلوقات الفضائية أن تقوم بغزونا، ألا يوجد في العالم سوى مدينتنا ليتم غزوها؟ إذن، زيارات الشبح والمخلوق الفضائي المتكررة لي، لم تكن من أجل إفزاعي فقط، بل كانت مقدمة لمخطط كبير، لم يُعْلَن عنه إلا اليوم، ربما قاموا بزيارة فتيان آخرين غيري.

هجرت العصافير حديقتنا، فلم يعد يصلني صوت الشحرور الذي كان يغرد خارج النافذة في الصباح.

علّقت أمي وهي تضع في طبقي قطعة لحم، لما كنا نتناول وجبة الغذاء:

- كان الله في عوننا إن تم غزونا فعلا.

أبي لم يعلق، واكتفى بهز رأسه وهو يحدق في طبقه، ثم رأى أن من واجبه أن يتكلم:

- قد يكون الأمر مجرد جعجعة بلا طحن.

تذكرت غيثة، فتحرك ما كان راكدا في قلبي من مشاعر تجاهها، تساءلت: "هل علمت بالخبر؟" تسللت إلى الطابق العلوي بعد العشاء، ودخلت غرفتي ورفعت ستائر النافذة بحذر، ونظرت من خلف الزجاج نظرة متلصصة، كانت غرفتها مظلمة والستائر مسدلة، ألقيت نظرة على الحي، فكانت الريح تقذف أوراق الأشجار في كل اتجاه، والسيارات مركونة على الجانبين، وأغصان الأشجار التي تجردت من معظم أوراقها ترتجف، فانتقلت تلك الرجفة إلى قلبي، عدت إلى الأسفل متسللا حتى لا تغضب مني أمي لصعودي إلى الأعلى، اندسست تحت الأغطية، وفتحت هاتفي فوجدت التغطية غير متاحة.

بعد مرور عدة أيام على الإنذار الذي تلقيناه باقتراب موعد غزونا، كنت ممددا على الفراش بعدما تناولنا وجبة الغذاء، مغمض العينين، وأنا عاجز عن التفكير في أي شيء، وأذناي محررتان من السماعات، لأنني فقدت الرغبة في سماع الموسيقى، وكأنني أتحدى الشبح والمخلوق الفضائي، وكل الأخطار التي أصبحت قاب قوسين منا، فجأة، قصف الرعد بأصوات كطلقات المدافع، وكأن الغزو تم والحرب بدأت، لكن حرب مع من؟ لم أر جنديا واحدا يتحرك في مدينتنا، سمعت زخّات المطر تتساقط، وحباتها تضرب زجاج النوافذ بِغلّ، لم أرد أن أفوّت على نفسي بعض الفرجة، لعل توتري يخف، لأنني أحب رؤية الأمطار وهي تتساقط وتغسل الطرقات والأشجار وأرواحنا، أزحت الستائر المخملية ذات اللون الأزرق المخضر، ونظرت عبر زجاج النافذة، ضيقت عيني وأنا أقرب وجهي من الزجاج حتى لامس أنفي، لأتأكد مما أرى، تراجعت وناديت أبي:

- بابا، بابا، تعال بسرعة.

أتى أبي مسرعا، وتبعته أمي:

- يا إلهي، ما هذا...؟ أنزل الستائر بسرعة، واصعد إلى الطابق العلوي وأغلق النوافذ.

قرب أبي وجهه من زجاج النافذة وتأمل السواد الذي غطاها.

- يا للعجب، إنه مطر أسود.

قلت وأنا غير عابئ بأمر أمي لي، بالصعود إلى الطابق العلوي من أجل إغلاق النوافذ:

- يبدو الأمر وكأنه أصبح حقيقة وليس مجرد إشاعة، ربما بدأ الغزو، أظن بأن الغزاة أطلقوا مادة في الجو، قد تكون موجهة لتلويث الجو والتربة والمياه، يريدون قتل بيئتنا ليسهل عليهم إبادتنا في المستقبل بالتدريج، لأن سكان الفضاء متطورون جدا، من يستطيع القدوم من كوكب آخر لغزو مدينة على الأرض، لا بد أنه قادر على تحويل المطر إلى اللون الأسود، ولابد أنه يمتلك أسلحة فتاكة.

لا أحد منهما سمعني، لأنهما كانا مشغولين بمشاهدة المطر الأسود، انتبهت لي أمي فوجدتني لا زلت واقفا قربها، فنهرتني قائلة:

- هل أغلقت النوافذ في الأعلى؟ ستتسرب الأمطار السوداء إلى غرف النوم وتلوثها.

في جوف الليلة التي تلت هطول المطر الأسود، استيقظت من نومي مرعوبا على أصوات تشبه أصوات جيش من الفيلة، أشعلت النور واقتربت من النافدة ويديّ ترتجفان، رفعت الستائر بحذر، فبدت سماء مدينتنا مضاءة بنور أزرق وهاج، عبارة عن دوائر عملاقة تنداح وتتوسع

وتتداخل، كانت بعض نوافذ الجيران مضاءة، بقفزة واحدة كان والدي بجانبي، رأى ما رأيت، فأنزل الستائر، وأطفأ النور، وقال لي بصوت مرتجف:

- عُدْ إلى فراشك، ألا تعرف بأن إشعال النور، ورفع الستائر، والاقتراب من النوافذ في هذه الظروف، يجلب الخطر؟

لكن الأصوات لم تبق ثابتة في الدرجة نفسها، وإنما ازداد ارتفاعها وحدتها، فأصبحت غير محتملة، قامت أمي، وأعادت إشعال النور، وحملت أخي الصغير الذي كان يبكي، قربت فمها من أذني لأستطيع سماعها:

- تبدو كأصوات الفيلة.

أشرت لها لتقترب من النافذة، ورفعت الستائر وأشرت إلى السماء، فظلت نظرتها ملتصقة بدوائر الأضواء الزرقاء المتراقصة، تبدل الصوت مرة أخرى إلى ما يشبه صوت حوت عملاق، لكن بنغمة مضاعفة آلاف المرات، جلست على البلاط، وضغطت بكفي على أذنيّ، إنه أمر لا يحتمل، وعذاب قاس، يوشك رأسي أن ينفجر ويتحول إلى شظايا، لم أتخيل يوما أن أسمع صوتا بهذه القوة والحدة، صوت يعذب في إزعاجه وقوته، عمّ الصمت فجأة، لكن الطنين ظل يتردد في رأسي ولم يتوقف.

رفعت الستائر ونظرت إلى السماء من جديد، اختفت الأضواء الزرقاء، قبل أن يزحف غبش الفجر على المدينة، هل قضينا ليلة كاملة تحت رحمة تلك الأصوات العالية والمؤذية؟ قمت متثاقلا وعدت إلى فراشي، ظللت جالسا في مكاني أنظر في قلب الظلام، لم أعد للنوم، وكأنني متأهب لوصلة أخرى من التعذيب، أحسست بثقل في رأسي مع تسلّل

خيوط الصباح الأولى من خلال الستائر، فلم أقاوم، وانزلقت تحت الأغطية ونمت، استفقت على رائحة القهوة، لم تعد أمي توقظني، تتركني أنام كما أشاء، لكنني فضلت مغادرة الفراش لأشاركهم وجبة الفطور والحديث عن موضوع الأصوات الرهيبة.

خشيت أن تكون أذن جدي السليمة قد تضررت بسبب أصوات الليلة الماضية، لكن بدا بأنها نجت، لأنه سمعني لما سألته إن كان قد نام بعد صمت تلك الأصوات الفتاكة، فأجابني بنعم.

في وقت الظهيرة ساعدت جدي على الخروج إلى حديقة البيت، جلست بجانبه والشمس تغمرنا بدفئها، فجأة ظهرت في السماء سحب بيضاء خفيفة، فحجبت أشعة الشمس، أحسّ جدي بالبرد، وطلب مني إعادته إلى الداخل، لما أردت أن أدفع كرسيه المتحرك، سمعت انفجارات بعيدة في السماء، رفعت بصري إلى الأعلى فشهقت، وطلبت منه أن ينظر، وضع نظارتيه، ورفع رأسه إلى الأعلى وبدأ يحدق بتركيز:

- لا أرى شيئا، أظن بأنني في حاجة لتغيير نظارتي.

قلت بصوت مضطرب:

- يتفجر في قلب السماء، ما يشبه الشهب الملونة، فتصبح السحب البيضاء شبيهة بالكتل القطنية المصبوغة بكل الألوان، أظن بأننا ننتظر مطرا ملونا يا جدي.

- هذه هي حرب الأغراب يا ولدي، يخوضونها بأسلوب مختلف عن الحرب التقليدية.

لكن المطر الملون لم يتساقط على مدينتنا، ربما ساقت الريح، السحب الملونة إلى مكان آخر، وتساقطت بعيدا عن مدينتنا كشلال من الحلوى، والله وحده يعلم أي خطر مخبأ في تلك الألوان الزاهية.

إذن، لقد تمّ غزونا والسلام، المطر الأسود والأصوات المدوية والغيوم الملوّنة، كلّها كانت نوعا جديدا من الأسلحة، كنت أتوقع حدوث قصف وانفجارات في مدينتنا، لكن لا شيء من ذلك حدث لحد الآن، وكان جدي محقا لما قال بأن حرب الأغراب مختلفة عن الحرب التقليدية، لكن ما هو هدف الأغراب من غزونا؟

استفقت ذات صباح على رائحة احتراق قوية، ودخان تسلّل إلى بيتنا، فبدأت أكحّ، وكدت أختنق، أول ما فعلته، أنني صعدت إلى الأعلى لأستطلع من نافذة غرفتي مصدر الدخان، تساءلت "هل الأغراب يحرقون المدينة؟" لكن الذي شاهدته كان مروعا، كان الدخان يسبح فوق المدينة وفي شوارعها ويتسلل إلى البيوت، وغابة الأرز التي تكسو الجبل الذي يطل على المدينة وكأنه حارسها الأبدي، والذي كان يصحبني جدي إلى سفحه لألعب في صغري، تلتهمها النيران، واللهب يلحس الفضاء بألسنته الحمراء العملاقة.

نزلْتُ إلى الأسفل من جديد، أهلي واجمون، وجدتي تكح بسبب الدخان، وعيونها تدمع، وجدي تلثّم بشال، وريان الصغير يحك عينيه بظاهر يديه ويبكي.

- الغابة تحترق.

أجابتني أمي منفعلة وهي تضع إبريق القهوة على طاولة الفطور:

- رأيناها، إنها الحرب، ونحن في خطر كبير و...

لم تكمل جملتها، وجلست على المقعد منهارة، فنزلت دموعها.

اقتربت منها وعانقتها:

- لا تبكي يا ماما، بوجودنا معا سنخرج من هذه المحنة سالمين.

مسحت دموعها بمئزرها وتنهدت، ثم بدأت تصب القهوة في الفناجين.

قال جدي وهو يمسح عينيه الدامعتين بسبب الدخان:

- أمر عادي أن تشتعل النيران في الغابات في فصل الصيف، لكن ما هو غير عادي وغريب، أن تشتعل هذه النيران في فصل الخريف والجو بارد.

- لكن يا جدي، نتيجة التلوث الذي عرفته الكرة الأرضية، والذي تسبب في ارتفاع درجة حرارتها، ليس غريبا أن تحترق الغابات في الخريف، في المستقبل قد تحترق في فصل الشتاء، لكن بالنسبة لغابتنا يبدو أن الأغراب هم من أضرموا فيها النيران.

- طبعا يا ولدي، هم من قاموا بذلك، وقلبي يحدثني بأمر جلل، ورد في الكتاب الذي يحكي قصة الأغراب، والذي اقتنيته من سوق للكتب القديمة، لما كنت شابا، أن الجبل الذي تغطيه الغابة يوجد الماس في جوفه، وكل من حكموا المدينة لم يستطيعوا استخراجه، لأن الأغراب الفضائيين لما غزوا مدينتنا في الماضي أخذوا الماس ورحلوا بعدما خربوا المدينة، وحصنوا ما تبقى منه بالجن ليقوم بحراسته، ومنذ ذلك الوقت، كل من حاول الحفر في الجبل، يصاب بصعقة لا يعرف مصدرها ويموت في الحال، وذلك هو السبب الحقيقي الذي دفع حكومتنا للقيام بتسييجه، حفاظا على أرواح المغامرين وصائدي الكنوز الذين يحاولون

التسلل إلى الغابة من أجل الحفر، بحثا عن الماس، وليس حفاظا على الغزلان والذئاب والحيوانات الأخرى من الانقراض بسبب الصيد الجائر كما روّجت لذلك، ويقال بأن قصة الماس المحروس بالجن سر من أسرار الدولة الذي لا يعلم عنه الشعب شيئا.

حدق جدي في وجوهنا وكأنه يقيس مدى تصديقنا لقصته، ثم أضاف:

- ربما من قاموا بغزونا الآن، هم الأغراب أنفسهم الذين غزوا مدينتنا منذ مئات، وربما آلاف السنين، لقد أردت إخباركم بذلك في السابق لكنني ترددت.

كنت أتابع جدي باهتمام ودهشة، وهو يسرد قصة الأغراب، وتذكرت تحذيره لي من الاقتراب من السياج الذي يحيط بالغابة، لما كان يصطحبني للنزهة في سفح الجبل وأنا طفل، انتبهت إلى أمر، لا بد أن الكتاب موجود في بيتنا، لحسن الحظ، لما جاء جدي للعيش معنا أحضر كتبه، لا يتطلب مني الأمر سوى البحث في مكتبته بالأعلى، سألته عن شكل الكتاب وعنوانه، فأجابني:

- إنه مجلد قديم.

صعدت الأدراج قفزا، وأنا متعجل لإيجاد الكتاب العجيب، مكتبة جدي علاها الغبار وبدت مهملة، بسبب مرضه وهجره لها، لم يقرأ أي كتاب منذ سنوات، أبي أصبح يتصفح هاتفه بدل تصفح كتاب، أمي مشغولة برعاية أسرتنا، ابتعدت أنا أيضا عن قراءة الكتب في مرحلة ظهور الشبح والمخلوق الفضائي اللذين سببا لي نكسة في حياتي، خصص

لي جدي رفين أسفل مكتبته كنت أصُفّ فيهما كتبي، حتى لا تظل متراكمة قرب سريري.

"آه، ها هو الكتاب" وجدته بسهولة، قرأت عنوانه "الماس والحراس" فعلت ذلك بصعوبة، لأنه مكتوب بخط ذهبي باهت، ونصف حروفه ممسوحة، تجليده قديم وأوراقه مصفرة، يبدو أن قراء كثُر تصفحوه، عدت إلى الأسفل، وتسللت إلى ركن في الصالة، وبدأت أتصفحه، ما قاله جدي هو ما يوجد بالضبط بين دفتي الكتاب، لكن ما صدمني وجعلني أكاد أصاب بالإغماء، هوامش الكتاب، كانت تحتوي على رسومات توضيحية لشخصيات تشبه المخلوق الفضائي الذي ظهر في مقطع الفيديو، أو الذي ظهر لي، لكنها مرسومة بطريقة بدائية، قلبت صفحات الكتاب بسرعة وقلبي يدق كطبل، وجدت رسومات توضيحية أخرى لصحون طائرة، ولأشباح تشبه الشبح الذي كان يظهر لي، تطير في سماء المدينة، فوق الأبنية والأسوار والمآذن والقباب كأسراب من الغربان.

رميت الكتاب، وكأنه أفعى ستلدغني، "يا إلهي، الأمر حقيقي، لقد عاد الأغراب".

أطلعْت أمي على الرسومات، فأخذت الكتاب، وحدقت فيها باهتمام، ثم أعادته لي:

- إنها خربشات غير واضحة، تشبه قليلا رجال الفضاء والصحون الطائرة، لكن عليك أن تعرف بأن هناك أدبا اسمه الخيال العلمي.

- لكن الكتاب، تم تأليفه منذ مئات السنين، والخيال العلمي فن أدبي جديد ظهرت بوادره في القرن السابع عشر.

- مؤلف الكتاب كان ذكيا وسبق عصره.

تنهدت وكانت عيناها تنذران بهطول دموع غزار:

- علينا أن نستعد للأسوأ، أحاول التغاضي عن الحقيقة، حتى لا أخيفك، لأنك عانيت بما فيه الكفاية من قبل.

- هل أنا طفل يا أمي حتى أخاف؟ لمْ يعد يرهبني أي شيء، خوفي الوحيد هو أن تصابوا بأذى.

جدي هو من قرأ الكتاب كاملا واستوعب ما جاء فيه، أردت أن أطلعه على ما اكتشفته، لكنه كان نائما، فلم أرد أن أوقظه، تمددت على الفراش، وأنا أنظر إلى السقف، والقلق ينهشني.

أبي خرج منذ الصباح لشراء بعض المؤن ودواء الضغط لجدتي، والمسكنات لجدي، فتأخر في العودة، تجاوزت الساعة الثانية بعد الزوال، ولم يعد، كنت أتعجل عودته لأطلعه على ما جاء في الكتاب، طلبْت من أمي أن أخرج للبحث عنه، فنهرتني وهي غاضبة:

- إن حدث له مشكل في طريق عودته سيستطيع إنقاذ نفسه، لكن إن خرجت أنت في ظل هذه الظروف فقد تورط نفسك في مصيبة.

- أف،...

قبل أن أكمل تذمري، دخل أبي:

- ما قاله جدي صحيح، من يهاجمنا هم الأغراب الذين سرقوا الماس في الماضي، لم أختلق الأمر، لأن كل شيء مثبت في هذا الكتاب.

قدمت له الكتاب، فأخذه وجلس بجانب جدي وبدأ يتصفحه، بمجرد قراءته لبضعة أسطر، رفع رأسه وحدق في وجهي باستغراب، ثم نظر إلى الكتاب المفتوح بين يديه من جديد، وتوالت على وجهه مشاعر متضاربة، تغضن ما بين حاجبيه ثم جحظت عيناه، وفغر فاه، تابعت

تلك الانفعالات، منتظرا أن يأخذ فكرة عما جاء في الكتاب، تنهد وأغلقه ونظر إليّ ثم إلى جدي وقال:

- لقد عادوا.

قال جدي بعدما ساعدته على الجلوس، وقد ازدادت تجاعيده عمقا:

- عشت وأنا خائف من عودتهم، وها هو الأمر قد تحقق في حياتي ويا ليته ما تحقق، لا يجلبون معهم إلا الدمار والخراب.

كنت جالسا بجانبه، فقلت له مواسيا، وأنا أضع يدي على كتفه:

- إذا كانوا قد عادوا من أجل الماس، فلن يؤذوننا، سيأخذون الماس ويعودون إلى كوكبهم.

- لكن يا بني، لقد تم غزونا، ويبدو أن الأغراب سيكملون مخططهم، كما فعلوا في المرة السابقة، أظنك لم تقرأ الكتاب كاملا.

فعلا، لقد قفزت على الكثير من الفصول، كنت فقط أريد التأكد من أن الأغراب قاموا فعلا بغزو مدينتنا في الماضي البعيد، أكمل جدي حديثه:

- لما غزا الأغراب مدينتنا في الماضي، عذبوا سكانها ولم يوضح الكتاب كيف فعلوا ذلك، فدفعوا الكثيرين منهم إلى النزوح، والفرار بحياتهم، طلبا للنجاة، لكن الذين نزحوا لم يعودوا إلى مدينتهم أبدا، ولم يسمع عنهم أحد بعد ذلك أي خبر، وُجِدت بعض الهياكل العظمية في الصحراء، في نهاية الطريق التي سلكوها، لكنها ليست بعدد من غادروا المدينة، كانت قليلة جدا، سكت جدي قليلا ثم أضاف، نحن من نسل من قاوموا وصمدوا وصبروا وظلوا بالمدينة بعد تدميرها، رغم أنهم فقدوا

الكثير من أحبائهم، لقد أعادوا إعمار المدينة وتكثير نسلها، ومؤلف الكتاب قال بأن هؤلاء الأغراب، أكدوا بأنهم سيعودون إلى المدينة نفسها في المستقبل، ولم يحددوا توقيت عودتهم، لكن مع من تحدثوا؟ ومن أين استقى من كتبوا الكتاب الأحداث؟ هل كانوا شهود عيان؟ أو سمعوها من الرواة؟ ذلك ما لا نعرفه، وقد حِيكت الكثير من الأساطير حول الموضوع، وأضيفت لها الكثير من الإضافات والخوارق كما هو حال الأحداث القديمة التي يتدخل فيها رواة القصص الشعبي، فوصلت المبالغات إلى حدود أنهم نسبوا إلى هؤلاء الأغراب بناء الأهرامات بعدما غزوا مصر، لذلك لم يصدق الكثيرون القصة، واعتبروها مجرد أسطورة صالحة لأن تحكى في الأسواق من طرف رواة القصص الشعبي، وخرافة تحكيها الجدات للأحفاد قبل النوم.

الفصل الرابع

أصبنا بدهشة بالغة، لما اشتغل التلفزيون تلقائيا، وبدأت شاشات هواتفنا تصدر وميضا أخضر، قبل أن ألمس شاشة هاتفي، ظهر عليها وعلى التلفزيون المخلوق الفضائي نفسه الذي وجه لنا إعلانه الشهير عن قرب غزونا، أظن بأنه ناطقهم العسكري، ظهر بنفس زيه ذي اللون الفضي، وخوذته وقناع الوجه المعتم، حملقنا في التلفزيون مشدوهين، فخاطبنا هذه المرة بصوت عدائي ومهدّد، عكس المرة الفائتة حيث كان صوته باردا ومحايدا:

- لقد اخترناكم، وسبق أن اخترنا أجدادكم، وقد قمنا بغزو مدينتكم وانتهى الأمر، لذلك عليكم أن تقوموا بالنزوح عنها في الأسابيع المقبلة، وسنُعْلمكم بتوقيت المغادرة لاحقا، وستطبقون أوامرنا بالحرف، لأننا نحن من نوجه حياتكم، لقد أصبحتم ملكنا، ولا سلطة لكم على أنفسكم، ومن تمرد ورفض النزوح، سنقتله أو سنعذبه عذابا يتمنى معه الموت ليريحه، ولن يتحقق له ذلك، ومن أطاعنا والتزم بتوجيهاتنا فله الحياة والمجد.

لما أنهى خطبته المختصرة انطفأت الشاشة، ومعها انطفأت معنوياتنا، وانطفأ كل أمل في بقائنا في مدينتنا، إذن، سنتعرض للتهجير القسري.

- يا إلهي الرحيم، هذا يعني أن ما جاء في ذلك الكتاب صحيح.

قالت جدتي ذلك وهي تقترب من جدي وتجلس بجانبه، لأنها رغم كل التوضيحات والشروح، لم تصدق ولو كلمة واحدة مما جاء في كتاب "الماس والحراس".

رن جرس باب بيتنا، فأسرعت لفتحه، فوجدت غيثة ووالديها وأختها الصغيرة، رحبت بهم وطلبت منهم التفضل بالدخول، ونظرت إلى غيثة التي بدت مرعوبة ولونها شاحب، ولم يكن والداها أفضل حالا منها، انضموا إلى عائلتي في الصالون، فقالت أم غيثة:

- صباح الخير، اعذرونا، أرعبَنا بيان ذلك المخلوق الغريب، لقد أصبحنا في خطر، ألم يجدوا غير مدينتنا ليقوموا بغزوها؟

أخذ والد غيثة نفسا عميقا:

- اسمعوا، بما أنهم اختاروا مدينتنا، ويريدون طردنا منها، فهذا يمنحنا الحق لمحاربتهم والدفاع عن أرضنا.

بدأت زوجته تنتحب، ونزلت دموع غيثة وشاركتهم أمي البكاء.

قال أبي:

- أظن بأن الحل الأمثل، هو أن ننفذ أوامرهم وننزح عن المدينة، حتى لا نعرض حياة عائلاتنا للخطر.

- إنها مدينتنا، لماذا نتركها لهم؟ سأرْسل الفتاتين وأمهما إلى مكان آمن، أما أنا فلن أغادر، سأبقى هنا، ولن تهزمني أمطارهم السوداء أو الأصوات المدوية، أو حرائق الغابة، فليحرقوا المدينة أيضا إن أرادوا ولن أترك بيتي.

أعجبت بشجاعة عمي فؤاد، وتمنيت لو تكون لأبي الشجاعة نفسها، لأنني أفضل البقاء على النزوح، وليحدث ما يحدث، إنها أرضنا، لكني لم

أظهر ذلك، وبقيت صامتا لا أتدخل في النقاش، ومهتما فقط بتقديم المناديل الورقية للنساء الباكيات.

قالت أم غيثة من خلف دموعها:

- لن نتركك خلفنا، إما ننزح معا، أو نبقى معا.

لما لاحظت بأن أمي لم تقم بواجب الضيافة، أخذت المبادرة وقمت إلى المطبخ وأحضرت زجاجة عصير، ملأت الكؤوس وقدمتها للجميع، فلم يمسسها أحد، باستثناء الصغيرة ريم وريان.

طلب مني جدي مساعدته للانتقال إلى الصالون، جلس وسوّيْت وسادة خلف ظهره، وشاركت في النقاش لما حانت اللحظة المناسبة:

- هؤلاء الأغراب يا عمي، تصعب محاربتهم، لأنهم مخلوقات فضائية.

حدجني بنظرة غاضبة، وقال:

- حتى وإن كانوا من الجن الأزرق، لن نسمح لهم بطردنا من مدينتنا، من منحهم هذا الحق، إنهم مستعمرون وقتلة؟

- آدم محق، إنهم أقوياء، وهم مخلوقات فضائية، وسبق لهم غزونا، كان ذلك منذ مئات السنين، لكن أنا معك فيما يخص النزوح، ليس لهم الحق في تهجيرنا.

ولكي يؤكد جدي ما قاله، طلب مني إحضار الكتاب الذي كان موضوعا على طاولة صغيرة في طرف الصالون، تصفحه عمي فؤاد، والدهشة بادية على وجهه، ولأختصر عليه الطريق، تطوعت وقدمت تلخيصا مختصرا لما جاء فيه.

- يا إلهي، هذا غير عادل، إنها مصيبة كبيرة، لكن ما هدفهم من دفعنا للنزوح عن مدينتنا؟ هذا كفيل بأن يجعلني أصر على البقاء هنا، ولا قوة في الكون قادرة على زحزحتي عن موقفي.

رأيت منسوب الخوف والحزن يتضاعفان في عيني غيثة ووالدتها، أمام إصرار عمي فؤاد الذي لم يلن، رغم معرفته بنوعية هؤلاء الغزاة.

سمعنا هديرا في الخارج، رفعت ستائر النافذة، فالتحقت بي غيثة، ووقفت بجانبي، ثم تبعها الجميع، من أجل معرفة مصدر الهدير، رأينا مخلوقات سوداء صغيرة، تدور في الجو وتقترب من الأسطح والنوافذ، فجأة فوجئت بإحداها أمام وجهينا أنا وغيثة، خلف الزجاج، فتراجعنا إلى الخلف مرعوبين، ارتفعت في الجو من جديد ثم اختفت، إنها على شكل ذبابة آلية كبيرة في حجم طائر صغير، أنزلت أمي الستائر وهي تنبهنا:

- يبدو أنها طائرات مسيرة، ابتعدوا عن النوافذ، قد تعود لقصفنا.

في اليوم التالي، زارنا الذباب الآلي مرة أخرى، حلق حول النوافذ، ودخل بيتنا، لأنه وجد منفذا، كنا قد نسينا نافذة الحمام الصغيرة مفتوحة، حلق في كل أرجاء البيت، فأشارت لنا أمي بالهدوء، والتزام أماكننا، خوفا من أن يكون مجهزا بسلاح، ظل يدور في أنحاء البيت وهو يصدر أزيزا مزعجا، أراد ريان أن يصرخ فأغلقت أمي فمه، طار الذباب عبر الدرج إلى الطابق العلوي، ثم نزل من جديد إلى الأسفل، كن ثلاث ذبابات، خرجن من حيث دخلن بعدما أطلقن وميضا في وجوهنا، ركضت إلى النافذة، فتبعتني أمي وهي تهدئ أخي الذي أطلق العنان لصراخه، بعدما كادت تخنقه حتى لا يثير انتباه الذباب الآلي.

كانت سحابة سوداء منه تغطي السماء، لكن في طرفة عين لم يعد له وجود، وعاد لسماء المدينة صفاؤها، وأعاد لي ذلك بعض الأمل:

- ربما لن يؤذوننا؟

- نرجو ذلك. قالتها أمي، ثم خيم صمت القبور على بيتنا.

بعد يومين، تسللت إلى الأعلى بعد العشاء، وراقبت نافذة غرفة غيثة لعلي أراها تطل منها، فأشير لها لتنزل وتقابلني في الخارج، لنتبادل آخر الأخبار، لكن نوافذ البيت بدت مغلقة، وستائر الألمنيوم الخارجية منسدلة، ربما يخافون من عودة الذباب الآلي، في الغد أيضا لم يظهر لهم أثر، إذن، ربما غادروا المدينة، ووالدها قد يكون غير رأيه، ورافق ابنتيه وزوجته، كلهن نساء، من سيحميهن؟ لن يسمح لهن بالنزوح بمفردهن.

لقد غادروا قبل أن يفرض علينا الغزاة البقاء في البيوت، فقط الآباء من أصبح لهم الحق في الخروج، بعدما وضع الذباب الآلي شارة بيومترية عند كل باب، تحمل صورة المسموح له بالخروج من أفراد الأسرة، فهمنا لماذا كان الذباب يلتقط لنا الصور، لا بد أن الأغراب قد قاموا بإحصائنا أيضا، لم يضيعوا الوقت، وأصبحوا يعرفون كل سكان المدينة، وربما كل كبيرة وصغيرة عنهم.

أخذت الشارة من يد والدي، وقلّبتها بين أصابعي، كُتبت عليها ملاحظة: "صاحب الشارة يعلقها على صدره، ومن خرج بدونها يصبح هدفا"، لمستها من جميع الجوانب، فلاحظت بأنها دافئة، قلت على الفور وأنا أضعها في كف أبي ليتأكد بنفسه:

- بابا إنها دافئة، يبدو أن بداخلها شريحة ملحقة ببطارية، وهي مشغلة، علينا أن نأخذ حذرنا، أظن بأننا مراقبون.

أخذ أبي الشارة وتحسسها:

- فعلا، إنها دافئة، يبدو أنهم وضعوا جاسوسا في كل بيت.

بدا لي بأن أمورنا تتعقد، وأصبحنا في قبضة الأغراب المحكمة، طرأت على بالي فكرة، فطبقتها في الحال، كتبت جملة على ورقة ومررتها لأمي فقرأتها ومررتها لجدتي التي مررتها لجدي الذي مررها بدوره لأبي، كل من قرأها كان يهز رأسه علامة على الموافقة، اقترحت أن نخبئ الشارة، لما يكون أبي موجودا في البيت، في الخزنة الحديدية بغرفة والديّ بالطابق العلوي.

ما إن قرأ أبي الاقتراح حتى أخذ الشارة على الفور، وصعد إلى الأعلى لينفذ الفكرة، ولما عاد تنفس الصعداء:

- قد نتحمل العيش مسجونين في بيوتنا، أما أن نكون مراقبين، يتنصت علينا الأغراب، فذلك ما لا يُحتمل.

طلب أبي أن نعقد اجتماعا لنناقش موضوع النزوح الذي أمرنا به العدو، كان جدي أول المتدخلين، فقال:

- لن أذهب إلى أي مكان، سأظل هنا.

لكن أمي التي بدا بأنها تحمل العصا من الوسط، وضعت يدها على طرف طاولة الطعام وتأملت كفها، وكأنها تقرأ طالعها، ثم شبكت أصابعها، ونظرت إلى أبي وقالت بصوت غير واثق:

- علينا أن ننزح، إن لم نفعل قد يدمرون البيت فوق رؤوسنا، ألم تقرأ ما جاء في الكتاب، لما غزوا المدينة في الماضي، قاموا بعد نزوح السكان بتدميرها حتى لا يتمكنوا من العودة إليها، ومات معظم من ظلوا بها.

ظل أبي صامتا، فقال لها جدي:

- لكن الذين تشبثوا بأرضهم ورفضوا النزوح، ونجوا من بطش الأغراب، هم من أعادوا بناء المدينة وكثروا نسلها.

في تلك الليلة لم ننم ولو لدقيقة واحدة، وفي الغد أيضا، والذي بعده، كدت أجن، ريان لا يتوقف بكاؤه، فيزيد من عذابي، من المؤكد أن الأغراب قاموا بتلقيح الهواء بمادة مضادة للنوم، إنه سلاح غريب سلطوه علينا، ليقوموا بتعذيبنا بالحرمان منه، لكي ننهار فنستسلم ونغادر بسرعة، يبدو أنهم مستعجلون لنُفرغ لهم المدينة.

في اليوم الرابع نفذ مفعول السلاح السحري، فسقطت على فراشي كالميت، ونمت لعشرين ساعة متواصلة، ولم أستفق، إلا على صوت عالٍ وحاد ومزعج، وكأن ألف أسد يزأر قرب أذني، قفزت من فراشي مرعوبا، "ماذا فعلنا ليمارس علينا كل هذا العذاب؟" كان الجميع مستيقظين، نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط، كانت تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، رفعت الستائر، لأرى إن كانت توجد في السماء أضواء كالمرة الفائتة، كانت فعلا موجودة، لكن هذه المرة بألوان الشفق القطبي، لكنها على شكل دوائر وتنداح ثم تتراجع وتتراقص، أغلقت أذني، لكنني أحسست بأن طبلتيهما ستنفجران في أي لحظة.

أحسست بغضب كبير يشتعل في صدري، لماذا لا ينزل إلينا الأغراب الملاعين من الأعلى؟ ويحاربوننا وجها لوجه، وقتها سأنضم إلى الجيش وأقاتلهم، ينتظرون أن ننزح عن مدينتنا لينزلوا فيخرجون الماس ويهدمون المدينة من أجل إعدادها لغزوهم المقبل، يخشون إن تركوها على حالها، أن يجدوا سكانها في غزوهم الموالي، قد طوروا أسلحة يحاربونهم بها، وإن كانوا مختبئين كالجبناء فوق السحب، ولم لا، يقومون بغزوهم في كوكبهم

الذي سيصلون إليه حتما إن توفرت لهم الوسائل والتطور الكافي في علوم الفضاء. ظللنا على تلك الحال لعدة ساعات، ثم توقف الصوت الوحشي الذي كان يحفر بمخالب من حديد في آذاننا ورؤوسنا، وفي اليوم التالي استيقظنا من النوم متأخرين.

- علينا أن نغادر هذا الجحيم.

قالتها أمي، وهي تنتظر ذوبان حبتي أسبرين في كوبي ماء، واحدة لها وأخرى لجدتي.

امتدت يد الأغراب القذرة إلى الماء والكهرباء، بعدما ظلت في منأى عنهما طيلة الفترة الماضية.

قالت أمي لما اكتشفت ذلك:

- قطعوا علينا كل شيء، بقي لهم الهواء فقط لم يقطعوه بعد.

بدأت أمي تقتصد في الماء الذي كانت قد وفرته تحسبا لما حصل، واشترى أبي الشمع للإضاءة، أصبحنا نستعمل الماء للشرب فقط، فأصبحت رائحة أجسادنا لا تطاق، اقترحت أن نبلل خرقة ونمسح بها أجسادنا، شاهدت ذلك في فيلم حول عائلة كانت محاصرة بسبب الحرب، فوافق الجميع على الفكرة، قمت بتنظيف جدي بنفسي، لكن كيف سنغسل الملابس؟ خيارنا الوحيد هو أن نستمر في تبديل ثيابنا إلى أن تتسخ كلها.

أصبح جدي مهووسا بمحاولة التقاط بث الراديو، فيصمّ الطّشيش أذنه السليمة، فيضعه على الطاولة الصغيرة بيأس، جلست بجانبه وأنا غاضب، لعلي أستمد منه بعض الهدوء، حدق في وجهي ثم لاحظ قبضتي المشدودة، ابتسم لي بحب، ووضع يده على قبضتي فأرخيتها، تناول يدي

بيده النحيفة والمعروقة، أحسست بارتجافها الخفيف، بسبب بداية أعراض مرض الباركنسون، لقد أخطأت في حق جدي الحبيب، قربت يده من فمي وقبلتها بحب، حب عميق وخالص، حب لا حدود له، حب كان متكلسا في أعماق قلبي بسبب ظهور الشبح والمخلوق الفضائي اللذين جعلاني أبتعد عنه واعتقدت بسبب نزعة شريرة استحوذت علي، بأنني شببت عن طوق ذلك الحب العظيم الذي كنت أكنه له، قبلت يده ثم رأسه، وكأنني أعتذر منه بطريقة صامتة، لأن الجحود وصل بي في تلك الفترة المظلمة، أن أستعرّ من أن أكون شبيها له، لمحت دمعة تترقرق في عينيه، ربما لأنه أحس بأنه استعاد حب حفيده الحبيب، عانقته وقلت له:

- جدي حبيبي......

بكيت بحرقة الطفل الذي كنته، وظللت أشهق ورأسي مدفون في صدره النحيف، ودقات قلبه تربت على روحي لتطهرها من كل ما يكربني وهو لا ينطق بكلمة، فقط يملّس على شعري، لما رفعت رأسي أتتني أمي بكوب ماء ومنديل لأمسح دموعي.

قالت جدتي التي كانت تمسح دموعها وريان في حضنها، في محاولة منها تخفيف الجو المشحون بالكآبة:

- ستجعلني أغار، كما كنت أفعل في صغرك، لأنك كنت تحب جدك أكثر مني، وتقول لي، بأن حبك لي بحجم المغرفة.

فعلا، لما كنت طفلا، وكان جدي يسألني عن حجم حبي له، كنت أجيبه دون تفكير:

- حبي لك بحجم الكون وبيتنا ودبي نونو.

فيسألني من جديد "وجدتك، كم حجم حبك لها" كنت أقترب منها وأحدق في وجهها وكأنني أقيس حجم الحب الذي تستحقه، ثم أعود وأقفز في حضن جدي لأحتمي من العقاب الذي قد يلحقني من جوابي وأقول وأنا أضحك:

- حبي لجدتي بحجم المغرفة.

فينفجر جدي ضاحكا، وتتظاهر جدتي بالغضب، كنت أجيب بذلك الجواب فقط لأسعد جدي، فأنا كنت لا أقصده، رغم صغر سني.

ضحكت من خلف دموعي، وضحك جدي بسعادة، وبرقت عيناه المتعبتان، وقمت لأقبل رأسها ويدها، فقالت لي:

- حفظك الرحمن يا ولدي الحبيب، سنخرج سالمين إن شاء الله من هذه المحنة.

أبي لم يعلق، كان يتابع المشهد بصمت، وريان يحدق في وجهي بدهشة، وكأنه تعجب من رؤية بطله الخارق يبكي، لأنه كان يطلب مني أن يتعلق في ذراعي، لما أكون أمرن عضلاتي بزوج الدمبل، أو أحمله وأرميه في الهواء وأتلقفه كدمية.

أخذت جدتي نفسا عميقا وتنهدت، وكأنها تذكرت وضعنا، ثم طلبت مني أن أرى إن كانت خطوط الهاتف قد عادت للاشتغال:

- أريد الاتصال بعمتك ليلى.

كلنا كنا نشعر بالقلق على عمتي وأبنائها، ابنها أنس أيضا انقطعت أخباره، بسبب انقطاع شبكة الأنترنت، كان يزورنا مع عمتي باستمرار بسبب صداقتنا، عكس ابنيها الآخرين اللذين لم نكن نراهما إلا في المناسبات والأعياد.

- خطوط الهاتف مقطوعة يا جدتي.

نظرتْ إلى أبي وتكشيرة مرسومة على وجهها:

- ما فائدة تلك الشارة، إن لم تمكنك من الوصول إلى منزل أختك لتطمئن عليها؟

أجابها أبي وقد ارتسمت على وجهه علامات العجز والحزن:

- لا أستطيع يا أمي، لا أستطيع تجاوز الشارع الذي يوجد خلف حينا، هذه الشارة فقط من أجل الخروج للتزود بالمؤن، إذا تجاوزت المساحة التي تغطيها سأصبح هدفا، هل تظنين بأنني لا أرغب في الاطمئنان على أختي وأولادها؟

هزت جدتي رأسها بيأس وعادت للبكاء.

فكرت في الذهاب إلى بيت عمتي ممتطيا دراجتي، لأطمئن عليهم، لأن دموع جدتي صعُبت عليّ، لكني سرعان ما تخليت عن الفكرة، للخطر الذي قد يهددني في الطريق التي لا بد أنها محروسة، وإن تم رصدي، قد يقتلني الأغراب بلا رحمة، أو يختطفونني، خاصة وأنهم قد أرسلوا لي سابقا رسائلهم الشفوية عن طريق الشبح والمخلوق الفضائي.

أظن بأن شجاعتي التي استعدتها بعد اعترافي لأهلي بقصة الشبح والمخلوق الفضائي، اكتشفت بأنها تتلخص في صمودي أمام آلة التعذيب التي سلطها علينا الأغراب، وفي مواجهة ما نعانيه أنا وأسرتي من ضغوطات، كان لي مفهوم خاطئ عن الشجاعة، وكنت أظن بأنها تلك التي أشاهدها في الأفلام وفي ألعاب الفيديو، والبطل الشجاع هو ذلك الذي يحارب جيشا بمفرده وينتصر، ثم يغادر أرض المعركة بعدما يترك خلفه دمارا هائلا، ويخرج من وسط لهب النيران سالما، فقط ما تلوث من وجهه

وذراعيه بدماء الأعداء والغبار والدخان، أو يقفز إلى البحر من بين فكي قرش عملاق دون خدش واحد، بعدما يقوم بكسر فكي القرش بيديه العاريتين، ويسبح بعيدا عنه في مياه البحر التي تكون قد تلونت باللون الأحمر، ويحارب سكان كوكب آخر يحاولون غزْو الأرض، فيطاردهم بطائرته المعدلة التي يحولها إلى صحن طائر، فيفر سكان الكوكب المجهول محاولين النجاة بأنفسهم، بعدما يحطم عددا هائلا من أطباقهم الطائرة، ويقتل معظم جنودهم الذين يسيل من أجسادهم بدل الدم هلاما أخضر، كنت أتماهى مع أولئك الأبطال، وكان لي يقين بأنني لو مُنحت لي الفرصة، لقمت بما يقومون به بكل شجاعة، لكن ما يحدث لنا الآن، جعلني أغير رأيي في الشجاعة وفي البطولة، وأعتبر أولئك مجرد أبطال من ورق وكرتون.

خرج أبي لقضاء بعض الأغراض، فتخدرت أطرافي وأنا ممدد على الفراش في ركني بالصالة، حملت زوج الدمبل لأمرن عضلاتي، ولما تعبت، اقتربت من جدي وطلبت منه أن يسمح لي بتمسيد قدميه المتورمتين بسبب انعدام الحركة وارتفاع الضغط، أخرجت قدميه من تحت الغطاء، فمسدتهما وضغطت على عدة مناطق في باطنهما وهي طريقة صينية كنت قد رأيتها في مقطع فيديو، قمت أيضا بتحريك ركبتيه وتدليكهما حتى لا تصابا بالتيبس، أثناء قيامي بذلك كان يدعو لي وهو مغمض العينين والإحساس بالراحة يرتسم على وجهه بوضوح.

كانت جدتي تراقبني من خلف نظارتها:

- جدك من تدلك قدميه، وأنا المسكينة، لا زال حظي معك بحجم المغرفة.

أصبحت أحاول أن أقوم ببعض الأمور البسيطة، من أجل التخفيف ولو قليلا عن جدي وجدتي وطأة ما نعانيه جميعنا، لأنني متأكد من أن معاناتهما أكبر، نظرا لكبر سنهما ومرضهما وضعف تحملهما للعذاب المسلط علينا من الأغراب.

مرت ثلاثة أسابيع على ظهور المخلوق الفضائي على التلفزيون، والذي أمرنا بالنزوح، وذات صباح، قفزت من فراشي، وجريت ناحية الباب لما سمعت الجرس يرن ونحن لا نزال نياما، سبقت أبي الذي لحق بي، أزاحني قبل أن أنطق بحرف، أطل من عين الباب، ثم فتحه، وهو يقول:

- إنه أنس.

احتضنه قائلا:

- حبيبي أنس، كيف حال أمك وأخويك؟

تبادلت العناق مع أنس الذي كان سعيدا بلقائي.

سألته متعجبا:

- كيف استطعت الوصول إلى هنا؟

- لقد بطل مفعول الشارة، تساقط على حينا منشور يأمرنا بالنزوح غدا، أمي أرسلتني لأطمئن عليكم، هي لم تستطع الحضور بسبب بعد المسافة، وكما تعرفون، التنقل ممنوع بالسيارة في المدينة.

- هل ستنزحون سيرا على الأقدام؟

- لا يا جدي، جاء في المنشور أننا سنجد الحافلات التي ستوصلنا لوجهتنا، وسط المدينة، سنغادر غدا على الساعة الثانية عشرة زوالا.

أراد الانصراف، فطلبت منه البقاء، لكنه اعتذر:

- سأذهب لمساعدة أمي في جمع أغراضنا.

ودعنا بعناق آخر، وانصرف بعدما قلت له:

- قد نلتقي في الطريق، يبدو أننا نحن أيضا، سنُغادر قريبا.

الفصل الخامس

بعد مرور أسبوع كامل على زيارة أنس لنا، خرج أبي لشراء بعض الأغراض، ولما عاد كان يحمل في يده على ما يبدو منشورا، بدا قلقا ومتوترا وحزينا في الوقت نفسه:

- جاء دورنا، غدا سننزح، كل من يصله المنشور، لا يتبقى أمامه سوى أربع وعشرون ساعة للمغادرة، إنها الطريقة نفسها التي أخبرنا بها أنس، سنستقل الحافلة من وسط المدينة، إنها قريبة منا، على بعد شارعين فقط، سنذهب مشيا على الأقدام، وأبي سندفع به كرسيه المتحرك.

فوجئت بالخبر وكأنني لم أكن أعرف بأن الأمر سيحصل لا محالة.

قالت جدتي:

- لكن إلى أين سنذهب؟

أجابتها أمي:

- أرض الله واسعة، النزوح أفضل من البقاء في هذا الجحيم، ننتظر الموت.

كانت أمي قد وضعت كل الاستعدادات لنغادر في أية لحظة، دون أن تنتظر صدور الأمر للقيام بذلك، فأعدت الكعك، وحمصت الطحين، ووضعت بعض المعلبات مع قنينات ماء صغيرة في كيس، بالنسبة للملابس، أكد عليها أبي أن نحمل الضروري فقط، غيارا واحدا لكل منا، ونرتدي ما نقدر عليه، لأن فصل الشتاء على الأبواب، والبرد قارس، مع

غطاء خفيف لجدي، يعني على الأكثر، حقيبة واحدة نستطيع جرها، وحقيبتي ظهر صغيرتين، واحدة لي وأخرى لأبي، وحقيبة كتف صغيرة، نضع بها المال والوثائق المهمة، وهواتفنا أملا في عودة الربط بالشبكة، فنتواصل مع أحبابنا، قال جدي، وهو ممدد على الأريكة:

- أنا مصمم على البقاء هنا، لن أغادر إلى أي مكان، أريد أن أموت على أرضي.

أحسست بحب جدي يانعا ومزهرا في قلبي، ويرتفع في السماء، ويتجاوز السحاب كشجرة الفاصوليا السحرية، اقتربت منه وانحنيت عليه، وقبلت رأسه ويديه النحيلتين المعروقتين، فشممت فيهما روائح طفولتي تنبعث قوية كتلك المتضوعة من بخور يوم العيد الذي كانت تحرص جدتي على وضعه في المبخرة النحاسية الصغيرة، فتعطر بيتنا كله:

- سنرحل معا يا جدي حبيبي، أو سنبقى معا، لن أغادر بدونك، ثم أضفت محاولا رفع معنوياته "أنا من سأدفع بك كرسيك المتحرك وسنسبقهم، انظر إلى عضلاتي، ربيت هذه العضلات لهذا اليوم، لأستطيع أن أخدمك وأن أحملك على ظهري إن اقتضى الأمر".

ابتسم لي وربت على يدي بمحبة، ثم نزلت من عينيه دمعة حاول مداراتها.

ساعدته على النهوض، وألبسته معطفه، ووضعته على كرسيه المتحرك، وغطيت ركبتيه بغطاء صوفي بمربعات سوداء ورمادية، ووضعت وسادة صغيرة في حجره تحسبا لاحتياجها فيما بعد، خرجنا من بيتنا، وغادرناه ودموع جدتي ترش جذعي شجرتي الليمون وهي تودعهما، قطعت

وريقات من أحد الأغصان، وفركتها ثم شمتها، وكأنها تريد أن تخبئ رائحتها في صدرها إلى الأبد.

خرجت أمي من باب البيت وعادت وكأن قلبها لا يطاوعها على المغادرة، قال أبي بحزم:

- علينا أن نسرع، ستمتلئ الحافلات بالركاب، ولن نجد مكانا لنا.

كان لوقع كلمات أبي مفعول سريع، لأن أمي غادرت البيت في الحال ودون تردد، فأغلقه والدي بالمفتاح وسلمه لوالدتي فعلقته في رقبتها كتميمة، رفعت عيني، ونظرت نظرة أخيرة إلى نافذة غرفتي التي شهدت على ولادة كل أحلامي المتأججة، وكل أفراحي وأحزاني وخوفي وغضبي وحبي وآمالي وانتكاستي، ودّعتها وفي نفسي غصة يخفف منها أمل في عودة قريبة.

أغلق والدي باب الحديقة، جيراننا أيضا منهم من غادر، ومنهم من لم يغادر بعد، غيثة وعائلتها لم يظهر لهم أثر منذ زيارتهم الأخيرة لنا. أبي ترك سيارته في المرآب، على أمل العودة، قلت في نفسي لما أفصح عن ذلك لجدتي، ولم لا؟ قد نعود سريعا، ونجد بيتنا سليما وسيارة أبي في مكانها، وأثاث بيتنا لم يمس، وأغراضي بغرفتي، وسريري مرتب يحتاج فقط لنفض الغبار عنه.

سكّان حينا وسكان الأحياء المجاورة، يسيرون باتجاه وسط المدينة، حاملين أغراضهم وأطفالهم، ويساعدون الشيوخ والمرضى على المشي، والمحظوظون مثل جدي لهم كرسي متحرك، إنّ ما يحدث لنا غير عادل وغير معقول.

وصلنا أخيرا إلى حيث تصطف عشرات الحافلات، كان بعض الشباب ينظمون صعود الركاب، طويت كرسي جدي، ووضعته مع

حقيبتنا في قلب الحافلة، واحتفظنا بكيس الطعام وحقيبتي الظهر، كنت مجهدا من التفكير، ومن التوتر ومن التعب، لكنني بقيت منتبها، لأظل مطلعا على ما يدور حولي بعد ركوبنا الحافلة، جلس كل أفراد عائلتي بجانب بعضهم البعض، اخترت الجلوس بجانب النافذة وأجلست جدي بجواري لأستطيع الاعتناء به.

كان السائق يرتدي زيا بلون أزرق ليلي وقبعة، لكن الغريب أنه كان عجوزا في عمر جدي، تعجبت، كيف سيستطيع رجل في هذا السن أن يسوق بنا الحافلة، سمعت تعليقات مشابهة من بعض الركاب، أردت أن ألفت نظر جدي إلى ذلك، لكنه كان مغمض العينين، كنت متأكدا بأنه غير نائم، من ينام وهو مغادر بلده وبيته وهو في سنه؟ لابدّ أنه يريد إخفاء مشاعر الألم والحزن والاحتفاظ بها لنفسه، أما أنا، فقد أحسست بالتخفف من بعض التوتر لما انطلقت الحافلة، وببعض الأمان، وببعض الأمل في النجاة أنا وعائلتي، لكنني سألت نفسي: "إلى أين نحن ذاهبون؟".

اجتازت حافلتنا الكثير من الشوارع ببطء شديد، مع صف من الحافلات الأخرى التي تشبه صف نمل طويل، كانت المحلات التجارية والمقاهي والمطاعم مغلقة، ونوافذ البيوت موصدة وشرفاتها فارغة من الغسيل، لفت انتباهي وجود غربان تحوم في الجو، لماذا الغربان وليس طيورا أخرى؟ في العادة يعيش في المدينة الحمام والشحرور والدوري، دققت النظر فيها، فبدت لي أشباحا سوداء وليست غربانا، كان عددها كبيرا، فركت عيني لأتأكد إن كان الأمر حقيقيا، ظهر أحدها من العدم، والتصق بزجاج نافذة الحافلة حيث أجلس، وبدا كخفاش ضخم، حدق في وجهي بعينيه المظلمتين، وطار من جديد، لم أتأكد إن كنت أحلم أو

رأيت ذلك حقيقة، التفتّ حولي مرعوبا، جدي نائم وأخي الصغير أيضا نائم في حضن أمي، والركاب بعضهم ينظر إلى الخارج ولا أحد منهم رأى الأشباح، لماذا لم تظهر لأحد غيري؟ هل المخلوقات الفضائية تتحول إلى أشباح؟ وهم الآن يراقبون مغادرتنا للمدينة عن كثب، ويُظهرون أنفسهم لي، لكن لماذا أنا بالضبط؟ نظرت من جديد خارج نافذة الحافلة، كانت السماء صافية، ولا أثر فيها لا لغربان ولا لأشباح.

خرجنا من المدينة، ومررنا بطريق أسفل الجبل الذي اتشح بالسواد، ومعظم أشجاره المحترقة لا تزال واقفة وهي ميتة، الحافلات تسير في خط واحد وببطء، اتجهَت غربا، لأن الطريق الذي يتجه إلى الشرق كان مدمرا، وأول جسر رأيناه من بعيد كان عبارة عن أنقاض، الطريق المتجه إلى الغرب هو الوحيد الذي كان سليما، فسلكته الحافلات، لكن متى تم هدم الجسر والطريق؟ لم نسمع صوت أي قصف، هل للأغراب صواريخ متطورة تنسف بلا صوت.

جاء الليل بعد يوم طويل، فتوقفت الحافلات بجانب الطريق، ونبه علينا السائق، بأنه ممنوع علينا الخروج، إلا لقضاء الحاجة، وزعت علينا أمي بعضا من الطعام الذي كانت تحمله، بطاطس مسلوقة وإصبع نقانق وعلبة عصير صغيرة لكل واحد منا، بعد تناول الطعام، شاركت جدي غطاءه، فأسند رأسه على كتفي ونمنا، بعد الفجر انطلقت الحافلات فاستفقت على اهتزازها، كان البرد شديدا، والحافلة مظلمة، ورضيع يبكي، غطيت رأسي ورأس جدي لنستمد بعض الدفء من تنفسنا تحت الغطاء، ثم عدت للنوم، لم أعرف كم مرّ من الوقت لما استيقظت على صوت أمي:

- صباح الخير يا عمي، كيف حال ركبتيك.

الحمد لله يا بنتي، ماذا سيحصل لنا أكثر مما حاصل؟

كانت تشغل، هي وأخي الصغير، المقعدين المحاذيين لمقعدينا، لما فتحت عيني وسحبت الغطاء عن وجهي، قالت لي مشجعة:

- صباح الخير يا حبيبي، أعرف أنك لم تنم جيدا.

لكن الصحيح أنني نمت جيدا، لأن عدم الإحساس بالأمان والتعذيب الذي مارسه علينا الأغراب، سببا لي الأرق المستمر، فأحسست هنا في الحافلة ببعض الأمان المؤقت فنمت بعمق.

- صباح الخير ماما، صباح الخير جدي.

قبلت يد جدي، فمرر كفه على وجهي ليمنحني بركته، مدت لي أمي علبة حليب صغيرة وشفاطة وكعكتين، وهمست لي بصوت منخفض:

- فطورك أنت وجدك.

قدّمت له كعكة وعلبة الحليب، واحتفظت بالكعكة الأخرى لي، وقلت له:

- تناول فطورك يا جدي لتتناول دواءك، أنا تكفيني الكعكة.

أراد جدي أن يعترض فأقسمت عليه أن يشرب الحليب لوحده حتى لا يسبب له الدواء حرقة في المعدة، وطلبت من أمي أن تعطيني قنينة الماء.

سحبت ستارة النافذة ونظرت إلى الخارج، لم يكن في السماء أشباح، فقط سحب بيضاء خفيفة تحركها الريح، ابتعدنا عن مدينتنا كثيرا، بعدما مررنا بقرى مهجورة وبجبال واقفة في حزن وكأنها تودعنا، وهي تراقبنا وتراقب النازحين الذين بلا عدد، من سكان القرى، وهم يسيرون على جوانب الطريق، رؤوسهم مطأطئة، ووجوههم مغبرة ومجهدة وحزينة،

يحملون القليل من متاعهم على ظهورهم، والمحظوظون منهم، من يملكون حمارا أو بغلا يحملون عليه بالإضافة إلى المتاع، الصغار أو الشيوخ العاجزين عن المشي، تطلعوا إلينا لما مررنا بجانبهم، وكأنهم يغبطوننا على نعمة وجودنا بحافلة تجنبنا مشاق الطريق، تجاوزتهم الحافلات وخلفتهم وراءها، وصلنا في وقت الظهيرة إلى أرض خلاء منبسطة، يخترقها طريق طويل كثعبان خرافي، توقفت الحافلات فجأة، ووقف السائق في مواجهتنا، وخاطبنا بلهجة آمرة:

- ستنزلون هنا، أنتم في أمان، تابعوا السير إلى الغرب، وستصلون لوجهتكم، من ناحية الطعام، لا تحملوا هما.

في رمشة عين، تحول السائق إلى شبح دخاني، ثم عاد لصورته الطبيعية كسائق ببذلة وقبعة ووجه مخطط بالتجاعيد، تشبثت بطرف المقعد وتلفتّ حولي، لا أحد رأى ما رأيت هذه المرة أيضا، قبل أن يعود إلى مقعد السائق، خصني بنظرة مركزة كادت تقتلع قلبي، لم ألتفت للهمهمة التي سرت بين الركاب، وشجّعَت أبي على إبداء رأيه:

- معنا كبار سن ومرضى وأطفال، كيف سيستطيعون مواصلة السير؟

التفت السائق، ونظر إليّ ثم إلى أبي:

- لك أكتاف بغل، احملهم.

لم أعرف من قصد بجملته، هل أنا أم والدي؟ صمتَ الجميع، طلبا للسلامة، ونزلنا متزاحمين من الحافلة، حمدت الله على وجود طريق مسفلت سيساعدني على دفع كرسي جدي المتحرك بسهولة.

أخذنا أغراضنا، وبدأنا بالتحرك، تساءلت بيْني وبين نفسي، لماذا تحول السائق إلى شبح؟ رجّحت أن يكون الأمر مجرد تخيلات بسبب تعب الطريق، فضلت ألا أصدق نفسي.

أصبحنا جزءا من الموجة البشرية الضخمة، التي تتدحرج على بحر طريق النزوح، دون أن نعرف نوع الشاطئ الذي سنصطدم به في النهاية، تمنيت ألا يكون صخريا، فيحطمنا.

سرنا لمسافات طويلة، كنا نتوقف لنستريح قليلا ثم نواصل السير، وصلنا لخط سكة حديد يمتد نحو الشرق، لكنه كان قد دُمِّر، إذن لا أمل في مرور قطارات من هنا لتقلنا، واصلنا طريقنا فوصلنا لمفترق طرق يؤدي إلى كل الاتجاهات، طريق الغرب هو الوحيد الذي كان سليما، ويمكننا مواصلة السير فيه، أما الطرق المتوجهة إلى الشرق والجنوب والشمال فكلها مدمَّرة، أسرتي حسمت أمرها، سنسير في الطريق المسفلت والسليم المتوجه إلى الغرب من أجل جدي، لنستطيع دفع الكرسي المتحرك بكل سهولة، رغم أننا لا ندري إلى أين يوصل، بعض النازحين اختاروا الطرق المدمرة، وساروا بجانبها عبر الحقول، لكنهم قبل أن يقطعوا مسافة قصيرة، ظهرت مروحية في الجو، حلقت فوق الطريق المتوجه نحو الغرب، وابتعدت بضع مئات من الأمتار وألقت طرود طعام، جرى الجميع إلى حيث سقطت الطرود التي تمزق بعضها وانفلتت منها معلبات وأكياس أرز، جرى أبي، فلم يستطع أن يحصل على شيء، استطاع البعض التقاط طرد أو أكثر، ابتعدت المروحية، وتوغلت فوق الطريق نفسه، وألقت بطرود طعام أخرى، جريت هذه المرة بكل قوتي، فوصلت الأول إلى حيث الطرود ملقاة بجانب ووسط الطريق، تمكنت من التقاط واحد، النازحون

الذين اختاروا السير عبر الطرق الأخرى، غيروا رأيهم، وعادوا ليسيروا عبر الطريق المتوجه إلى الغرب، لأنه على ما يبدو، هو الطريق الوحيد الذي سيحصل سالكوه على الطعام.

جلسنا بجانب الطريق لنستريح ونأكل القليل من الطعام، ثم واصلنا سيرنا، وفي الليل بتنا في العراء، فعانينا من البرد، رغم إشعالنا لنار صغيرة.

في الغد حلقت فوقنا عدة مروحيات، وألقت طرود الطعام وبعض الأغطية، فظفرت باثنين، غطيت جدي بواحد لأنه كان يعاني من البرد، وتفاقمت آلام ركبتيه، والثاني قدمته لجدتي، واصلنا تقدمنا لعدة أيام، كنا نبيت بجانب الطريق ونواصل السير في الصباح، كنا محظوظين، لأن الجو كان صحوا رغم البرد والريح، لكن ذلك لم يدم طويلا، تعكر الجو فجأة، وتلبدت السماء بالسحب الداكنة، وبدأت الأمطار تهطل بغزارة، حاولنا التحرك تحت المطر الذي كان يضربنا بلا رحمة فيعيق تقدمنا، وكأنه يعاقبنا على تركنا لبيوتنا ولأرضنا، كنا قد وصلنا إلى أرض يمر عبرها نهر كبير، فقررنا التخييم بجانبه، لحين توقف تساقط المطر الذي تواصل بالليل والنهار.

قالت جدتي المنهكة:

- لقد حل فصل الشتاء.

أحسست بالبرد يخترق عظامي، فجمعت أطراف سترتي على صدري، لأن سحابها انكسر لما كنت منذ يومين، أحاول رفعه بيدين متجمدتين من البرد، كانت عائلتي من ضمن عائلات كثيرة في الأرض الخلاء، بلا حماية من الأمطار والبرد ونقص الطعام، كان الوضع كارثيا، وزادت الأمطار التي لا تتوقف من تأزيمه.

نصبنا خيْمة من عيدان الشجر والبلاستيك الذي تساقطت علينا رزمه مع طرود الطعام، كانت غابة قريبة من المخيم، لكن يفصلنا عنها النهر الكبير الذي تعكرت مياهه، وارتفع منسوبها بسبب الأمطار، فأصبح من المستحيل عبوره للوصول إلى الضفة الأخرى من أجل قطع بعض الأشجار، لتوفير حطب التدفئة والطهي، وبناء المخيم، فاكتفينا بما جاد علينا به النهر من أشجار خلفتها فيضانات سابقة، كانت مرمية على ضفة الجانب الذي نتواجد فيه، تواصل وصول النازحين إلى مخيمنا، إلى أن أصبح كمدينة مهلهلة ومتهالكة، مصنوعة من الأسمال، أصبحنا نعيش على ما تلقي به المروحيات من طرود طعام، لم يكن ذلك كافيا، فكنا نسد الرمق فقط، ولا نستطيع التقدم بسبب الأمطار التي لا تتوقف، ونتدفأ بما نلتقطه من أغصان وقش من ضفة النهر أو من الأرض الخلاء حول المخيم، أبي صنع مدفأة من علب الطعام المصنوعة من القصدير، وضعناها وسط الخيمة التي كانت تسرب الرياح الباردة ومياه الأمطار، جدتي وجدي الذي ازدادت حالته سوءا خصصنا لهما مكانا جافا قرب المدفأة، أصبحنا متسخين، أخي على وجهه بقع بنية، وشعره مشعث، خصلات شعري الناعم والأسود أصبحت مدهنة ومتسخة وتلتصق ببعضها البعض، لكن المضحك في الأمر أن بثور وجهي اختفت، لم ألاحظ اختفاءها، اكتشفت ذلك صدفة، وأنا مقرفص بجانب المدفأة، أمرر كفي على وجهي، وأنا في حالة شرود، فانتبهت لعدم تعثر أصابعي بالبثور كما هي العادة، لكنني لم أهتم لذلك.

في البداية كنا نتسابق من أجل التقاط طرود الطعام التي تلقيها المروحيات، ومن يسبق يأخذ النصيب الأوفر، بعدما رأيت الأسر التي

تتكون من النساء والأطفال لا تستطيع الحصول على نصيبها، اقترحت أن نكوّن لجنة من الفتيان والشبان، تتكلف بتوزيع الطعام، حسب عدد أفراد كل أسرة، في الغد لما قامت الطائرات بإلقاء طرود الطعام، لم نتسابق إليها كما العادة، وإنما جمعناها في مكان واحد، لنوزعها بالعدل على كل سكان المخيم، وكنا قد قمنا بإحداث سجل سجلنا فيه كل أسرة بعدد أفرادها، وهذه المهمة قام بها أبي مع مجموعة من الرجال، قال لي وهو يراجع ما كتبه في السجل:

- مهنة المحاسب نفعت.

شاركت في توزيع الطعام، كل يوم يصطف صف طويل أغلبه من النساء والأطفال، ينتظرون دورهم لنسلمهم حصتهم، بعد مرور شهر على تواجدنا في المخيم وبينما كنت منهمكا في التوزيع مع بعض الشباب، طلبت من السيدة التي وصلها الدور أن تتقدم:

- تقدمي يا خالتي، خذي...

ثم انتقلت إلى الشخص الموالي، وطلبت منه التقدم، كانت فتاة، قبل أن أقدم لها حصتها، أعلمني قلبي الذي يرى بعينين سريتين، بأنني أمام شخص أعرفه، نظرت إلى وجهها، يا إلهي، من...؟ انتفض قلبي من المفاجأة التي لم أكن أتوقعها، هل هذه غيثة؟ تمعنت النظر في وجهها، لأتأكد مما أرى، كانت واقفة أمامي، كقصبة رفيعة تهزها ريح الضياع، وتكاد أن تكسرها، وهي تنظر إلى الفراغ، وجهها الذي كان يضج بالصحة ويشع منه النور، شاحب وحزين، وشعرها الذي كانت خصلاته تسافر مع الريح في كل اتجاه، ظهرت مقدمته من الشال الصوفي فبدا ملبّدا بالأوساخ، كانت

ترتدي قميص بيت طويل، يكاد لونه الأخضر الباهت يختفي خلف بقع الدهون، وفوقه معطف أسود، مهلهل ومجعد، ربما تنام به ليقيها البرد.

- غيثة، أنت هنا؟

قلتُها بصوت مبحوح، بدت وسط هذا الخراب المحيط بي، رغم حالتها المزرية، كوردة نابتة في شقّ صخرة.

لم تتفاجأ لما كلمتها، يبدو أنها عرفتني، لكنها لم تكلمني، أظنها تمنت في قرارة نفسها ألا أنتبه لوجودها، فتتسلم حصتها من الطعام وتنصرف بسلام، ربما خجلت من مظهرها، ومن أسمالها، ومن تحولها لشبه متسولة، فأحستْ بالعار لما وجدت نفسها أمامي وجها لوجه، لأنني ربما ذكرتها بأيام العزّ، وهي الآن في وضع مذل، لكن حالي ليس أفضل من حالها، جميعنا هنا سواء.

أجابتني بكلمة واحدة، ونظراتها مغروسة في الأرض:

- نعم.

- لم نلتق في الطريق، ظننت بأنكم نزحتم قبلنا.

قبْل أن تجيبني، قال الشاب الذي يساعدني في التوزيع:

- الذي بعدها.

وكأنه يستعجلني لإنهاء الحديث، لأنه لا يزال خلفها صف طويل، قبل أن تنصرف سألتها:

- ما رقم خيمتكم؟

- 675.

قالتها وهي تستدير وتغادر بسرعة.

لما وضع أبي والرجال الآخرون سجلا بأسماء سكان المخيم، من أجل توزيع الطعام القليل بالعدل، كتبوا رقما على كل خيمة، وسجلوه في الكشف، مع أسماء ساكني الخيمة، وزعت الطعام وأنا متوتر، وما إن انتهينا، حتى أسرعت إلى خيمتنا، أصبح جدي عاجزا عن الحركة نتيجة مرضه الشديد، وزاد ارتعاش جسده بسبب مرض الباركنسون، لأنه توقف عن تناول أدويته لعدم توفرها، لما رآه طبيب متطوع من النازحين، أعطاه حبة دواء واحدة لتخفيف الألم، وقال لأبي:

- بالإضافة إلى مرضه، يعاني من سوء التغذية والبرد، لننتظر رحمة الله.

كنت أطعم جدي بنفسي، كان يستطيع تناول القليل من العصيدة فقط، لأنه لم يعد يستطيع بلع الطعام الصلب، لكن منذ يومين امتنع عن تناول أي شيء، بعدما غطيته جيدا، وقبلت رأسه، وطلبت منه النوم إن استطاع، شدّ على يدي بيده المرتعشة، وهو يحدّق في وجهي بنظرة متفحصة، وعينين جاحظتين، ثم سالت دمعة تشربتها تجاعيده، قال لي شيئا لم أفهمه لثقل لسانه، لم نعد نفهم ما يقول، لما عجزت عن فهمه قربت أذني من فمه وسألته من جديد:

- ماذا قلت، يا جدي؟

اكتفى بالإشارة بإصبعه إلى السماء، أخذت يده، وقبلتها وداريت دموعي حتى لا يراها.

خرجت وجمعت بعض الحطب، ولما عدت وجدت جدي نائما، أشعلت نار المدفأة، فاقترب أخي ليتدفأ، وبدا كقط صغير متشرد ومشعث، جدتي كانت جالسة بجانب جدي وسُبحتها في يدها، وهي

مغمضة العينين، والتعب والوهن رسما خطوطا عميقة على وجهها، استفاق جدي، وبدا وكأنه تحسن قليلا، اقتربت منه وسألته:

- كيف حالك يا جدي؟

قالت أمي التي كانت تجلس قرب المدفأة:

- أظن بأن حبة الدواء خففت عنه قليلا.

أسعدني ذلك، فأخذت يده وقبلتها، طلب بإشارة من يده أن أساعده على الجلوس، جلست بجانبه وأسندت رأسه على كتفي وأحطته بذراعي، سرى جو منعش في خيمتنا، فبدأنا نستعيد ذكرياتنا التي حملناها معنا إلى هذا القفر، فظلت في قلوبنا طازجة وريانة ولم تذبل أو تموت، أعدّت أمي الشاي فشاركنا جدي جلسة الشاي الدافئة.

خرجت بعد العصر، لأبحث عن خيمة غيثة، بعدما عاد جدي للنوم، وقد ظهر عليه بعض التحسن، كانت الأمطار قد تساقطت طيلة الليلة الماضية، واليوم انقشعت السحب عن السماء وأشرقت الشمس، لكن الريح الباردة التي كانت تهب عبر الغابة المقابلة للمخيم، تسربت مباشرة إلى عظامي، لأن سترتي الوحيدة سحابها منكسر، البرد هو أقل همومنا هنا، عندنا مليون مشكلة في المخيم بدون حل، ويبدو بأن فصل الشتاء سيكون قاسيا هذه السنة، وذلك سيزيد من تعقيد أمورنا، تتبعت الأرقام إلى أن وصلت إلى خيمة غيثة التي كانت في الطرف الجنوبي من المخيم، بعيدة عن خيمتنا الموجودة في الوسط، لأننا كنا ضمن الفوج الأول الذي وصل إلى هنا ووضع النواة الأولى للمخيم.

لا حاجة هنا لطرْق الباب، لأنها غير موجودة أصلا، فقط قطعة من البلاستيك كستارة، مربوطة من الأسفل إلى وتدين، لمحاولة منع الريح من التسرب إلى الداخل، ناديت بصوت خافت:

- غيثة، غيثة....

انفتح جانب الستارة، وأطلت غيثة بنفس مظهرها الذي شاهدتها به أثناء توزيع الطعام، قالت وفي عينيها خجل وحزن:

- تفضل.

بدت خيمتهم أسوأ من خيمتنا، في وسطها ثلاثة أحجار تحيط بحفرة صغيرة، نارها خامدة، يبدو أنه الموقد والمدفأة، دعتني للجلوس على لحاف صغير متسخ وحوافه متآكلة.

- هل أنت وحدك في الخيمة؟

جلست قبالتي، وهي تحاول إخفاء ما ظهر من شعرها تحت الشال الصوفي الأحمر:

- نعم، أمي وأختي عند جارتنا، لأن ابنها الصغير مريض، وأمي تحاول المساعدة، وإن كانت المساعدة لا تجدي نفعا لعدم توفر الأدوية.

- وأين عمي فؤاد؟

كان سؤالي كالقشة التي قصمت ظهر البعير، نزلت دموعها كالفيضان فغطت وجهها، وبدأت تنشج بحرقة، اقتربت منها، ووضعت يدي على كتفها وأنا حائر، ماذا أفعل لأخفف عنها؟ ولا أعرف ماذا حدث لعمي فؤاد.

دخلت أمها وأختها فجأة، فاندهشتا لوجودي.

قالت غيثة من وراء دموعها:

- آدم في المخيم.

عانقتني أم غيثة:

- ابني آدم، حبيبي الغالي، أنت هنا، هل أسرتك كلها معك؟ وهل الجميع بخير؟

- نعم.

- الحمد لله.

ودعتهم، وقبل انصرافي أعطيت لأم غيثة رقم خيمتنا، لأنها أرادت زيارة أمي.

- سأزوركم من جديد.

قلتها وانصرفت وأنا مثقل القلب، الله أعلم بما حصل لعمي فؤاد، في الغالب سيكون قد استشهد، بكاء غيثة بتلك الحرقة لمّا سألتها عنه، يؤكد ذلك، واصلت سيري بصعوبة في طرقات المخيم الموحلة، وحذائي الرياضي بدأ يسرّب الماء بعدما تمزّق، نظرا لطول المسافة التي قطعتها وأنا أنتعله.

اقتربت من خيمتنا، فرأيت مجموعة من الرجال واقفين أمامها، ولمحت بينهم أبي، وسمعت نواحا، جريت ودخلت إلى الخيمة، كانت جدتي وأمي تنوحان، ومعهما بعض النسوة، وجدي في مكانه قرب المدفأة مسجى، ورجل يقرأ القرآن وهو جالس عند رأسه.

لم أستوعب ما حدث، ظللت واقفا في مكاني كتمثال، وكفاي فوق رأسي، اقتربت مني جدتي وعانقتني:

- جدك مات يا حبيب جدك!

انفلتت دموعي من عقالها، فبكيت دون توقف، انحنيت على جثمان جدي، ورفعت الغطاء عن وجهه، وقبلت جبينه البارد، كان شاحبا،

ولحيته بيضاء كالثلج، وحواجبه لا زالت كثيفة كما عهدتها ومشذبة، لأنني حرصت على قص الشعرات التي تطول، بعدما عجز عن فعل ذلك بعد مرضه، السماء أيضا شاركتنا البكاء على جدي، فأمطرت وابلا من المطر، جعلنا نؤجل موعد الدفن إلى الغد.

ظللنا طيلة الليل قربه، نمت قليلا، ربما في آخر الليل، ثم استفقت فرأيت شمعة تذوي قرب جثمانه المسجى، وأبي جالس عند رأسه يقرأ في المصحف، وخيوط الصباح الأولى بدأت تتسلل كيَد حانية تريد أن تمسح على رأسي لمواساتي، لكنها فشلت في تحقيق ذلك، أحسست بإحساس رهيب وأنا أفكر، هل فعلا جدي مات؟ ولن أراه أبدا، ولن أقبل يده النحيلة، ولن أقول له يا جدي الحبيب، ولن أسمع حكاياته وحِكَمه، ولن أعتني به، ولن أبكي على صدره النحيل، ولن أقص حواجبه وأقلم أظافره، أحسست باليتم وبالضياع وبالكرب وبقلة الحيلة وبالعجز وبالغضب يكبر في صدري كنار عظيمة، وبحاجتي لإطلاق صرخة، تهز المخيم والوادي والغابة، وترتفع إلى عنان السماء، وتهز أطباق الأغراب الطائرة فوق السحاب وتفجرها.

في صباح الغد، توجهنا أنا وبعض الشباب، إلى ظاهر المخيم، قرب النهر، رأيت قبورا طرية، لأطفال وكبار، على ربوة تواجهها الغابة التي تبدأ قرب الضفة الأخرى للنهر:

- كلّ هده القبور، لأطفال وكبار سن، لم يتحملوا المعاناة التي نعيشها في المخيم فتوفاهم الله.

قالها أحد الشبان، وهو يشمر عن ساعديه، بدأنا الحفر في الأرض الموحلة، تقدمنا ببطء، التحق بنا شباب آخرون، كانت الريح تهب، والسماء صافية:

- جدك مبارك، منحه الله يوما مشمسا ليتم دفنه دون معيقات.

حمدت الله على ذلك، بعد لحظات، رأيت أبي ومعه مجموعة من الرجال يصعدون الربوة وهم يحملون جدي على محمل مصنوع من عيدان الأشجار، ربما تم صنعه في المخيم لحمل من سبقوا جدي إلى هنا، وجثمانه مغطى بالغطاء الصوفي ذو المربعات السوداء والرمادية.

وضعوه بجانب القبر، وصلينا عليه صلاة الجنازة، فرشت قبره ببعض نبات الأسل الذي اقتلعته من ضفة النهر، ووضعنا جدي في مكانه الذي سينام فيه نومته الأبدية، نزلت إلى القبر لأسوي رقدته الأخيرة، تركت قلبي معه وخرجت، انصرف الجميع، وظللنا أنا ووالدي لندعو له، ولما انتهينا، نظرت إلى السماء العطوفة وإلى النهر الهادر وإلى الغابة الغامضة، وتركت في عهدتهما جدي وانصرفت.

- جدك كان محبا للطبيعة، إنه المكان الذي كان سيُفضّل أن يُدفن فيه.

قالها أبي، وبدا عليه أنه يواسي كلينا، في طريق عودتنا إلى المخيم تكدست السماء بالغيوم، وعصفت الريح، وبدأت أمطار غزيرة تضرب وجوهنا، وكأنّ السماء منحتنا فسحة لدفن جدي فقط.

استيقظت من النوم في الغد مبكرا، فهاجمني الإحساس بالفجيعة دفعة واحدة، كإعصار اقتلع قلبي من مكانه، ظللت في مكاني، غير قادر على النهوض، وكأنني صخرة من الحزن، أُعفيت من توزيع الطعام في ذلك

اليوم، لأنني نمت ليلة البارحة متأخرا، بسبب الزيارات الكثيرة لسكان المخيم، انتشر الخبر بسرعة، فأقبل الكثير من الرجال والنساء، لتقديم العزاء والدعم لأسرتنا، حملت بعض الجارات القليل من الأرز المطبوخ، وأعدن توزيعه على المعزين صدقة على روح جدي الطاهرة، هطل المطر من جديد، وانصرف المعزون إلى خيامهم عبر ممرات المخيم الموحلة.

كانت جدتي جالسة في مكانها المعتاد، والسبحة في يدها تتساقط حباتها دون توقف، ووجهها جامد لا يكشف عن حزنها على فراق جدي، وأمي جالسة قربها وأخي في حجرها، وأبي غير موجود، ومكان جدي فارغ، فقط معطفه كان مطويا بعناية وموضوعا فوق الحقيبة.

ضبطتني أمي، أنظر إليهم، دون أن أقول صباح الخير، فقالت لي:

- صباح الخير يا حبيبي، قم واقترب من المدفأة، وتناول فطورك.

لم يكن هناك فطور حقيقي، فقط صحن أرز صغير، وكوب شاي، نظرت إلى جدتي، التي رفعت يديها إلى السماء بدعاء صامت، لا بد أنه لروح جدي، ثم التفتت إلي:

- صباح الخير يا حبيبي، تناول فطورك ورافقنا لنزور قبر جدك، أبوك سبقنا إلى هناك.

لما وصلنا إلى المقبرة وجدنا أبي واقفا بجانب القبر، تفحصني متفاجئا، لما رآني مرتديا معطف جدي، قطعت بعض الأعشاب الطرية ووضعتها فوق قبره.

قبّلت جدتي الشاهدة وهي تقول بصوت حزين:

- يا ليتني أموت هنا لأدفن إلى جانبك، فلا تبقى غريبا ووحيدا.

- أطال الله عمرك يا جدتي، ماذا سنفعل بدونك؟

قبلت رأسها، وساعدتها على الوقوف بعدما كانت مقرفصة بجانب شاهدة القبر، لأن الأرض موحلة.

عدنا إلى خيمتنا، فكان هناك من دخل في غيابنا وسرق مدفأتنا، فاضطررنا لإحداث حفرة صغيرة في أرض الخيمة لإشعال النار، فعانينا من الدخان، لكن المعاناة من البرد الشديد كانت أقسى، واستغرق صنع مدفأة أخرى يومين كاملين.

- كان الله في عوننا، أظن بأننا علقنا في هذا المخيم، وسنبقى فيه إلى الأبد، وأظن بأن المروحيات تركتنا لمصيرنا، ألم تلاحظوا بأنها توقفت عن إسقاط طرود الطعام منذ يومين؟

تساءلت أمي وهي تضع القليل من الأرز في صحن صغير، ثم قدمته لجدتي التي امتنعت عن لمسه.

انقطع المطر فجأة وأشرقت الشمس، وانتشر الدفء في المخيم، توجهت إلى خيمة غيثة، حزني على جدي الذي توفي منذ أسبوعين منعني من زيارتها، قدمت لي العزاء في وفاته، واعتذرت لعدم مرافقتها لأمها لحضور مراسم العزاء، لأنها بقيت في الخيمة لحراستها حتى لا يسرق أحد أغراضهم.

- كنت أنتظر قدومك كما وعدتني، ولما سمعت الخبر الحزين، قلت، ستأتي لما يشفى جرح الفراق.

- لن يشفى.

- أعرف.

نظرت إلى عينيها، فبدت فيهما غيمة حزن ثقيلة.

- أنا ذاهب لزيارة قبر جدي، هلا رافقتِني؟

- طبعا سأرافقك، وفي الطريق سأقطع بعض نبات الخبيز لنطبخه، لأنه لم يعد لدينا طعام.

- أمي كانت توفر بعض الأرز، لأنها كانت تتوقع توقف إلقاء المروحيات للطرود الغذائية.

خرجنا من المخيم، وفي الطريق قطعت غيثة نبات الخبيز ووضعته في كيس، ثم صعدنا الربوة التي أصبحت مقبرة المخيم، قرفصنا بجانب قبر جدي وقرأنا الفاتحة، بعد ذلك ابتعدنا قليلا عن المقبرة، وجلسنا بجانب صخرة، قبالة النهر، والغابة تمتد أمامنا في الجهة المقابلة، قلت لها:

- لو لم يكن هذا النهر الكبير الذي نعجز عن عبوره بسبب ارتفاع منسوب مائه لما عانينا من قلة الطعام، ولاصطدنا، لا بد من وجود حيوانات في الغابة، أظنك أيضا تسمعين أصوات الذئاب، وأينما توجد الذئاب توجد الطرائد.

- آه، أختي ترعبها أصوات الذئاب فتنام في حضن أمي رغم أن عمرها ثلاثة عشر عاما.

التفتّ إليها وحدقت في عينيها، فوجدت فيهما بعض الألق، فلم أرد أن أكدر صفوهما، بسؤالها عن والدها، فتراجعت عن ذلك، لكنها هي من بادرتني بقولها:

- لم تسألني عن والدي؟

- أردت سؤالك، لكن خفت أن أثير مواجعك.

- بعدما انتقلنا من بيتنا، مكثنا في بيت خالي الذي يعيش في الخارج، كانت مفاتيحه معنا، اختار والدي أن نبقى هناك لأنه قريب من أطراف

المدينة ويسهّل علينا المغادرة، كان مصرا على بقائه في المدينة بعد تأمين خروجنا منها أنا وأمي وأختي، بعد بضعة أيام خرج لشراء بعض الأغراض، فلم يعد، انتظرناه لعدة أيام، ولم يظهر له أثر، أمي ترجح بأن الأغراب قتلوه، لكن عندي أمل بأنه لا يزال حيا، بعد توصلنا بالمنشور الذي يأمرنا بالمغادرة، حزمت أمي أمرها وغادرنا خوفا من أن يقتلنا الأغراب إن بقينا هناك.

لا منديل في جيبي لأقدمه لها لتمسح به دموعها التي بدأت تنهمر من عينيها كحبات الماس، ربتّ على كتفها مواسيا، وفي تلك اللحظة حلق فوقنا سرب من البط الأبيض المهاجر إلى الجنوب.

فكرت في القيام بشيء يدخل بعض البهجة إلى قلبها:

- ابقيْ مكانك وانظري إلى النهر.

ضفرت في دقيقة، تاجا من نبات الأسل والزهور، كما علمني جدي لما كنت صغيرا، كان يضفر تاجا من الزهور ويضعه على رأسي وهو سعيد: "تعلّم كيف تقوم بهذا، لأنك ستلتقي في المستقبل بفتاة جميلة وستحتاج أن تصنع لها واحدا مثله"، اقتربت من غيثة، وجثوت على ركبة واحدة أمامها، فنظرت إليّ مندهشة، فقلت لها:

- هل تسمحين لي أن أتوجك ملكة على النهر والغابة وعلى مخيمنا الذي بلا ملك؟ ثم وضعت التاج على رأسها، تحسسته وهي تضحك، فصارت غمازتاها متفتحتين كوردة:

- طبعا، أقبل أن أكون ملكة على الذئاب والأرانب في الغابة، وعلى قومي المشردين في أرض الله.

انحنيت أمامها بطريقة مبالغ فيها، وقلت لها:

- سأكون أول رعاياك الذين يعلنون عن مبايعتك يا مولاتي.

انحنت لي انحناءة خفيفة كما تفعل الملكات، وأشارت بيديها علامة على الاستحسان، ثم ضحكت.

قلت لها محتجا:

- الملكات المتوجات لا يضحكن، وإنما يبتسمن ابتسامة غامضة وساحرة.

- لهن الحق في الضحك أمام مستشارهن الأول.

تمشينا بعد ذلك قرب النهر، وأنا أحمل عنها كيس نبات الخبيز، والشمس تغذي أجسادنا بالدفء اللذيذ، فنسينا بأننا في مخيم ملقى وسط المجهول، ومستقبلنا غامض وربما ينتظرنا الكثير من الخطر.

لما عدنا إلى المخيم، وجدت أمي تجمع أغراضنا، وحركة غير عادية في المخيم، أسر بدأت تفكك خيمها المتهالكة، وأخرى تغادر.

سألت أمي:

- هل سنغادر؟

أجاب أبي الذي كان يصلح الكرسي المتحرك الذي ستستعمله جدتي، لأنها لن تستطيع السير لمسافة طويلة.

- نعم لا طعام هنا، سنموت من الجوع إن بقينا وسط هذا المخيم الموحل.

قالت جدتي:

- علينا أن نلجأ إلى بلاد الجيران.

أجبتها:

- أي جيران تقصدين يا جدتي؟ طريق الغرب لا توصل إلى بلد الجيران.

- إلى أين توصل؟

- إلى الصحراء، ذلك ما يظهر على الخريطة.

فُكّك المخيم بسرعة وبدأت الجموع تتحرك في اتجاه واحد، وفي خط طويل، بدا وكأن يدا خفية توجهنا، هل توقفت الطائرات عن إسقاط طرود الغذاء لنتحرك؟ ربما، لأن الطعام غير متوفر في هذا الخلاء، باستثناء نبات الخبيز.

الفصل السادس

استأنفنا رحلة النزوح دون أن نعرف أين محطتنا التالية، سرنا لمدة يومين، وفي اليوم الثالث، وصلنا إلى حدود الصحراء، كانت الرمال ممتدة، والكثبان متموجة، كأمواج بحر ثابتة، "يا الله، ما هذا؟"

سرتْ همهمة بين الجموع البشرية، وقال أبي وهو يُنزلُ أخي من على كتفيه، حيث كان يحمله لمسافة طويلة، وهو يلهث من التعب، ويحدق بدهشة فيما يراه أمامه، ونراه جميعا:

- لا مكان نلتجئ إليه، ولا ملاذ لنا سوى هذه المركبة، لا أحد يستطيع دخول هذه الصحراء.

عقبت على كلامه وأنا أنظر في كل الاتجاهات:

- السير في الصحراء يعني الهلاك.

كانت أمامنا مباشرة مركبة فضائية رابضة على الرمال، لونها رصاصي، وهي على شكل بيضة عملاقة مع حواف مدببة، وعلى بابها المستدير الضخم، والمستعد لابتلاعنا كفم حوت عملاق، صف من الحراس، يشبهون المخلوق الفضائي الذي ألقى علينا البيان، وجوههم مخفية تحت أقنعة زجاجية معتمة، ولا تبدي ما خلفها، كانوا منهمكين في تنظيم صعود من سبقونا من النازحين إلى المركبة.

ضغطت على يد أمي المرتجفة:

- لا تخافي يا أمي سنبدأ حياة جديدة، وسيكون كل شيء بخير.

- لكن إلى أين سيأخذنا هذا المخلوق الحديدي العملاق؟

إن المركبة جزء من المجهول، لكن حسب تخميني، قد تأخذنا إلى كوكب آخر، لم أرد أن أفزع أمي، لأنني غير متيقن، لأن المهم الآن هو أن ننجو، وليس إلى أين سنذهب.

انتهى نصف يوم، وصعود النازحين لا يزال في بدايته، وصل دورنا، دفعت كرسي جدتي المتحرك وتقدمت، وأبي وأمي وأخي خلفي، أوقفني أحد المنظمين بسلاح آلي، يزيده انعكاس أشعة الشمس لمعانا، وقال لي آمرا:

- العجائز ممنوعون من الصعود.

غاص قلبي بين ضلوعي، ودارت بي الأرض لهذا الإعلان القاسي.

تقدم أبي وجسده يرتجف، وقال وهو متشبث بكتفيْ جدتي كطفل صغير، سيأخذون أمه بعيدا عنه:

- يستحيل أن أترك أمي هنا في الصحراء، لا يمكنني...

جثوت على ركبتيّ أمام الحارس الذي أصدر الأمر، وقلت له من بين دموعي:

- الرحمة يا سيدي، اسمحوا لجدتي بمرافقتنا، إنها لا تزال بصحة جيدة، فقط مشقة السفر هي التي تبديها عجوزا.

- قف على قدميك، واترك المرأة المسنة، وادخل إلى المركبة.

توسلنا لهم أنا وأمي وأبي، آملين أن ينبثق ماء الرحمة من الصخر الأصم، لكن لم يحدث ذلك، ولم يتراجع الحراس عن قرارهم، وكل ما فعلوه لما ضاقوا درعا بتوسلاتنا، وأرادوا خاتمة سريعة للمسألة، أن الحارس الذي كان يكلّمنا أشار لحارسين آخرين، فانضموا إليه، وصوبوا سلاحهم لصدري ولصدر أبي، وقال أحدهم:

- إن لم تصعدوا إلى المركبة، وتتركوا العجوز هنا، سنقوم بإعدامكما.

صرخت جدتي في وجوهنا بصوت هستيري:

- اصعدوا إلى هذا الشيء الملعون، واتركوني هنا، تريدون الموت من أجلي؟

التفتتْ إلى الحراس، وتوسلتْ إليهم:

- اقتلوني لتقنعوهم بالصعود، أرجوكم، عجلوا بذلك.

لم يلتفتوا إليها، لكن أبي تصرف، فصرخ فينا، وهو يدفع الكرسي بجدتي:

- هيا، لنعد أدراجنا، أفضل العيش بجانب ذلك النهر إلى الأبد، على ترك أمي في الصحراء.

قبل أن ننفذ أوامره، وقف أمامنا أربعة حراس، وصوبوا أسلحتهم لرؤوسنا وخاطبنا أحدهم:

- هل تظنون بأن الأمر لعبة، من وصل إلى باب المركبة فلا بد من صعوده إليها، هل كنا نطعمكم في ذلك المخيم لمدة شهرين مجانا؟ لقد سبق وقال لكم ناطقنا الرسمي بأننا نحن من نتحكم بحياتكم، لقد تركناكم بالمخيم إلى أن أصبحت الظروف مواتية، ودفعناكم للقدوم إلى المركبة، والآن نفذوا الأوامر وإلا ستموتون في الحال.

- على الأقل امنحونا بعض الوقت من أجل توديعها.

قالتها أمي وهي تبكي، هز أحد الحراس رأسه علامة على الموافقة، فابتعدنا عن الصف وجثونا أمام جدتي، ودموعنا تسقي رمال الصحراء.

مسحت جدتي على رؤوسنا وقبلتنا واحدا واحدا، وقالت لنا دون أن تسمح لنا برؤية دمعة واحدة تنزل من عينيها المتعبتين:

- لا تحزنوا، ذلك ما كنت أتمناه، أن أموت في وطني، وليس في بلاد أخرى، وأدفن تحت سماء واحدة مع جدكم.

بكيت وقلت لها:

- سأموت من الحزن يا جدتي، ولن أسامح نفسي أبدا على تركك هنا.

أجابتني وهي تمرر كفها على وجهي، لتمنحني بركتها، كما كانت تفعل دائما:

- سيبقى هذا الوجه منيرا ومباركا دائما، وسيرسل من العينين اللتين تزينانه كجوهرتين، صواعق الانتقام، انتقام لي ولجدك ولأرضك، فكن شجاعا، وحافظ على ما ربيناك عليه من خير واجتهد، وستهزمهم بجاه الرحمن الرحيم بأخلاقك وباجتهادك، وبأخذك العلم الصافي من أي منبع تصادفه.

قبلت أمي يديها، وبللتهما بدموعها، وقالت لها معتذرة:

- سامحينا يا خالتي.

جلس أبي كطفل عاجز، وأخذ يديها وقبلهما، ثم دفن وجهه في حجرها، وبكى بكاء مريرا، كان مسنون آخرون، نساء ورجالا، جالسين على الرمال وحيدين ومهملين، بعدما صعد أقرباؤهم إلى المركبة، يبدو أن جدتي لم تستطع الصمود وتصنّع الشجاعة والصلابة طويلا، ففاضت دموعها، وانهمرت كجدول ماء، تقدم حارسان واقتلعا أبي من الأرض، ودفعه أحدهما بقسوة ليلتحق بالصف.

اجتزنا عتبة المركبة بعدما تركنا قلوبنا مع جدتي لترعاها، توغلنا داخلها، فكانت كتلك التي نراها في الأفلام، لكن هذه كانت أضخم بمئات المرات، مع وجود مقاعد وممرات، كتلك التي توجد في طائرات الركاب، جلسنا في أماكننا، أحدنا بجانب الآخر، بعد لحظات أحسست بخدر يسري في جسمي، وبرغبة في النوم.

كان تيار النهر القوي الذي نُصب قربه مخيم النازحين، يجرف جدي بعيدا، رأسه يظهر ويختفي، وأنا أركض حافي القدمين على طول حافة النهر الموحلة وأصرخ، "جدي، جدي"، محاولا ألاّ أضيعه من مجال بصري، سمعت صوته يرن في قلبي، لا يستغيث، ولكن يطلب مني أن أنقذ جدتي التي رأيتها خلفه والتيار يجرفها وهي تصرخ مستنجدة بي:

- آدم حبيبي، أنقذني.

استفقت من النوم على يد أمي وهي تهزني:

- آدم حبيبي، استيقظ.

وجدت نفسي مبللا بالعرق، وقلبي يخفق بسرعة، نظرت حولي فتذكرت بأننا في المركبة، وجدي مات ودفناه قرب النهر، وجدتي يعلم الله والأغراب بحالها، تمنيت من أعماق قلبي لو كان وجودي في هذه المركبة مجرد كابوس أستفيق منه وأجدني لا زلت أملك حياتي الطبيعية في بيتنا، مسحت أمي عرق جبيني براحة يدها:

- لقد صرخت وأنت نائم يا عزيزي.

لم أخبرها عن الكابوس، وتلفتّ حولي محاولا استكشاف المكان ببصري، تم تجهيز المركبة بالمقاعد والحواجز الزجاجية، وسقوفها رُكّبت بها لمبات اللّيد المستطيلة، المتراصة في خطين، على طول كل ممر، كطرق

منيرة، إضاءتها قوية، اضطرت معها أمي إلى وضع نظارتها الشمسية، لأن لها حساسية للضوء الساطع، جلَسَتْ بيني وبين ريان، وأبي جلس بجانبي، عيناه حمراوان من أثر بكاء صامت ومتواصل، لم يملك السيطرة عليه حزنا على جدتي التي تركناها وراءنا لمصيرها المجهول، ولا ندري ماذا سيصيبها، هل ستنجو؟ احتمال كبير أن تكون قد أُعدمت هي وباقي المسنين، ربما جدي كان حظه أوفر، لما مات بيننا، ودفناه في بقعة جميلة تطل على النهر الخالد، جدتي إن لم يعدمها الأغراب، قد تموت في الصحراء، وتنهش لحمها الذئاب والثعالب والزواحف والنسور.

بدا الوجوم والاستسلام والقلق والحزن الممزوج بالخوف على وجوه الركاب الشاحبة، وهم تحت رحمة حراس قساة، يبدو أن قلوبهم قدت من صخر، أو ربما هم مجرد رجال آليين ولا قلوب لهم أصلا، لم أر وجه أي أحد منهم، حتى أيديهم مغطاة بالقفازات.

لمحت غيثة فجأة، في الصف الذي أمامنا مباشرة، يفصلنا عنها فقط فاصل زجاجي، ضبطتها تنظر إليّ بعينين منكسرتين، كانت مع أمها وأختها الصغيرة، بادلتها النظرات، لم أرها منذ تتويجي لها ملكة على مخيم النازحين، غادرنا يومها ولم نلتق، ولم أرها إلا الآن، رفعتُ يدي بالتحية بحذر، لا زلت لا أعرف القانون الذي يحكمنا هنا، ربما تبادل التحية ممنوع، رفعت يدها أيضا بحركة خفيفة، تشبه رفرفة جناح فراشة على وشك الطيران، ووشوشت لأمها التي التفتت ناحيتنا بوجه خالٍ من التعبير، ثم عادت لتنظر أمامها.

غرسْت بصري في الأرضية المعدنية للمركبة، ووضعت يدي على صدغي، وتنهدت، فمدت أمي يدها وربتت على كتفي دون أن تقول شيئا.

أعادني ارتجاج المركبة إلى الواقع، لولا أحزمة الأمان التي كانت تثبتنا إلى الكراسي لتحطمت وجوهنا وأسناننا على الأرضية المعدنية، كان ارتجاجا قويا استمر لعدة دقائق، لا بد أن المركبة انطلقت وترتفع في السماء، إن انطلاقتها تشبه انطلاقة صاروخ، بعد لحظات عادت لهدوئها، وبدأت الرحلة، مرت عدة ساعات ولم يقدموا لنا أي طعام، أحسست بالملل وبالتعب، وقرصَ الجوع معدتي، لأنني نسيت متى تناولت الطعام آخر مرة، الوقت يمر بطيئا والرحلة الطويلة مستمرة، نظرت إلى وجه أخي الصغير النائم في دعة واطمئنان، غير واع بما نمر به، فغبطته على ذلك، وقلقت في نفس الوقت على المصير الذي ينتظره وينتظرنا جميعا، رددت بيني وبين نفسي: "حسنا"

لكن كلمة "حسنا" التي أردت أن أمد نفسي من خلالها ببعض الطمأنينة لم تثمر شيئا، فتوالت الأسئلة على تفكيري كمطرقة الحداد، تنزل على رأسي في ضربات متتالية، هل كنا على صواب لما نزحنا من مدينتنا؟ وهل نجونا لما ركبنا هذه المركبة؟ وهل الأغراب الذين هجّرونا من ديارنا وسيأخذون ماسنا، سنأمن لهم، وننتظر منهم إنقاذنا، وإيصالنا إلى وجهة آمنة؟ ما غرضهم من كل هذه المأساة المحبوكة بإتقان عجز عن تأليف مثلها شكسبير؟ ولماذا اختارونا؟ برقَت فجأة في ذهني كلمة المختارون التي أطلقوها علينا في أول بيان وجهوه إلينا، والتي جعلها الشبح والمخلوق الفضائي لقبا لي، هل عنت أنهم سيسوقوننا إلى مركبتهم بطريقتهم الخاصة؟ بعدما نزحنا عن مدينتنا تنفيذا لأوامرهم، وهربا من التعذيب الذي سلطوه علينا، هل طبخوا كل شيء في مطابخ ذكائهم الخارق؟ وانطلت علينا خدعهم، فاستطاعوا تنفيذ خططهم، ونحن بدل

صمودنا في مدينتنا، انسقنا لهم كقطيع غبي من الأغنام، وقد أكد الحارس الذي كان ينظم صعودنا إلى المركبة ذلك، لما قال بأنهم لم يقوموا بإطعامنا مجانا في المخيم، الراعي أيضا يطعم قطيعه، ويقوم ببيعه للجزار بعد ذلك.

كنت مستغرقا في أفكاري لما اقترب مني حارس، وانحنى عليّ، وقرب قناعه من أذني، وقال لي بصوت منخفض كالفحيح:

- إننا نعرف فيما تفكر يا آدم، لأن المركبة مجهزة بما يمكّننا من قراءة ما يفكر فيه كل فرد هنا من شعبك، وفر ذكاءك لما هو أهم، لأنك المختار لأمر عظيم، لو لم تكن لنا أوامر بأن نحافظ عليك، لقمت بسبب ما فكرت فيه الآن بقطع رأسك، وتعليقه في سقف المركبة فوق مكان جلوس والديك ليقطر دمك على وجهيهما.

ضغط على كتفي وهو ينهي تحذيره، ووقف واستدار بطريقة تشبه استدارة رجل آلي، وتابع طريقه في الممر الطويل، ارتعدت لتهديده الذي قد ينفذه متى أراد:

- ماذا قال لك؟

- لا شيء، فقط طلب مني ألا أقلق.

أجبت أبي، وأنا أحاول أن أبدو طبيعيا.

حدقت أمي في وجهي بقلق:

- لكن وجهك ممتقع.

أجابها أبي غاضبا:

- وهل يوجد في هذه المركبة وجه يفور بالصحة؟ كل الركاب وجوههم شاحبة وممتقعة.

تنفست أمي الصعداء، وأرجعت رأسها للخلف، لتريحه على مسند المقعد.

صوّب الحارس بصره ناحيتي، وهز رأسه، وكأنه يقول لي:

- أنا راض عن جوابك.

فجأة بدأت المركبة ترتج، فأصبحت كسفينة في مهب العواصف والأمواج العاتية، الحراس جلسوا على مقاعدهم وربطوا الأحزمة، قرأت الفاتحة وكررت الشهادتين، توقعت سقوطها أو انفجارها الوشيك، سمعت الكثير من الركاب يكبّرون ويتشهدون، الغريب أنها بعد لحظات هدأت وكأن شيئا لم يحدث، هدأت نفسي أيضا، بعدما كانت أنفاسي متلاحقة بسبب الخوف، نظرت حولي، الجميع لم يكن حالهم أفضل من حالي، توجهت نظراتي ناحية غيثة لأطمئن عليها، فكانت مشغولة بخوفها، فلم تنتبه لي، كانت متشبثة بذراع أمها وهي تنظر إلى الأعلى وكأنها تخشى أن ينقلع سقف المركبة ويشفطها الفراغ، فك الحراس أربطة أحزمتهم، وقاموا ليواصلوا حراستنا، لكن لم أعرف لماذا يحرسون قطيعا من البشر، مربوطا بالأحزمة داخل مركبة تسافر في الفضاء؟.

انفتحت فجأة، فتحة فوق كل راكب في سقف المركبة، عبارة عن مربع صغير، فتدلت منها علبة بيضاء، أخذت علبتي، وفتحتها فوجدت قنينة ماء صغيرة وبسكويت وقطعة جبن، إنها أول وجبة نحظى بها، رغم وجودنا في المركبة منذ العديد من الساعات، كان الكثير من الأطفال يبكون بعدما قرصهم الجوع.

رافق تقديم الطعام، شبه فرح ارتسم على الوجوه، انقضّ الركاب على ما قُدّم لهم، وإن كان قليلا، وتم التهامه في ثوان تحت أعين الحراس

المختبئة خلف الأقنعة الزجاجية المعتمة. ارتفعت العلبة بعدما أفرغنا محتواها، واختفت داخل المربع الذي انفتح فوق رؤوسنا، وأغلق من جديد.

أبي الوحيد الذي لم يلمس طعامه، رجوناه أنا وأمي أن يتناول القليل، لكنّه رفض.

كان ريان سعيدا لما وجد نفسه بيننا في وضع مريح، بعدما عانى من طول الطريق، وضنك العيش في مخيم النازحين، أتى على طعامه، وبدأ ينظر حوله بدهشة ويتأمل الوجوه، وهو جالس في كرسيه، ثم مدّ ذراعيه ناحية أمي لتحمله، فقالت له، وهي تحذره:

- اجلس مكانك، إن لم تفعل سيعاقبك الحارس.

سمع الحارس ما قالته أمي، فاستدار ونظر إلى ريان من وراء قناعه، فانكمش على نفسه، وأغمض عينيه وضغط عليهما ورموشه تهتز كإثبات للحارس بأنه طفل مطيع، يسمع الكلام، وينفذ الأوامر.

سمعت رجلا كان يجلس قربنا، يقول لزوجته، بأنهم يرتدون هذا الزي، حماية لأنفسهم من الأمراض التي قد ننقلها لهم، ربما كلامه صحيح، لأننا بعد صعودنا إلى المركبة، مررنا واحدا واحدا بمعزل صغير، وتم رشنا بمعقم بطريقة أوتوماتيكية، وخرجنا من الجهة الأخرى، وقد أبيدت كل الجراثيم الأرضية التي كنا نحملها.

بعدما تناولنا الطعام الذي قدموه لنا، رأيت رؤوس بعض الركاب تسقط على أكتافهم، أو يسندونها إلى مساند المقاعد، ويستغرقون في النوم، لكن ذلك الوضع لم يطل، لأن الجميع أجفل بعدما تسرب صوت نسائي قوي من السقف فوق رؤوسنا مباشرة:

- مرحبا بكم في مركبتنا، إنكم المختارون، وسنتقاسم معكم بكل كرم حياتنا ومعارفنا، لكن شرطنا الوحيد أن تكونوا أصحاء ومطيعين، وتقوموا بتوظيف ذكاءكم لخدمتنا، والجاحد منكم سيكون مصيره الموت، وقد حذرنا منذ قليل أحد الركاب، وهو الراكب المتميز، لكن يبدو أنه لا يزال طائشا.

خفق قلبي، وتظاهرت بعدم الاهتمام بجملتها الأخيرة حتى لا يكتشف والديّ بأنني أنا المعني، وأنا الراكب المتميز.

تطلع كل من في المركبة إلى مصدر الصوت النسائي الذي يشبه صوت الإعلان عن مواعيد القطارات في محطات القطار، أضافت المتحدثة:

- لكن الشرط الأول لتصبحوا من المختارين، هو أن تتمتعوا بصحة جيدة، وسنتأكد من توفركم على هذا الشرط، وكل من تأكد عدم توفره عليه، سنتخلص منه، وكل من اعترض على التخلص من أحد أفراد عائلته، سيعتبر من الذين كسروا الشرط الثاني، وهو شرط الطاعة، وسيصبح من ضمن من سيتم التخلص منهم أيضا.

سرى الخوف بين الجميع، وتُرجم على شكل همهمات وتشابك في الأيدي، كنت واثقا من توفري على شرط الصحة الجيدة، لم أشْك يوما من أي مرض، لكن أمي وأبي وأخي، ربما أحدهم مريض، ولم تظهر عليه الأعراض بعد، انفتحت في الحال فتحة صغيرة فوق رأس كل منا، ونزل من السقف ما يشبه الحبل الفولاذي، بدأ يتلوى كثعبان يريد لدغنا، وكان في نهايته مصباح صغير، ضوؤه أزرق، وله صوت كالأزيز، بدأ يتحرك بطريقة تلقائية حول الرأس، ثم ينزل ببطء ويلامس الصدر، ويصدر تكّة، ثم

ينتقل إلى البطن ثم القدمين، ولما انتهى الفحص، انطفأ وعاد للصعود ودخل الفتحة، فأغلقت من جديد.

لم يستغرق فحص الجميع أكثر من عشر دقائق، اعتبر ريان الأمر لعبة، وكان يحاول القبض على آلة الفحص العجيبة، لكنها كانت تنفلت منه كالزئبق، ولم تسمح له بإمساكها.

لم أعرف متى سيتم إعلامنا بنتائج الفحص، فسألت أمي التي بدت في أسوء حال، نتيجة الخوف الذي كان مرسوما على وجهها بوضوح:

- لا فكرة لي.

أجاب أبي الذي كان مرتعبا من فكرة أن يكون مهددا بفقدان حياته أو حياة فرد آخر من أسرته:

- ربما لما نصل، أو ربما الآن...

قبل أن يتم جملته، تكلمت المرأة الافتراضية من جديد:

- تم فحص الجميع بنجاح، وكل من تظهر فوقه علامة خضراء، فهو في صحة جيدة، وقد اجتاز الفحص بسلام، ومن تُضاء فوقه علامة حمراء فليودع أقاربه، لأن الفحص سيكون قد أثبت بأنه مريض، ومرضه لا شفاء منه، يجب أن يكون المختارون أشخاصا أصحاء وليس أعباء إضافية.

ارتجفت من رأسي إلى أخمص قدمي، وانخفض منسوب اعتدادي بنفسي، ووثوقي من خلوي من الأمراض، لم أجْر فحصا شاملا من قبل، ربما أكون مصابا بالسكري أو بمرض القلب، أو غيره من الأمراض المزمنة، وربما أحد أفراد أسرتي، أو غيثة، نظرت ناحيتها، "يا إلهي، ما الذي يحدث؟" كانت تبكي هي وأمها وأختها الصغيرة أيضا، كانت تمسح عينيها

بطرف كمها، وسيدة ضخمة بجانبهم تواسيهم، سقط قلبي في الفراغ، وتساءلت وإحساس بالفجيعة يشد على قلبي، "لماذا تبكي؟ هل غيثة مريضة؟ وهل سيكشف الفحص عن ذلك ويتخلصون منها"، أشرت إليها بيدي الاثنين، دون أخذ حذري من الحراس، لعلها تلتفت ناحيتي، وترسل لي إشارة تطمئنني، لكنها لم تفعل، في لحظة، ظهرت العلامات، نظرنا كلنا إلى السقف فوق رؤوسنا دفعة واحدة، وكل شخص يتوقع الأسوأ له أو لأحبته، بعدما رأيت علامتي وعلامة أسرتي، أرسلت بصري ناحية غيثة، فبدت علاماتهم خضراء.

قالت أمي من خلال دموعها:

- الحمد لله، حمدا كثيرا.

اكتملت سعادتي، لما تأكدت من نجاة غيثة وأسرتها، كن يشبكن أيديهن، ودموع الفرح تنزل من عيونهن، لكن للأسف الشديد، المرأة الضخمة التي كانت تجلس بجانبهن، أضاءت فوقها العلامة الحمراء، كانت مصدومة، وزوجها يحاول مواساتها، كانت العلامات الحمراء قليلة جدا، وتعد على رؤوس الأصابع، تحدثت المرأة الافتراضية من جديد:

- أظن بأنكم عرفتم لماذا تركنا المسنين في الصحراء، اخترنا لهم الأفضل، واحترمنا شيخوختهم.

شدّ أبي قبضته بغضب وصرّ على أسنانه، ولم يقل شيئا.

يا لها من قسوة لا يمكن حتى تخيلها، لماذا سيعدمون المرضى؟ أين حقوق الإنسان والحق في العلاج؟ تذكرت بأن التفكير ممنوع في مثل هذه الأمور، فألجمت دماغي في الحال، أحنيت رأسي، فتساقطت نظراتي بين

قدمي، فلم ألتقطها، وتركتها تتدحرج على الأرضية المعدنية، ليطأها الحراس بأحذيتهم الثقيلة كما يشاؤون.

خاطبت المرأة الافتراضية المرضى المحكوم عليهم بالإعدام:

- أصحاب العلامات الحمراء، نحن آسفون، وصلت نهايتكم، أمامكم خمس دقائق لتوديع أحبائكم.

يا له من إجرام، كيف تستطيع إخبار شخص بأنك ستعدمه الآن دون ذنب ارتكبه، مبررا ذلك بأنه لا يستجيب للمعايير، ضربت جبهتي، إن واصلت التفكير بهذه الطريقة سيتم إعدامي قبل هؤلاء المرضى.

التفتت المرأة الضخمة، ناحية زوجها الضئيل الحجم ذو الشارب الذي يحتل نصف وجهه، وبدأت تضربه على صدره وهي تصرخ بهستيرية:

- أيها الأناني الحقير، أنت من قدتني إلى الهلاك، يا ليتني ما سمعت كلامك وخرجت من بيتي، رجوتك أن تتركني لأموت في بلدي، قلت لك اذهب لوحدك فأنا لن أتحمل طول الطريق، لكنك لم تسمع كلامي، سأموت ولن أدفن بجانب والدتي في قريتي تحت شجرة الخروب الكبيرة، سأسقط في البحر، فتفترسني القروش، أو على جبل، فتفترسني الأسود والضباع.

يبدو أنها تجهل بأن المركبة تحلق بين الكواكب، وإن تم إلقاؤها إلى فراغ الفضاء ستغلي السوائل في جسمها وتتحول إلى غاز وتموت في أقل من دقيقتين.

كان زوجها يبكي ويحاول تهدئتها، دون أن يقول شيئا للجلادين، ربما خوفا من أن يعدموه هو أيضا إن عبر عن رفضه واستنكاره لما هم مقبلون على فعله بزوجته، سمعنا بكاء في أماكن متفرقة لكننا لم نر أصحابها.

سرى الحزن في المركبة كهواء خفي، واستولى عل نفوسنا، تساءلت، وربما تساءل ركاب كثيرون:

- هل سيعدمون هؤلاء المرضى في غرفة منعزلة أم سيقومون بإلقائهم من المركبة؟ كنت لا أزال مستغرقا في التفكير، وأنا أنظر إلى المرأة الضخمة، لأنها الوحيدة التي كانت في مجال بصري من المحكومين بالإعدام، فجأة وفي رمْشة عين، انخسف بها كرسيها، وأصبح مكانه امتدادا للممر، وكأن لا أحد كان جالسا هناك، دفن زوجها وجهه بين كفيه ونهنه باكيا، وجسده يهتز ويرتجف من التأثر.

نظرت إلى أمي وكأنني أستمد منها بعض العزاء، أمسكْت يدها بإحكام، فضغطت على يدي، وربتت على ذراعي، ثم رفعت نظارتها لتمسح دموعها، وهي تقول:

- لا يوجد مثل هذه القسوة في أي مكان.

أمال أبي رأسه ناحيتنا حتى نتمكن من سماعه:

- يبدو أنهم سيقضون علينا كلنا، في كل مرة يأتي الدور على مجموعة منا.

لم أعلق، خوفا من أن أتمادى في الكلام وأكون الضحية التالية، مرت ساعات أخرى ونحن لا نعرف أين نحن، لأنه لا وجود لشاشات في المركبة، تُعرَض عليها خرائط الملاحة الجوية، كما هو الحال في الطائرات، هنا الأمر مختلف، كان الحراس ينظرون إلى ساعاتهم الذكية، ويتشاورون فيما بينهم في بعض الأحيان، ربما حول محتواها، وهم يشيرون إلى ما هو مكتوب أو مرسوم فيها، نزلت من فوق رؤوسنا وجبة طعام مشابهة للأولى، فانقضضنا عليها كالصقور، لأن الجوع كان قد أخذ منا كل مأخذ، وكانت

الكمية قليلة، أقل من كمية الوجبة الأولى، اقتصرت على الماء والبسكويت، وغابت قطعة الجبن، أبي هذه المرة تناول حصته من الطعام.

ما هدفهم من تجويعنا؟ كان جدي يقول دائما "جوّع كلبك يتبعك" هل يقومون بتجويعنا لكسر شوكتنا؟

الفصل السابع

كانت نظراتي تسرح فوق وجه غيثة النحيل، لما بدأت المركبة تتمايل كسفينة تتهادى على سطح الماء، أحسست بأن سرعتها بدأت تقل تدريجيا، فسارع الحراس إلى الجلوس وربط أحزمتهم، ونظروا إلى ساعاتهم الذكية، فجأة ارتج جسدي وبدأت المركبة تدور، وكأن عاصفة مدارية شرسة امتصتها، ربما توجد عواصف في الفضاء!

فجأة، وصل إلى مسامعنا الصوت النسائي الافتراضي البارد، والذي أكد لنا بأن المركبة كانت تناور من أجل النزول وليس كما خمنت:

- بعد قليل ستنزلون من المركبة.

أحسسنا بارتجاج عنيف لما حطت، كاد يقتلعنا من كراسينا، أثار انتباهي فتى نحيف، كان يجلس على يسار أبي، يبدو أنه وحيد وبدون أهل، لم يكلمني طوال الرحلة، كان يكتفي بالنظر إليّ خلسة بين الفينة والأخرى، ويصيخ السمع لأحاديثي مع عائلتي.

بعد الفحص الذي أجروه لنا، لاحظت بأن أبي أصبح منتبها لنا أكثر من السابق، وضع حزنه في مكان عميق، لكن تغضن ما بين حاجبيه لم يلن، وظل يخترق جبينه كجذور شجرة متشابكة.

كانت جدتي تقول "تتابع الأحداث الأليمة وترادفها لا يترك للإنسان وقتا للحزن، لأن الحزن كما الفرح يحتاج لصفاء الذهن".

نزلنا من المركبة في صفوف منتظمة كما صعدنا إليها، والحراس يراقبوننا من وراء أقنعتهم الزجاجية المعتمة.

لما خرجنا فوجئنا بوجود معبر يربط المركبة باليابسة، لقد حطت على الماء، في مرسى تصطف فيه سفن ومركبات مشابهة لمركبتنا الضخمة، عجبت لذلك، كيف لمركبة فضائية كانت تحط على الرمال، أن ترسو الآن في ميناء؟ يبدو أن هؤلاء الأغراب متقدمون جدا، لكنهم على ما يبدوا متأخرون في الأخلاق والقيم، انتقلنا عبر المعبر إلى رصيف بحري، كانت الشمس مشرقة، لكنها شاحبة، والجو بارد، وتناثرت في السماء فوقنا كويكبات قريبة منا، تبدو وكأنها منطفئة وبأحجام مختلفة، قد نستطيع لمسها إن كنا على سطح ناطحة سحاب.

تغير الجو فجأة، واختفت الكويكبات، وتلبدت السماء بطبقة من السحب الداكنة وزأر الرعد، وبدأت الأمطار تهطل بغزارة، وحباتها تضرب وجوهنا كتحية قاسية، يبدو أنها تعاقبنا على قدومنا إلى هذا الكوكب الذي يشبه الأرض في كل شيء، به بحر وسماء وشمس وغيوم وأمطار، وهواء نتنفسه دون حاجة إلى قوارير الأكسجين، باستثناء تلك الكويكبات المتناثرة في سمائه كبالونات بلون رمادي، وكأنها أطلقت كإعلان عن مناسبة حزينة.

فوجئت باقتراب الفتى الذي كان يراقبني طيلة الرحلة، وقف بجانبي، فحياني بابتسامة وهزة من رأسه لما التفت إليه، ثم مدّ يده ليصافحني وهو يقول:

- أنا ناصر.

صافحته بدوري، وأنا أحدق في وجهه اللطيف، وعينيه الطيبتين:

- آدم.

سار بجانبي دون أن يضيف شيئا، شجعته أمي بابتسامة، بدا عليها أنها فهمت وضعه، لما ظل بجانبنا في الصف، ربتت على كتفه، وقالت له:

- سر بجانب آدم يا بني.

فطنْت لهدف أمي، تريده أن يصبح جزءا من أسرتنا، ربما لا أهل له، لأنه كان وحيدا، أمي تحب الأسرة الكبيرة والمتعددة الأفراد، كانت تريد إنجاب الكثير من الأطفال، وأبي من عارض الفكرة لغلاء المعيشة، لكن أسرتنا كانت دائما كبيرة بجدي وجدتي وزيارات الأهل المستمرة، كنت أسمعها تنتقد شابات العائلة المتزوجات حديثا، واللواتي يفضلن العيش مع أزواجهن وأطفالهن فقط، ويرفضن عيش الأجداد معهن تحت سقف واحد، وتقول عبارتها المشهورة، "الأسرة الكبيرة سند، والصغيرة برد ووحدة".

رحبت في أعماقي بالفكرة، يبدو أن ناصر فتى لطيف، وأنا في حاجة لصديق في عمري، نشجع بعضنا البعض، وندعم بعضنا البعض، بعدما فقدت صديقي أنس ابن عمتي، ولا علم لي أين هو الآن، لقد انقطع الاتصال بيننا منذ قدومه لبيتنا من أجل توديعنا، قبل رحيلهم، كنت آمل أن ألتقيه في المخيم، لكنه لم يكن موجودا، لا هو، ولا عمتي، ولا أخويه.

مسحت المكان حولي بنظرة خاطفة، فبدا الزحام كبيرا، وصفوف كثيرة وطويلة من اللاجئين تتحرك ببطء، والكويكبات الرمادية فوقنا كحراس يراقبوننا من السماء بعدما توقف المطر بسرعة، لكن المفاجأة المدوية لم يكن الكوكب الجديد، بل الحراس، تجردوا من لباسهم الفضائي وأقنعتهم الزجاجية، وارتدوا بذلة عسكرية عادية، حدّق فيهم الجميع بدهشة، أمي فغرت فاها، ابتسامات السخرية لوت فم بعض

اللاجئين، كانوا ينظمون مرورنا ويحاولون تسريعه، بوضع حواجز على الجوانب حتى لا نتجاوزها، بدوا أقوياء، لكن الغريب والمدهش أنهم كلهم عجائز وأعمارهم فوق السبعين أو أكثر، لا أحد منهم شاب، تذكرت سائق الحافلة العجوز، لقد كان من الأغراب، لا يمكن لشخص عادي في سنه، قيادة حافلة كل تلك المسافة، لكن من أين أتوا بتلك الحافلات؟ ربما استولوا عليها من مرآب إحدى شركات النقل بالمدينة، كيف لم أنتبه لذلك الأمر هناك؟ خاصة لما تحوّل السائق العجوز لمدة ثانية إلى شبح، فظننت بأنني أتخيل الأمر.

كان أبي يحمل أخي الصغير على كتفيه، ونحن نسير بين الجموع المتعبَة، بدت مدينة الأغراب مبهرة، وكأنها خرجت للتو من كتاب مصور، ينتمي لأدب الخيال العلمي، عمارتها تختلف تماما عن العمارة في مدينتي، غمرني إحساس بالاندهاش، فأنعشني قليلا، فأثرت انتباه أبي إلى تلك الأبنية فقال لي:

- طبعا تلك تسمى العمارة المستقبلية في الأرض، وتعبر عن الدمج بين ما هو فني وعلمي وهندسي، أو بعبارة أخرى، عدم انفصال الخيالي عن الحسي، وهناك أبنية قليلة منها تم تشييدها في السنوات الأخيرة من طرف مهندسين عالميين ومن هؤلاء المهندسة المعمارية العالمية الراحلة زها حديد وهي مهندسة عراقية، صمّمَت العديد من الأبنية المستقبلية في دول كثيرة عبر العالم، لكن هؤلاء تشكل مدينتهم كلها، ويبدو أنهم بنوها منذ عهد بعيد، وهذا دليل على تطورهم الكبير، الدول الغنية في الأرض سائرة في اتجاه تعميم هذه العمارة للحفاظ على البيئة، لأنها تبنى من مواد خفيفة وصديقة للبيئة ومستدامة كالخشب والألمنيوم والبلاستيك

والتيتانيوم والزجاج والفولاذ، لكن كلفتها مرتفعة، وهذا يؤكد بأن سكان هذا الكوكب أغنياء.

- إنهم أغنياء بالماس الذي سرقوه من أرضنا.

سمعت أحد الأشخاص قربنا، يعلق على شيخوخة الحراس:

- هؤلاء الملاعين مجرد عجائز، وتركوا أهلنا المساكين في الصحراء، الأولى لو ظلوا هم هناك، هم أكبر منهم سنا.

أجابته المرأة التي ترافقه:

- انظر حولك، ألا ترى تقدمهم، هم أصحاب علم، وصاحب العلم دائما هو الأقوى، ولو كان عمره مائة عام، ماذا فعلت بشبابك؟ عمرك ثلاثون سنة، وأنا التي كنت أشتغل وأشقى لأطعم أولادنا، وأنت كنت تهدر سنين عمرك في النوم.

سرت همهمة وارتفعت بعض الأصوات، فلم أفهم السبب؟

جرّتني أمي من يدي، وقالت لي وهي تقرب فمها من أذني لكي أستطيع سماعها:

- التزم الصمت، ولا تنس بأن عدم الطاعة يعاقب عليه هنا بالموت، كونهم عجائز لا يمنعهم ذلك من إطلاق الرصاص من البنادق المصوبة نحونا.

أمي على حق، العجائز فعلا أقوياء، بدا لي الأمر غريبا، يقفون وقفة مستقيمة، ويمشون مشية شاب في العشرين، ويصوبون بنادقهم نحونا بأيد ثابتة، وبلا رجفة من هم في سنهم، واصلنا السير بحذر.

أبي لا يزال يحمل ريان فوق كتفيه، كان متعبا، وجبينه يتفصد عرقا، لأنه حمل ريان لمسافة طويلة، اقتربت منه وهمست له:

- انزل ريان، سأحمله عنك.

فعل ذلك دون تعليق، فبدأ ريان يحتج.

- أريد أن يحملني بابا.

قالت له أمي بحزم:

- بابا متعب، سيحملك أخوك أو ستسير مثلنا.

لما سمع كلامها أطاع، فأركبْته على كتفي، وواصلنا السير، وناصر بجانبي، لم يتفوه ولو بكلمة واحدة منذ تقديم نفسه لي، غيثة لم أرها في الصف، ربما سبقناها، فجأة سمعنا صراخا وسبا وشتما، فالتفتنا لمعرفة مصدر ذلك، كان شابا نحيفا، يبدو أنه في سن الخامسة والعشرين من عمره، يسبّ ويلعن، وأمه تحاول إسكاته:

- أيها العجائز الحقراء، لم يبق لكم إلا القبر وفعلتم ما فعلتم بنا وبأهالينا، هل تظنون بأنني سأنبهر بمبانيكم السخيفة، وأخاف من أسلحتكم، أو أخضع لكم كعبد وأطيعكم؟ هل ستقومون بمعاقبتي؟ هيا افعلوا ذلك.

قال ذلك، وشد جانبيْ قميصه، فتطايرت أصدافه، خلعه، وألقاه على الأرض وظلّ عاريا، وواصل صراخه:

- أيها الملاعين، أنا لا أخافكم، أعيدوني إلى بلدي، إن بقيت هنا سأقتلكم كلكم.

قالها، واندفع نحو أحد الحراس، فبادره الحارس بإطلاق النار على رأسه، خرجت من السلاح شرارة كهربائية، فهوى على الأرض ككيس ولم يسِل من رأسه أي دم، كانت الصعقة كافية لقتله، ارتمت أمه فوق جثته وهي تصرخ:

- ماذا فعلت بي يا حبيبي؟ ماذا فعلت بأمك...؟

تقدمت سيارة صغيرة بين الصفوف التي تفصلها عن بعضها البعض حواجز حديدية قصيرة، وفراغ محجوز لمرور الحراس، سواء كانوا راجلين أو بسياراتهم الصغيرة المغلقة التي تشبه جُعْلا ضخما، لكن بلون فضي لامع، توقفت السيارة بجانب الجثة، فحملها الحراس ورموها في الصندوق، وتركوا أمه تندبه، لم يلتفت لها أحد، أو يواسيها، أو يبدي لها بعض التعاطف، لأن الجميع أصبحوا خائفين على حياتهم، بعد رؤيتهم لعملية الإعدام تنفذ أمام أعينهم، سرى الخبر كالبرق بين الصفوف، وارتفعت همهمة، ثم صمت مطبق، فأصبحنا نسير بتثاقل، وكأننا الموتى الأحياء، بأسمالنا البالية، وشعرنا الأشعث، ووجوهنا الشاحبة بسبب التعب والخوف، وبسبب ما فقدناه من أوزاننا لمعاناتنا من شظف العيش والجوع في مخيم النزوح، كنا قد استعدنا أنا وأسرتي بعض الثقة في المستقبل، لما لامسنا أرض الكوكب الجديد، لكن إعدام الشاب أمام أعيننا بتلك الطريقة الوحشية أعدم الأمل في بناء حياة جديدة هنا.

أيريدون تخويفنا بإعدامهم الشاب؟ أم ينفذون وعيدهم الذي سبق وأطلقوه؟ أم هم فقط قساة وبلا رحمة ويريدون التباهي بقوتهم؟

تأملت كلمة أقوياء، لأنها بدت نشازا أمام شيخوختهم الظاهرة، من أين يستمدون قوتهم؟ ربما اكتشفوا إكسيرا يحافظ على شبابهم الداخلي وقوتهم البدنية، فقط غلاف جسدهم الخارجي هو ما يطاله التغيير، أو ربما في هذا الكوكب لا يفقد الناس قوتهم ويحافظون عليها حتى في سن الشيخوخة.

بعد ساعات طويلة من المشي دون طعام أو ماء، وبمشية بطيئة بسبب الزحام، ظهر فجأة من العدم مخيم ضخم، يضم آلاف الوحدات المتراصة، كل وحدة منها تبدو من الخارج ككبسولة السفر عبر الزمن.

أصبحت الحواجز الحديدية تتفرع لصفوف كثيرة بلا عدد، وفي نهاية كل صف يقف ثلاثة حراس، أحدهم يحمل لوحا إلكترونيا، لما حاذيناهم، أوقفونا أمامهم وسجلوا أسماءنا، ناصر أيضا سجلوا اسمه على أساس أنه فرد من عائلتي، أخذوا صورة لنا، وسلمونا مفتاحا، عبارة عن بطاقة بها رقم، وقال لنا الحارس الذي سلمه لي:

- الرقم هو مفتاح سكنكم.

ركبنا السيارة الجُعل، فغمرتني بعض الأفكار الإيجابية، ربما قد نجونا، وسنبدأ حياة جديدة في هذا الكوكب الذي يبدو أكثر تطورا من مدينتنا، والعجائز قد يدمجوننا بشعبهم، كما قالت المتحدثة الافتراضية لما كنا في المركبة، نظرت إلى صديقي الجديد ناصر الذي كان ساهيا، ربما يفكر في الأمر نفسه، لكن لم يدم ذلك إلا لحظات، لأنني تذكرت غزوهم لمدينتي، ودفعنا للنزوح، وموت جدي بسببهم، ومنعهم جدتي من الصعود إلى المركبة، وتركها لمصيرها هي وباقي العجائز في الصحراء، وإعدامهم للمرضى، ولذلك الشاب، كل ذلك يجعلهم مجرمين مدانين، فلا ثمن لروح تُسلب، حتى وإن منحونا كوكبهم، فلن يساوي ذلك، حياة الشاب الذي أعدموه أمامنا، سحبني من أفكاري توقف السيارة أمام غرفة من الألمنيوم والبلاستيك المقوى الشفاف، إنها نقطة في بحر مخيم عملاق ومستقبلي، كان الفرق شاسعا بين هذا المخيم، وذاك الذي لبثنا فيه لمدة شهرين على حدود وطننا لما كنا في طريق النزوح، خيام متهالكة، ومياه أمطار متسربة

إلى داخلها، ووحل يعيق الأطفال عن الخروج للعب، وبرد قاس كان يجعل أجسادهم الصغيرة ترتجف باستمرار، وموت الكثير من الرضع وكبار السن بسبب المرض والجوع الذي عانينا منه كلنا في أغلب الأوقات، لكن يبقى بيتنا أفضل من هذه الكبسولة الضيقة ومدينتنا أفضل من هذا الكوكب مهما كان تطوره وتقدمه.

أدخلت الرقم السري في العلبة الصغيرة المثبتة مكان القفل، فانفتح الباب، ودخلنا فوجدنا أنفسنا في غرفة كعنبر صغير، بها عدد الأسرة بعددنا، وحمام صغير.

علقت أمي وهي تفتح باب الحمام:

- أين المطبخ؟

تذكر أخي الصغير الطعام، لما ذكرت أمي المطبخ، فشدّ جانب ثوبها وهو يبكي:

- ماما أنا جائع.

بعد لحظات، انفتحت فتحة في الجدار، فخرجت منها علبة كبيرة، كانت تحتوي على طعام يكفي الجميع، كان أفضل من طعام المركبة، أضافوا الفواكه واللحم المقدد إلى الجبن والبسكويت، تناولنا طعامنا على طاولة تشير علامة على وجودها داخل الجدار، ضغطت أمي على الزر، فبرزت منه طاولة صغيرة ومستطيلة، تناولنا طعامنا واقفين، لا توجد كراسي هنا، لما انتهينا، جمعت أمي البقايا والعلب، وألقتها في صندوق النفايات الذي يُفتح بالضغط على زر يوجد مباشرة تحت الزر الخاص بطاولة الطعام، غمرني إعجاب خفي بكل هذا التنظيم.

بمجرد اندساسنا تحت الأغطية، انطفأت المصابيح تلقائيا، وعمّت الظلمة.

بعدما نام الجميع، أحسست بعدم الأمان، فأنصتّ بانتباه، لعلي ألتقط صوتا من أصوات الطبيعة، عدت خالي الوفاض، لا أصوات طيور الليل، ولا أصوات الحشرات، ولا الرياح، ولا أصوات أمواج البحر، ربما الأمر عائد لعزل الأصوات الخارجية عن الغرفة، الأصوات الوحيدة التي وصلتني، شخير أبي، وتنفس الباقين المنتظم الذي يدل على أنهم غارقون في وديان النوم، وتكتكة وأزيز خافت ينبعث من الجدران، لأن كل الأغراض في الغرفة آلية، ويبدو أنها تشتغل بالطاقة، هل هو كوكب بلا طيور ولا أشجار، ولا غابات، ولا وديان؟ لم أر شيئا من هذا، لكن المؤكد أن فيه بحرا بأمواجه وأعماقه ومخلوقاته، وهو الذي حطت في مرساه المركبة العملاقة.

بعدما نمت، رأيت أيادي كثيرة تشير إلي بأصابع ضخمة كحبات الباذنجان، ووجوه كريهة لعجائز تحيط بي وتريد خنقي، وتضحك ضحكات مخيفة وتقترب من وجهي وتبتعد، لها أسنان صفراء وضخمة كالفؤوس، وصوت يتردد في رأسي "أنت المختار، أنت المختار" أنقذني صوت جرس رن بقوة، فاستفقت وقفزت من السرير إلى أرضية الغرفة، وكأنني أهرب من الكابوس ومن المخلوقات المرعبة التي كانت تريد قتلي، أضيء نور الغرفة تلقائيا، ثم سمعنا صوت المرأة الافتراضية من جديد:

- القيام من النوم على الساعة السادسة صباحا، والفطور على الساعة السادسة والنصف، والوقوف أمام الغرفة على الساعة السابعة، ليتم تنظيم عملية العزل.

قال أبي وهو يغادر سريره:

- يا إلهي، ألم يكفيك إزعاجنا في المركبة.

قالت أمي معقبة:

- هل سمعت ما قالته؟ إنها تأمرنا بالوقوف أمام الغرفة، هل نحن في سجن؟ السجناء من يفعلون ذلك.

فركْت عيني، وأنا أنظر إلى ناصر الذي بدا أنه راض، وقلت وكأنني أنبههم لخطر خفي:

- ألم تسمعوا كلمة العزل، ما معناها؟

أجاب والدي منزعجا:

- ما أدراني، مع كل كلمة تتفوه بها هذه الملعونة تحدث مصيبة كبيرة.

رن الجرس من جديد، كانت السابعة تماما، وصلنا صوت المرأة آمراً:

- غادروا الغرفة.

قلت غاضبا:

- هل ارتحنا حتى نغادر؟

قال صديقي البشوش ناصر:

- ربما سيأخذوننا إلى مكان أوسع وأكبر من هذا الصندوق الضيق.

أحسست بالتوتر ينتشر بيننا كالوباء، ترجمت أمي ذلك والاضطراب باد على وجهها:

- ماذا ينتظرنا خلف هذا الباب، يا تُرى؟

ظل سؤالها بلا جواب، لكننا سنعرف قريبا، ربما بعد لحظات فقط، فلماذا العجلة؟ غادرنا غرفة المخيم الذكية والمنظمة بإتقان، لقد ذكرتني بتلك التي تظهر في أفلام الخيال العلمي، لا زلنا متعبين، لأننا لم ننم الوقت الكافي لنستعيد بعض نشاطنا، ولا زلنا نرتدي الأسمال نفسها التي قدمنا بها من الأرض، لكن معطف جدي لا يدخل ضمن هذا التعريف.

وقفنا أمام غرفتنا في صف واحد، جنبا إلى جنب، كأعواد الثقاب، أمي وأبي في الوسط، أنا وناصر جهة والدي، وريان بجانب والدتي، ساد الصمت بيننا. أوّل ما وقع عليه بصري، الصفوف البشرية المتراصة من اللاجئين أمام الغرف، كل عائلة في صف، بعض الغرف أمامها فردان، وبعضها عشرة، وبعضها ستة، وبعضها فرد واحد، وبعضها عدة أطفال بلا مرافق، الكثير من الأسر كانت مبتورة، بدون أب أو أم، أو بدونهما معا، ولا وجود للأجداد طبعا، تعبنا من الوقوف، فتأففت أمي وظهر الامتعاض على وجهها:

- إلى متى سننتظر هنا؟

حلق فوقنا صوت المرأة الافتراضية من جديد:

- استعدوا للعزل، سيتم تقسيم الأسر إلى فئات، فئة المتزوجين، وفئة الشباب، وفئة الفتيان، وفئة الأطفال، وكل فئة سيتم أخذها إلى معسكر خاص بها.

ارتجفت شفتاي وأنا أحاول قول شيء...، لم تطاوعني الكلمات، وظلت محشورة في حلقي كقطعة من الخشب، أشحت بوجهي لأداري دمعة تريد التحرر، رغم حبسي لها حتى لا أزيد الموقف درامية.

حملت أمي ريان واحتضنته، وكأنها تريد حمايته حتى لا ينتزعوه منها.

تخيلت أمي مصابة بطلقة كهربائية في رأسها، وسيارة الجعل الصغيرة تحمل جثتها بعيدا، بعدما رفضت تسليمهم أخي الصغير، فسرت رجفة في قلبي، فاقتربت منها وقلت لها:

- أرجوك يا أمي كوني عاقلة، هذه أمور متوقعة.

يبدو أن أبي استوعب دروسهم جيدا، لأنه انتزع ريان من بين ذراعيها، تشبثت به في البداية، ثم استسلمت وسلمته له، دون كلمة، فقط سالت دموعها وغمرت وجهها، وهي ترى الفراق وتشتت شمل أسرتها قادم لا محالة، أوقف أبي ريان بجانبه في الصف، وأصر على أسنانه:

- ما دمنا قبلنا بالنزوح، ولم نتشبث بأرضنا، وهو أمر لن أسامح عليه نفسي أبدا، فلا بد من قبول كل ما يحدث لنا، هل فهمت؟

أظنها لم تفهم، لأنها حاولت أخذ أخي بين ذراعيها من جديد، فمنعها أبي، قلت لها محاولا تذكيرها بقوانينهم:

- أن يعزلوه وله أم، أفضل من أن يعزلوه وأنا وهو يتيمان.

تكلم ناصر الذي كان يتابع ما يجري، وقد انعكست في عينيه كل أشكال الألم والانكسار:

- احمدي الله يا خالتي، لأن كل أفراد أسرتك لا زالوا معك، ولم يصب أي منهم بأذى، كنا نسكن في الريف بجانب جسر، قصفه الأغراب من أجل تدميره، ففجروا بيتنا أيضا، ومات كل أفراد أسرتي، وكنت الناجي الوحيد من بينهم، نجوت فقط لأنني كنت في مكان بعيد عن بيتنا، لأن أبي صياد سمك، وكان قد نصب سلة صيد السمك في مجرى النهر، بعيدا جدا عن الجسر، ذهب ليأتي بعشائنا حيث نظل هناك طيلة الليل، نحرس السلة، خوفا من أن يسرقها أحد، وفي انتظار عودته، غفوت ولم

أستفق إلا على اهتزاز الأرض تحتي، ظننت بأن زلزالا ضرب المنطقة، فعدت إلى بيتنا مسرعا، لأطمئن على أهلي، فوجدت الجسر وبيتنا قد تحولا إلى ركام، وأفراد أسرتي تحولوا إلى أشلاء، حتى المواشي والدواجن لم تنج من القصف، لكن الغريب أنه كان قصفا صامتا، لم أسمع صوت أي انفجار.

تأثرنا لقصة ناصر، فضغطت على كتفه مواسيا، وأمي بدا من نظرتها المتعاطفة، أنها أصبحت تعرف قيمة ما تملك، فمسحت دموعها وعانقته:

- لقد اعتبرتك ابني منذ اللحظة التي طلبت منك مرافقتنا، وستظل كذلك، وآدم وريان أخواك، وبما أنك ستكون مع آدم، اعتنيا ببعضكما البعض.

قال أبي وهو يحاول أن يخفي تأثره:

- صحيح، عليكم مساندة بعضكم البعض يا بني.

- لكن هل إن افترقنا، سنلتقي من جديد؟

قالتها أمي، وعيناها تبحثان في وجهي عن جواب شاف ومطمئن:

- طبعا يا أمي.

لثمت جبهتي، وقالت لي بصوت مبحوح من التأثر:

- يا ولدي الحبيب، أعرف بأنك رجُلِي الصغير الذي سيفعل ما في وسعه لنجتمع من جديد، أنا أعول عليك وليس على والدك، أنت ابني الذكي الذي ربيته ليواجه الحياة مهما كانت صعوباتها، وأرجو أن تسامحني لأنني قسوت عليك في تلك الفترة المشؤومة من حياتك، لكنني قمت بذلك مرغمة من أجل حمايتك.

أردت أن أخبرها بأنني خائف مما سيأتي، ولست قويا كما تتصور، لأن الأمر يتعلق بفراقها هي ووالدي وريان، وأنني في حاجة لوجودها ولحنانها ليلفني كغطاء دافئ، لكني لم أرد أن أخيب ظنها بي، أو أضاعف همها وأحزانها، فتراجعت عن اعترافي.

قال أبي متظاهرا بالصلابة:

- حسنا، إذن لا خوف علينا الآن، حتى ريان سيكون بطلا وينجو، هيا لنعانق بعضنا البعض عناقا جماعيا، قبل قدومهم.

فعلنا ذلك، فقالت أمي من بين دموعها، التي انهمرت من جديد:

- تمنيت لو أستطيع أن أخبئكم في قلبي فلا نفترق أبدا.

لزمنا أماكننا، منتظرين الأوامر التي ستطاع دون مناقشة كما اتفقنا، تقدمت منا امرأة مسنة ونحيفة، لها قصة شعر قصيرة، وترتدي بدلة عسكرية، وتحمل لوحا إلكترونيا، وخلفها حارسان يحملان سلاحهما المصوب نحونا، حدقت في وجوهنا وربتت على خد أخي الصغير، ثم نظرت إلى أمي، وخاطبتها بلهجة آمرة:

- الفتَيان سيُعزلان لوحدهما مع من هم في سنهما، نظرت في اللوح الإلكتروني ورفعت رأسها وصوبت نحوي نظرة لم أفهم معناها، ثم هزت رأسها، وابتسمت لي ابتسامة غامضة، نظرت إليّ أمي لترى رد فعلي على تصرف المرأة، لكنني لم أبد أي رد فعل، واحتفظتُ بوجه خال من التعبير، تواصلت عملية تقسيمنا:

- سنأخذ الطفل إلى معسكر الرعاية، وأنتما ستظلان معا في معسكر خاص بالمتزوجين لتتجنبا المزيد من الأطفال.

رددت بيني وبين نفسي ممتعضا: "ينجبا المزيد من الأطفال، يا للقرف"

ختمت المرأة أوامرها، وتوجهت صوب الأسرة الواقفة أمام الغرفة الموالية، والحارسان خلفها كظلّها، وفي الحال وصلت السيارات التي ستقلنا.

أحاول نسيان لحظة الفراق المرير، لكنني أعجز عن ذلك، لما صعدت السيارة الجعل أنا وناصر، التفتُّ ونظرت من الزجاج الخلفي للسيارة، كان ريان يصرخ، لم أسمع صراخه بسبب نوافذ السيارة المغلقة، رأيت فمه الصغير المنفتح على آخره ووجهه المتشنج المحمر، وهو يمد ذراعيه الصغيرتين ناحية أمي بيأس، مستنجدا بها لما أخذته امرأة بالقوة من بين ذراعيها، لتضعه في السيارة، ذلك المشهد طعن قلبي بقسوة، لكن سيارتنا انطلقت، ووالديّ ظلا في مكانهما، لم يرفعا يديهما لتوديعنا، لأنهما كانا منشغلين بمسح دموعهما، غابا عن ناظري، لما انعطفت السيارة وغادرت المخيم، وتوغلت بنا في قلب المدينة الرمادية، بأبراجها الزجاجية العالية، وبناياتها ذات الأشكال الهندسية البديعة التي تشبه أعمالا فنية تجريدية، وشوارعها النظيفة التي تصطف على طولها أسهم ضوئية بألوان متعددة، وإشارات مرورية ومقاطع إشهارية تُعرض على شاشات عملاقة، وسيارات تطير وأخرى تسير على الإسفلت، شعرت بألم في حلقي، فنزل في الحال من سقف السيارة ما يشبه المجس الذي فحص ركاب المركبة، واقترب من فمي كأفعى تريد لدغي، فأمرني صوت المرأة الافتراضية:

- افتح فمك، سنجري لك فحصا، حرارتك مرتفعة.

دخل المجس إلى فمي وضغط على لساني، ثم انسحب من تلقاء نفسه، قرأ مرافق السائق البيانات التي ظهرت على لوحة إلكترونية مثبتة أمامه في السيارة، كتب شيئا على اللوحة نفسها، وفي لحظة نزل المجس من جديد وأحسست بما يشبه لسعة النحلة في عنقي من جهة اليمين، فرفعت يدي تلقائيا لأمسد مكان اللسعة الذي آلمني.

خاطبني الرجل المرافق للسائق:

- إنها بداية إصابة باللوزتين، لكن تداركنا الوضع، ستشفى في دقائق بعدما تلقيت الحقنة.

ظهر الإعجاب في عيني ناصر، وسألني:

- ألا زلت تحس بالألم؟

- قليلاً.

لما غادرنا المدينة، تحولت السيارة إلى وضعية الطيران، وارتفعت في الجو بعدما انفتحت أجنحتها التي تشبه أجنحة جُعل حقيقي، لكن طيرانها كان بطيئا، وكأنها تأخذنا في نزهة، بدت الكويكبات المتناثرة في الجو قريبة منا، لدرجة قد تمكننا من لمسها إن أخرجنا أيدينا من نافذة السيارة، عجيب ما أراه، وكأنني في حلم متصل، كان السائق يضطر للمناورة حتى لا يصطدم بها، نظرت إلى الأسفل، فبدت لي أرض قاحلة وصخرية ولونها رمادي، فتساءلت، من أين يأتي طعامهم؟ يبدو أنه لا وجود لأرض زراعية أو أشجار أو حيوانات في هذا الكوكب، لم أتمادى في التفكير، وظللت متكئا على مسند الرأس لمقعد السيارة، بعد مرور ما يقرب من ربع ساعة على مغادرتنا لغرفة المخيم، ظهر من العدم بناء

ضخم، مبني بنفس طريقة عمران مدينتهم، رابض على أرض صخرية مسطحة.

لما أصبحت السيارة فوق البناية الضخمة، قال الرجل الجالس بجانب السائق، دون أن يلتفت ناحيتنا وكأنه روبوت:

- وصلتم إلى معسكر التدريب.

التفت إليّ ناصر، وقد بدا عليه التوتر، لم أكن أفضل حالا منه، وأنا أترقب ما سيسفر عنه بدؤنا لهذه المرحلة الجديدة من حياتنا، أستكون سهلة أم صعبة في هذا المعسكر الكئيب؟

حطّ الجعل الحديدي على الأرض، في ساحة ضخمة، وجمع جناحيه وتحول إلى سيارة صغيرة، فنزلنا وتسلّمَنا حارس آخر، وقادنا بين صفوف من الفتيان والفتيات في مثل سننا، كنت عابسا وحزينا ومتوجسا وخائفا.

الفصل الثامن

همست لناصر:

- ابق بجانبي.
- سأفعل.

لم أرد أن أفقده بين الصفوف التي بلا عدد أمام المعسكر، لأنه كل ما تبقى لي من أهلي، صحيح أنه انضم إلى أسرتي منذ أقل من يومين، لكنني أعتبره صديقي وأخي، جميع الفتيان والفتيات كانوا واقفين في صفوف متراصة، لو كنا نرتدي زيا موحدا لبدونا وكأننا في استعراض عسكري. تعبنا من الوقوف، منتظرين أن يصلنا الدور لتبتلعنا تلك البناية الرمادية الصلبة، أمامها حراس كثيرون مستعدون للقتل، ببنادقهم المصوبة نحونا، يسيرون بين الصفوف دون توقف، كنا نتحرك ببطء، كسلحفاة مريضة، تمنيت أن نظل صامدين ولا نسقط مغمى علينا، رأيت العرق ينز من جبين ناصر، ووجهه ازداد شحوبه، وأنا أيضا لم أكن أحسن حالا منه، قلبي كان يخفق بشدة، وركبتاي بالكاد تستطيعان حملي:

- هل أنت بخير؟

أجابني، وتنفسه متسارع:

- أحس بالتعب.
- تحمّل، سيصلنا الدور قريبا.

بعد لحظات، سمعنا صوت المرأة الافتراضية فوقنا مباشرة كظل ثقيل:

- ستوزع عليكم وجبة الغداء الآن.

وصلت عربة صغيرة، وتوقفت بجانبي، تساءلت، أين وجبة الغداء؟ توجد فقط علب مفتوحة في حجم علب الزبدة، متراصة فوق عربة صغيرة، تسير تلقائيا دون أن يدفعها أحد، انحنيت قليلا لأرى جيدا ما بداخلها، كانت تحتوي على أقراص تشبه أقراص الأسبرين، لكنها ملونة، التفتّ ورائي، فقال لي الفتى الذي خلفي باسما: "هذه هي وجبة الغداء" وحشر في فمه قرصا أصفر كان يحمله بين سبابته وإبهامه، هززت له رأسي شاكرا، وأخذت قرصا أزرق، ووضعته في فمي، فعل ناصر الشيء نفسه، ثم واصلت العربة سيرها بين الصفوف، لتقف بجانب كل فرد ولا تتحرك إلا إذا مد يده وأخذ قرصه من العلبة، انفجر في فمي مذاق أكلات ومقبلات وفاكهة، كان للقرص مفعول سحري على جسمي، مدني بالحيوية والقوة، فأحسست بأنني قادر على الوقوف في هذا الصف لمدة أسبوع، أو الركض ليومين كاملين، نظرت إلى ناصر فوجدت وجهه قد عادت إليه الحياة، بعدما كان شاحبا شحوب الموتى، فبادلني النظر، وهز رأسه مبتسما دون أن يعلق، وصلتني همسات الفتيان الموجودين في الصف:

- مذاق الدجاج المشوي.
- بل مذاق الكرز والتفاح
- مذاق الكيوي والبندق.

قالت إحدى الفتيات بحماس:

- إنها حبة سحرية، سنُعفى من عبء مضغ الطعام.

قال لي ناصر:

- لو كانت هذه الأقراص متوفرة في الأرض لاستطاعت حل مشكلة نقص الطعام، ولما كان هناك جياع، يا له من اختراع.

أجبته:

- إنه اختراع مذهل، والاختراع دائما يحتاج إلى شخص يفكر، كنت أسمع جدي يقول:"الأفكار هي التي تغير العالم".

لا زالت الصفوف تتحرك ببطء، اقترب حارس ونظر إلينا نظرة موبخة، فصمتنا، وغرست عيني في حذائي الرياضي الذي بدا مهلهلا وقديما، إن خلعته سأؤذي كل الموجودين قربي، وأظن بأن حال أقدام الفتيان الآخرين ليست أفضل من حال قدميّ، جوارب مثقوبة ومتسخة ونتنة، وأحذية ممزقة، وبثور وأظافر مكسرة.

سمعت فجأة اسمي واسم ناصر، بدا على بعد خطوات منا باب زجاجي كبير، لما اقتربنا من عتبته انفتح تلقائيا، فدخلنا وتقدمَنا أحد الحراس، سرنا خلفه في ممر طويل، أرضيته ذات لون رمادي باهت، لكنها مصقولة، وجدرانه بيضاء لامعة، وصلنا صوت المرأة الافتراضية الذي لا يتغير أبدا في كوكب العجائز، فهي المتحدث الرسمي هنا:

- استحموا، قبل أن تدخلوا العنابر.

لأول مرة غمرني الارتياح لأوامرها، وأحببت ما قالته، لأن جسمي في حاجة لأكشط عنه طبقات الأوساخ التي تراكمت عليه بعد أشهر طويلة من النزوح.

واصلنا الطريق، وأنا حريص على ألا يفوتني شيء، عبرنا ممرا طويلا، وظلُّنا يسبقنا، وهو منعكس على أرضية الممر اللامعة، طويلا ورفيعا

كخيزرانة يجرها الحارس خلفه، وصوت أحذيتنا صامت، وكأننا نتمشى فوق الرمال.

وصلنا إلى نهاية الممر، ثم انعطفنا إلى اليمين، ودخلنا ساحة فسيحة تعلوها قبة زجاجية تظهر منها السماء، والكويكبات مطفأة وقريبة من سقف القبة، وتكاد تلامسها، رفع ناصر رأسه إلى الأعلى، وارتسمت في عينيه دهشة طفولية من منظر القبة الزجاجية والكويكبات، أرضيتها بيضاء لامعة، وتتوزع على جوانبها مقاعد طويلة تشبه مقاعد الحدائق، لكن تصميمها يتماشى مع المبنى الذكي، وفي طرف الساحة، صالة رياضية محاطة بجدران زجاجية تكشف ما بداخلها من معدات رياضية، كانت فارغة ولا أحد يتمرن فيها، لم نتوقف، لأن الحارس يسير أمامنا بخطوات واسعة، قد يستدير، ويجدنا متوقفين عن السير، فيعتبر ذلك مخالفة تستوجب العقاب، ونحن في غنى عن ذلك، ما فينا يكفينا أيها العالَم الجديد، قطعنا الساحة، ودخلنا إلى ممر آخر وعبرناه، أثناء عبورنا، لفت نظري باب كبير خرج منه أحد الأشخاص فأغلق خلفه تلقائيا، عجوز طبعا، لكنه لا يرتدي اللباس العسكري، وإنما يرتدي وزرة بيضاء.

توقف الحارس وأشار إلى صف من الحمامات، وتراجع، دخلنا أنا وناصر لحمامين متجاورين، "تعال أيها الصابون العزيز، لقد اشتقت إليك"، أخذت قطعة الصابون وقربتها من أنفي، كانت معطرة برائحة زهور الليمون المنعشة، فركت جسمي بالليفة والصابون، وتركت الماء الدافئ يغمرني بسخاء، وهو ينزل من رشاش الدش، "أوه، يا لها من لحظة عظيمة" لما استحممت، جففت جسمي بالمنشفة التي كانت مطوية وموضوعة بعناية على رف زجاجي، وبجانبها ملابس داخلية، وبذلة لونها

رمادي، وحذاء جلدي خفيف لونه أسود يشبه الحذاء الرياضي مع جوارب بنفس لون البذلة، ارتديت تلك الثياب النظيفة التي تشبه ثياب السجناء بسعادة، وتركت الأسمال المتسخة التي كنت أرتديها، أما معطف جدي فشممته وقبلته وطويته وحشرته في حقيبة الظهر، سأحتفظ به إلى الأبد، لأنه الذكرى الوحيدة التي تحمل رائحة جدي الحبيب.

غادرت الحمام، فوجدت ناصر ينتظرني، تأملنا بعضنا البعض، فقلت معلّقا على شكله الجديد:

- تبدو كأحد مساجين سجن الأحداث.

ابتسم ابتسامته اللطيفة وقال:

- وأنت أيضا.

توغلنا في الممر، خلف الحارس الذي كان ينتظرنا، انتهينا إلى ممر آخر على اليمين، ما إن وطئنا أرضيته، حتى وصل إلى مسامعنا بعض الضجيج، لكزني ناصر منبها، فهمست له:

- يبدو أنهم الفتيان الذين سبقونا.

وصلنا إلى باب زجاجي معتم، فسلمنا الحارس بطاقتين عليهما رقم:

- مفتاح درجيكما.

تبادلنا أنا وناصر النظرات، فانفتح الباب تلقائيا، حزمنا أمرنا ودخلنا، ففوجئت بوجود عدد كبير من الفتيان في سني، والعنبر مصطف بالأسرة ذات الطابقين، قمنا بتحيتهم برفع يدينا، توجهت إلينا عيون الموجودين، تقدم منا فتى بوجه بشوش وهو يحاول أن يشعرنا بالمودة، قدم لنا نفسه قائلا:

- أنا وديع، اسمح لي.

أصبح وديع فيما بعد من أعز أصدقائي، وعرفت بأن أمه أُعدمت في المركبة، لأنها كانت مصابة بمرض السكري، بعدما كان أبوه قد قتلته الأصوات العالية التي عذبونا بها، لأنه كان يعاني من مرض غامض في الأذنين، فسبب له السلاح الصوتي نزيفا في أذنيه وتوفي، وقد وصل وديع إلى هذا الكوكب هو وأخته الصغيرة، ففرقوهما لأنها في الرابعة من عمرها.

أخذ وديع البطاقة من يدي وقربها من نقطة حمراء بجانب السرير، فتحولت للون الأخضر، وخرج من الحائط درج لونه أبيض، أعاد لي البطاقة وهو يقول:

- هذا الدرج رغم صغر حجمه يفي بالغرض، نضع فيه فقط، ما جلبناه معنا من أغراض قليلة، الثياب نجدها في الحمام، لما نستحم، نغير ثيابنا بالنظيفة، والمتسخة نضعها في السلة الذكية التي تخرج من الحائط بضغطة زر.

بعدما شكرته، أخرجت معطف جدي ووضعته في الدرج مع الأغراض الأخرى، لم يحتج ناصر لفتح درجه، لأنه لم يكن يحمل معه شيئا.

تمددت على سريري، وبعد بضع لحظات أجفلت لما تساقط علينا من السقف صوت المرأة الافتراضية:

- الآن موعد العشاء.

لم تضف شيئا على هذه الجملة الجافة.

خرجت من الحائط بجانب السرير، مائدة صغيرة عليها علبة طعام بها قطعة من الخبز وقطعة من الجبن وعلبة عصير:

- هل سيحولوننا إلى زهاد، بتقتيرهم علينا في الطعام؟

لم يجب أحد عن سؤالي، كان الجميع مشغولين بتناول وجبتهم.

قال لي وديع، الذي كان سريره يعلو سريري:

- لما تنهي طعامك، ستعود المائدة إلى داخل الجدار بالبقايا والعلب الفارغة، هنا لا حاجة لتنظيف المائدة.

أضاف شاب أسمر اللون بشعر مجعد وقصير، اسمه يوسف:

- الحياة هنا سهلة، نتناول الطعام ونخرج لفضاء الفسحة الموجودة تحت القبة الزجاجية، ونقرأ الكتب، لأن المعسكر يتوفر على مكتبة مذهلة، بها كتب في كل المجالات، وكلها كتب افتراضية، وقريبا ستنطلق الدراسة.

ما أثار اهتمامي في حديث يوسف، هو المكتبة، ففركت يدي بحماس، لأن الحنين إلى القراءة انبعث في نفسي كمارد، لما كنا في مخيم النازحين لمدة شهرين، تمنيت لو كنت أمتلك كتبا لأقرأها، فتنسيني معاناتي، وأشغل بها وقتي، وأغْني رصيدي المعرفي، ضاع مني وقت طويل بدون مصاحبة الكتب، بسبب الشبح وبسبب المخلوقات الفضائية وبسبب الغزو والنزوح، قلت لناصر بسعادة:

- اشتقت لقراءة الكتب.

أجابني، وفي عينيه علامات تأسف وحسرة، لما لاحظ حماسي:

- سحبني والدي من المدرسة لمساعدته في الصيد ورعاية بقرتنا وغنمنا لما كنت أدرس في الصف الثالث، لن أستفيد مثلك من مكتبة المعسكر.

فوجئت، لم أكن أعرف بأن ناصر غادر مدرسته مبكرا.

علق وديع وهو يحدق في ناصر بأسف:

- إذن، لن تبقى معنا في نفس العنبر، الذين غادروا كراسي الدراسة مبكرا، والذين لم يدخلوا المدرسة مطلقا، يقوم العجائز بعزلهم في مكان آخر، ويقومون بذلك في اليوم التالي لوصولهم.

لم يعرف وديع وقع كلامه على نفسي، لقد صدمني، هل سأفقد ناصر أيضا؟ ولماذا يقومون بهذا الفصل الظالم؟ هل عدم مواصلته لتعليمه مبرر لفصله عنا؟ غمرتْ وجه ناصر، سحابة من الكدر والحزن، فلم أعرف كيف أخفف عنه.

في الصباح التالي دخل العنبر أحد الحراس، وبدأ ينادي على أسماء كثير من الفتيان، من بينها اسم ناصر، تبعه حارس آخر يدفع عربة عليها ملابس، سلم لكل واحد منهم بذلة وأمرهم بتغيير ثيابهم قبل المغادرة، دخل ناصر وكل الفتيان الذين سيغادرون إلى الحمامات الملحقة بالعنبر وخرجوا وهم يرتدون بذلة أرجوانية.

عانقني ناصر، وفي عينيه خوف وقلق، لاحظت بأنه كان يعتمد عليّ ويستمد مني بعض الشجاعة خلال الفترة القصيرة التي قضيناها معا، همس لي بصوت مرتجف:

- أنا خائف.

همست له وأنا أعانقه وأكتم حزني:

- لا تخف، سنبقى في المعسكر نفسه، وسنلتقي في ساحة الفسحة تحت القبة الزجاجية، ونتفرج على الكواكب المعلقة في السماء، ونتناول الطعام معا، لقد سمعت بأنهم بعد أسبوع واحد، سيسمحون لنا بتناول طعامنا في مطعم المعسكر.

- أتمنى ذلك.

قالها وأتبعها بتنهيدة عميقة.

- لا تجزع وكن شجاعا، ولا تنس بأن لك أخا في المعسكر يحبك.

لما انصرفوا، لاحظ يوسف تجهمي، فاقترب مني محاولا مواساتي:

- فعلوا الشيء نفسه مع الذين قدموا قبلهم، ولهم نفس وضعيتهم.

سألته بلهفة:

- هل التقيت بهم بعد ذلك؟

- لا أتذكر وجوههم، لأنهم أخذوهم في اليوم الموالي لوصولنا، حتى وإن صادفتهم لن أعرفهم.

ضغط على كتفي وأضاف:

-لا تقلق، ربما سيبدؤون الدراسة في مكان آخر، لأن على الجميع مسايرة الإيقاع السريع هنا، أظن بأن هؤلاء العجائز لا يتركون أي شخص خلفهم.

طمأنني كلامه قليلا، لكن التوجس لم يغادرني، من يتركون المسنين في الصحراء، ويعدمون المرضى بدون سبب، لا أمان لهم، قد يعدمون حتى الذين لا حظ لهم من التعليم، لكن لو كانت هذه نيتهم لنفذوا جريمتهم قبل لجوئنا إلى كوكبهم.

في صباح اليوم التالي، جاء مرافق لأخذنا، نحن الفتيان الجدد، لنقوم بجولة في المعسكر، وإطلاعنا على قاعات الدراسة، والمختبرات، والمكتبة، كما أخبرنا بذلك، بعدما خرجنا من باب عنبر النوم، لاحظت بأنه يحدق في وجهي بتركيز، فأحسست بالحرج، وكأنني أنا الوحيد الذي أقف أمامه، وليس مجموعة كبيرة من الفتيان.

"يا إلهي، ما هذا...؟" انبهرت بشدة، لما دخلنا مختبرا علميا مجهزا بأجهزة كثيرة ومعقدة وغريبة الأشكال والأحجام، لم أعرف منها سوى المجهر والزجاجيات، أخبرنا مرافقنا العجوز بأن هذا المختبر خاص بإجراء البحوث والاختبارات من أجل تجويد حياة أهل الكوكب، وتطوير الأدوية، وأضاف بصوت رفيع، ووجهه المجعد يعلوه الفخر:

- هنا اخترعنا أدوية لجميع الأمراض، حتى السرطان استطعنا القضاء عليه، واخترعنا أيضا أقراصا تغني عن الطعام، وتمد الجسم بالطاقة، وهي التي تناولتم منها قرصا واحدا أمام المعسكر كوجبة غذاء، لكننا نفضل تناول الطعام الحقيقي، والأقراص فقط لتعويض المأكولات التي لا نتوفر عليها، لا نريد أن ينسى جسمنا طريقة مضغ الطعام وهضمه، حتى لا تضمر الأعضاء المسؤولة عن ذلك.

بعد ذلك زرنا مختبر صنع الروبوتات وتطويرها، كانت الروبوتات شبيهة بالبشر، وهي واقفة في أماكنها المخصصة لها، بملامحها البشرية، وبشرة وجوهها الناعمة، وعيونها التي تحدق في الفراغ، وشعرها المسبل الناعم، وأيديها وسيقانها التي لا فرق بينها وبين أيدينا وسيقاننا، كانت واقفة باستقامة وثقة، تكاد تلقي علينا التحية، وأخرى ذات هيكل صلب، وثالثة في طور التركيب، تظهر أدمغتها الإلكترونية ومفاصلها موصولة ببعضها البعض.

كنت مأخوذا بما أرى، كان حلم حياتي التخصص في هندسة وبناء وتشغيل الروبوتات، يبدو أنه لا بأس من لجوئنا إلى هذا الكوكب، ربما الأمر جيد، لاحظت مراقبة المرافق لردود فعلي، بدت ابتسامة خفية على وجهه وهو يوضح لنا طريقة صناعة الروبوتات، لا أعرف لماذا يخصني

بنظراته دون سائر الفتيان؟ لماذا أشغل نفسي بهذه الأمور؟ عليّ أن أركز على شرحه وتوضيحاته التي يمتصها عقلي كالإسفنجة.

دخلنا بعد ذلك إلى مختبر آخر، قبل أن أتجول ببصري في جنباته بادرنا مرافقنا بقوله:

- هنا نقوم بتطوير الأسلحة الخفيفة والخفيّة، وقد تمكنا من تجاوز استعمال الرصاص، لأنه يحدث الفوضى بسبب الخلايا التي تتمزق، والعظام التي تتكسر، والدماء التي تسيل، بنادقنا ومسدساتنا تعمل بشحنة كهربائية، ليظل من نقتله نظيفا، فلا نضطر لتنظيف ما تخلفه الجثث من دماء، طورنا هنا أيضا أسلحة غير مرئية، نلقح بها الهواء والسحب، وهي عبارة عن غبار ملون أو بلا لون، أو مجرد غاز بلا رائحة، ومن أوجه استعمالات الأسلحة الخفية جعل العدو لا ينام لأيام عديدة، لأن أكبر عقاب يمكنك إنزاله بأحد هو حرمانه من النوم، أو جعله ينام لأيام أو لأشهر، مثلا نستطيع تنويم جيوش الأعداء لأشهر فننجز عملياتنا دون اعتراض من جندي واحد، هنا أيضا طورنا أسلحة صوتية، تحقق أهدافها من خلال ضجيج غير محتمل، وطورنا أيضا في هذا المختبر ما هو مفيد، كتعقيم وتطهير وتنظيف الجو من التلوث، وبالنسبة للأعداء قد ننشر سموما في الجو لتعطيل عمل بعض أعضائهم كالجزء المسؤول عن الذكاء في الدماغ مثلا، لنحولهم إلى مجرد قطيع من الأغبياء نسيّرهم كما نريد، أو ننشر بينهم الأمراض والأوبئة الفتاكة فنفنيهم دون الحاجة لخوض حرب ضدهم.

كان واضحا من نوعية الأسلحة التي سرد خصائصها أمامنا، أن العجائز استعملوا الكثير منها لما قاموا بغزو مدينتي، أسلحة لا تتمكن

الجيوش التقليدية من مواجهتها، وأظن بأنني وجدت الجواب الشافي لسؤال كان يطن في رأسي كذبابة ملحاحة، أين اختفى جيشنا وترك للأغراب اليد الطولى ليفعلوا بنا ما يشاؤون؟ عذبونا ودفعونا للنزوح دون أن يحرك الجيش ساكنا، الآن أظن بأنني فهمت، نوّموهم في ثكناتهم، وربما لا يزالون نياما هناك كأهل الكهف، ولما يستيقظون سيجدون المدينة شبه فارغة، وإن لم يحالفهم الحظ سيقوم الأغراب بهدمها على رؤوسهم.

أعادني صوت المرافق إلى الواقع، لما قال بنبرة أعلى من تلك التي استعملها لتقديم التوضيحات:

- لا تسرحوا بعيدا، وانتبهوا لما أقول، حتى يسهل عليكم بدء دراستكم بيسر وسهولة، ولعلمكم، ستنطلق بعد اسبوع.

ثم أضاف:

- أنتم الفتيان المختارون، قالها وعيناه مركزتان على وجهي، ثم واصل كلامه، طراوة عودكم، وقابليتكم للتعلم هو ما دفعنا لاختياركم، سنعلمكم كل شيء، لتتمكنوا من القيام بالأبحاث، إننا نعدّكم لتصبحوا علماء كبارا، ما أطلعناكم عليه في مختبراتنا، من أهم أسرار كوكبنا، وقد كشفناها لكم لأنكم أصبحتم منا، وجزءا من شعبنا، في السنة الأولى ستتعلمون في كل الأقسام، وبعد ذلك ستتخصصون في التخصصات التي تميلون إليها، وستقومون بمساعدتنا على تطوير كوكبنا الصغير الذي في حجم مدينة، تطوّرنا مكننا من امتلاك ما لم تمتلكه دول كاملة على الأرض، لكننا لا زلنا نطمح لتحقيق المزيد.

فجأة صوب سلاحه تجاهنا، وكأنه تذكر مهمته الأخرى المتمثلة في الحراسة والتصويب إلى رؤوسنا، ليذكرنا بأننا مجرد قطيع موجود تحت

رحمة سلاحه، حدق في وجوهنا بعينيه الضيقتين، ثم أنزل سلاحه، ومرّر كفّه على وجهه المجعد والقاسي، وقال بنبرة مهددة:

- من خان الأمانة مصيره معروف.

أحسست بالامتعاض بسبب تهديده المجاني الذي ألقاه بلا مناسبة، لويت شفتي، فلاحظ حركتي، فوجه لي سبابته وكأنه يريد طعني بها:

- أنت.

أصبت بالذعر، فطأطأت رأسي ولم أجب، اقترب مني وقال لي هامسا بصوت كالفحيح:

- عليك أن تكون ممتنا، لما سنقدمه لك من معارف، وللمركز الذي ستتبوّؤه مستقبلا.

تمالكت نفسي وأجبته مجاملا:

- طبعا أنا ممتن يا سيدي، أثلج صدري ما رأيته بمختبراتكم، وسيسعدني النهل من علومكم، وأعتبر نفسي محظوظا لأنني لجأت إلى كوكبكم السعيد.

رأيت الرضا، وظل ابتسامة ماكرة مرتسمين على وجهه.

حاذينا أحد الأبواب، فلم يُفتح وظل مغلقا، وهو الباب نفسه الذي رأيت العجوز ذو الوزرة البيضاء يخرج منه لما مررنا أمامه أنا وناصر لأول مرة، تخطاه المرافق إلى باب آخر، فانفتح ودخلناه، فكانت المفاجأة الكبرى، إنها المكتبة، كان الختام مسكا، يا لها من مكتبة عجيبة وغريبة ومتطورة، عرفت الآن لماذا استطاع هؤلاء القوم غزونا، قال المرافق:

- تحتوي المكتبة على كتب افتراضية، وستقومون بقراءتها بواسطة قارئات إلكترونية ونظارات ذكية، ستمكنكم نظرة واحدة من هذه

النظارات من قراءة صفحة وفهمها، ثم تنتقلون للصفحة الموالية تلقائيا، ومن أراد القراءة بالطريقة العادية فله ذلك.

رقصت روحي طربا لهذا الكنز الذي اكتشفته، وبدت شهيتي نشيطة، ومفتوحة على الآخر لالتهام الكتب، لن يشبع جوعي ولا نهمي اللذين بلا حدود للقراءة، إلا إن أتيت على ما يوجد في ذاكرة القارئات التي تخزن كل كتب المكتبة، لكن لما أعلن المرافق عن عدد هذه الكتب، أصبت بالذهول:

- مليار عنوان.

التفتّ إلى شاب كان بجانبي، وقد ارتسمت الدهشة على وجهه، أصبح فيما بعد صديقي، واسمه رياض وقلت له:

- لن يكفينا عمرنا كله لقراءة كل هذا.

أول ما فعلته بعد تناول وجبة الغداء التي لا زالت تخرج من الجدار، بعد الجولة التي قمنا بها في مرافق المعسكر، أنني قصدت المكتبة، كان يرتادها العديد من الفتيان والفتيات، جلست إلى كرسي، وشغلت القارئة الإلكترونية، ووضعت النظارة الذكية التي لا تختلف عن النظارة العادية إلا في شريحة رفيعة مثبتة على ذراعها، اخترت مجال الرياضيات، وكتبت اسمي وسني، وهي معلومات ضرورية لأتمكن من الولوج إلى المكتبة الافتراضية، ظهرت لي لائحة طويلة من الكتب، اخترت واحدا، فظهرت الصفحة الأولى على الشاشة، يا لها من متعة، كانت الصفحات تتوالى فتُنسخ في ذاكرتي، وأفهم مضمونها في ثوان.

قررت أن أنوّع في مجال قراءاتي لأستطيع قطف ثمار متنوعة من أشجار المعرفة، أستاذ اللغة العربية في وطني، كان دائما يوصينا بالتنويع في مجالات القراءة، إن أردنا صقل شخصيتنا وأخلاقنا وإغناء معارفنا، إن

هذه المكتبة منحة يستحق الأغراب من أجلها الشكر، أحسست بأن عقلي كان فارغا ويحتاج الآن إلى شاحنات من الكتب لملئه، قرأت في زياراتي الأولى للمكتبة كتبا في الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، وفي الطب، والفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا، والبيئة، والرواية، والشعر، وعلى ذكر الشعر، لما كنا في الوطن، حاولت كتابة قصيدة في وصف جمال غيثة، لكنني حذفتها من حاسوبي، لأنها كانت بالنسبة لي رديئة وتافهة، وتأكدت بأنني شاعر فاشل، أصبحت أقرأ كتابا في ساعة واحدة، بعدما كنت أفعل ذلك في عدة أيام لما كنت أقرأ بالطريقة العادية في الماضي.

انتظرت انتهاء الأسبوع بلهفة، جاء اليوم المنتظر، فالتحقتُ مع زملائي بالفصل الدراسي، كان عبارة عن مدرج كبير، كان قد سبقنا إلى هناك أستاذ وأستاذة، يرتديان وزرتين بلون أبيض، وهما عجوزان طبعا، آه، أنسى في كل مرة وأذكّر بأن هؤلاء الأشخاص عجائز، يبدو أن جميع سكان هذا الكوكب عجائز ولا يوجد بينهم من هو في سن الشباب، باستثنائنا نحن اللاجئين.

جلست بجانب وديع، والأستاذ والأستاذة يقفان مواجهين لنا، وشاشة كبيرة خلفهما، قدما لنا نفسيهما، الأستاذ رونالد والأستاذة ماريا، فجأة، سمعت اسمي:

- آدم، آدم...أين آدم؟

كان الأستاذ رونالد من ينادي على اسمي ويسأل عني، فارتعبت، رفعت يدي متوجسا، فقالت لي الأستاذة ماريا بودّ:

- تعال إلى هنا، لماذا تختبئ في الخلف؟

كنت أجلس في الصف الأخير، لأنني فضلت أن أبقى خفيا، ولا أثير انتباه أحد في يومي الأول، نزلت الأدراج بخطوات ثقيلة وأنا أتوقع الأسوأ، وقفت أمامهما كمُتّهم، وعيناي مغروستان في الأرض، قال الأستاذ وهو يضع يده على كتفي ويديرني جهة الشاشة الكبيرة:

- انظر إلى الشاشة... ماذا ترى؟

لم أركز جيدا على ما هو مكتوب، قرأت بعض الأسماء وأمامها عناوين بعض الكتب، فلم أفهم شيئا.

قالت الأستاذة وهي تنظر إلى التلاميذ وكأن كلامها موجه لهم وليس لي:

- إنه أسبوعك الأول في المعسكر، لكنك تمكنت من قراءة كتب كثيرة، أكثر من أي زميل لك، والجميل في الأمر، أنك لم تبق في منطقة راحتك وتقرأ الكتب التي تحب فقط، بل قرأت في كل المجالات المعرفية وذلك هو المطلوب.

أضاف الأستاذ رونالد:

- صفقوا لزميلكم.

تعالى التصفيق في القاعة، فدفعني بلطف لكي أعود إلى مقعدي، وهو يهمس لي:

- لا تغادر المدرج بعد انتهاء الحصة، أريد التحدث إليك.

أضافت الأستاذة:

- حاول أن تجلس في الصف الأمامي في الحصة المقبلة.

أنساني التعامل اللطيف للأستاذ والأستاذة، تجهم الحراس، وأسلحتهم المصوبة نحونا باستمرار، وكأننا أعداء خطرون، انطلق الدرس

الذي كان مجرد نقاش حول كتب الفيزياء التي سبق وقمنا بقراءتها، كل حصة ستخصص لمناقشة مجال معرفي محدد حسب ما وضح لنا الأستاذ رونالد.

فوجئت بطريقة التدريس، إنها مختلفة عن الطريقة التي أعرفها، نناقش هنا فقط ما نقوم بقراءته من كتب في المكتبة، مع أساتذة يعرفون كل شيء، تقاسموا معنا الجدول الزمني على الشاشة، الفترة الصباحية لمناقشة الكتب، ثم ننتقل بعد ذلك إلى الجانب التطبيقي بالمختبرات التي سبق لنا زيارتها، وفترة ما بعد الزوال خُصّصت لقراءة الكتب بالمكتبة والفترة المسائية للفسحة والرياضة.

بعد مغادرة الفتيان للمدرّج، تبعتهم الأستاذة ماريا، وبقيت وحدي مع الأستاذ رونالد، كان رجلا طويلا ونحيفا بعض الشيء، شعره كثيف وأبيض، وحاجباه الأشيبان والكثيفان ذكراني بحاجبي جدي المرحوم، تجاعيد وجهه عميقة، وأثر جرح واضح على جبينه، وعيناه لونهما بين الأخضر والأصفر، كلون عيون القطط، جلس إلى جانبي على المقعد الذي كان يشغله وديع وسألني:

- هل ألفت المعسكر؟
- نعم.
- وهل أعجبك برنامجنا؟
- جِدًّا.
- هل تعرف لماذا اخترناك؟

أحسست، وكأن قنبلة انفجرت في وجهي، فحدقت في وجهه غير مصدق، "يا إلهي الرحيم ما معنى هذا؟" تذكرت الشبح والمخلوق الفضائي

ونظرات السائق، وكلام الحارس بالمركبة، ونظرات المُرافق، الذي أطلعنا على مَرافق المعسكر، والآن الأستاذ رونالد، لكن لماذا أنا بالضبط؟

أظنه قرأ أفكاري، لما قال لي، وهو يضغط على كتفي مشجعا:

- سأكشف لك السر لتطمئن، أنا هنا لست أستاذا فقط، ولكنني رئيس الكوكب، ورئيس المعسكر أيضا، وأي تطور في الكوكب، يبدأ من هنا، كنت قد وضعت برنامجا لتطوير كوكبنا وتطعيمه بمخلوقات من كوكب آخر، واقترحت استقدامهم من كوكب الأرض، ومن نقطة محددة سبق أن قمنا بغزوها في الماضي البعيد، من أجل الماس والإكسير، أردنا قائدا لهؤلاء الذين سنستقدمهم لنتقاسم معهم كوكبنا، لكن السلطة العليا تظل لنا، ولن يتساووْا معنا في كل الحقوق، فنحن من نأمر وهم يطيعون، وقد اتفقت مع فريقي على اختيار أذكى شخص في تلك النقطة، دون الاهتمام بجنسه، ليكون القائد.

سألته مندهشا:

- وكيف استطعتم الوصول إلى الشخص المنشود.

بدل الإجابة عن سؤالي، ضغط على ساعته، ووجهها إلى الجدار المقابل، فانبعثت منها أشعة على هيئة مخروط ضوئي، انعكست دائرة ضوء على الجدار، وبدأت المشاهد والصور تتوالى، ما رأيته لا يصدقه العقل، مشهد لغبار رمادي يسبح في الجو، ظهرت علامة خضراء في مكان وسط الغبار، اقتربت الكاميرا فتضاعفت الصورة آلاف المرات، وتحولت ذرة الغبار التي أشّرَتْ عليها العلامة الخضراء، إلى ما يشبه صخرة رمادية، تتخللها تشققات سوداء، أوقف المشهد والتفت إلي:

- هذا جزء صغير من قشرة شعر طارت في الجو مع الغبار، بعدما قمنا بفرزها عن تلك التي تنتمي لأشخاص أقل ذكاء، وهي تحتوي على الحمض النووي الخاص بصاحبها، وقد سبق وطورنا طريقة تمكننا من معرفة كل شيء عنه، معدل ذكائه، وهل هو خال من الأمراض، أم لا؟

توالت الصور على الشاشة، فظهرت خطوط حمراء فوق صورة مدينة ملتقطة بالأقمار الاصطناعية، ثم فجأة أشّرت العلامة الخضراء على مكان محدد بالمدينة، وبدأت الصورة تقترب وتقترب، كادت أنفاسي تتوقف وأنا أرى صورة نافذة معروفة، ثم سريرا.... لابد أنني أحلم، فركت عيني وحدقت من جديد في الشاشة، رأيتني نائما في فراشي، وذبابة آلية في حجم الإبهام، أصغر بكثير من تلك التي تسللت إلى بيتنا والتقطت صورا لنا، اقْترَبَت من وجهي، وبخّت محلولاً أبيض في فتحة أنفي، ارتفعْت عن سريري، وظللت معلقا في الفراغ، وأنا في وضعية التمدد، والذبابة تطير حولي، وتلتقط الصور، أوقف تشغيل الفيديو والتفت إليّ، فوجدني مشدوها، ونظرتي ملتصقة بالصورة الجامدة، انتبهت لنظرته التي تختبر رد فعلي، فسألته دون تفكير:

- كيف استطعتم فعل هذا؟

- أظنك متفاجئ، كان لنا شك بسيط، وهو شكلك الخارجي وطولك، قشرة شعرك لم تمكنا من هذه المعلومة، لأن الوسامة ضرورية، والقائد عليه أن يكون وسيما وطويل القامة، فأرسلنا الذبابة الآلية لأخذ صورك من كل الجوانب، ولتستطيع القيام بذلك، ضخّت محلولا في أنفك، جعَل جسمك يطفو في فضاء الغرفة، وأفقدك الوعي في الوقت نفسه.

فاجأتني كلمة وسيم، لأنني لم أعتبر نفسي يوما وسيما، إلا بعدما اقتحم الشبح والمخلوق الفضائي حياتي، وقبل ذلك كانت جدتي تشبهني بجدي الذي كانت تعتبره من أوسم الرجال في شبابه، وعرفت متأخرا بأنه كان فعلا كذلك.

شغّل الأستاذ رونالد مقطع الفيديو من جديد، فظهر الشبح عدة مرات، وظهر المخلوق الفضائي، فاستعدت لحظات الرعب التي عشتها في تلك الفترة، فاقشعر بدني.

رمقني بطرف عينه، ربما لأنه رأى الخوف المرسوم على وجهي كسرب من الغربان، فسألني:

- هل أفزعناك؟ وهل أسأنا اختيار من يوصل إليك رسالتنا؟
- طبعا، لم تفزعوني فقط، وإنما دمّرتم حياتي.

ابتسم ابتسامة غامضة وأضاف:

- راقبناك، فاكتشفنا بأنك تحب أفلام الرعب والأشباح والأبطال الخارقين، كما تحب عالم الروبوتات، وقد سبق لك أن حاولت صنع روبوت صغير لما كنت طفلا، ونجحت في ذلك، وهذا دليل على عبقريتك وذكائك، فاخترنا أن نصنع شبحا بالذكاء الاصطناعي وجعلناه يظهر لك عدة مرات، ويوصل لك الرسالة، ويخبرك بأنك المختار، وأيضا صنعنا صورة طبق الأصل لنا لما نكون في كوكب الأرض، بزي رجال الفضاء، من أجل التواصل معك.

أطفأ النور المسلط من ساعته الذكية التي قامت بوظيفة المسلاط الضوئي، ونظر إليّ بتمعن:

- أظن بأنك فهمت الآن الدور المنوط بك، لكننا لن نضغط عليك أو نرهقك، ستتعلم كباقي الفتيان، وسيبرز معدنك تلقائيا، وأنا متأكد بأنك ستلمع كالماس، أتمنى ألا تخيّب ظني فيك.

قام وتوجه إلى الباب، وقبل أن يخرج، التفت ناحيتي وأضاف:

- هناك من لا يوافقنا الرأي فيما يتعلق بك، أوصيك أن تأخذ حذرك من الأستاذ شوفيك.

في تلك الليلة، لما لذت بسريري، وعم الهدوء، هزّني الشوق إلى أهلي، وتمنيت من كل قلبي لو كانوا معي لأخبرهم بكل المستجدات، أخرجت ألبوم الصور الصغير لأستمد منه بعض الدفء، وبعض العزاء، ألبوم يجمع صور عائلتي ويحتضنهم بين دفتيه ككفين حنونين، قدمته لي أمي قبل أن نفترق وضمتني وهي تقول:

- نحن معك دائما بقلوبنا، وليس في الصور فقط.

ريان يركب أرجوحة، وضحكته المضيئة أكاد أسمعها ترن في قلبي، أمي بثوب الزفاف الأبيض وأبي بجانبها فخور بجمالها الرقيق، لأنه ظفر بأجمل فتاة في كلية الحقوق كما كنت أسمعه يقول لما يكون مزاجه رائقا، وجدتي جالسه وأنا بجانبها في سن السادسة، وأبتسم ابتسامة غابت عنها سن أمامية، لكن الصورة الأغلى والأعز، صورة بالأبيض والأسود لشاب وسيم جدا، وطويل، وله جسم رياضي، وسوالفه طويلة، مع عينين سوداوين، ونظرة واثقة، وحاجبين كثيفين، تمتد بينهما تقطيبة تمنح وجهه صلابة وقوة، تأملت الصورة، ومررت أصابعي بحنان على الوجه الحبيب، وحسرة في قلبي توجعني، رددت بيني وبين نفسي:

- أين أنت يا حبيب قلبي؟ لو كنت معي لاستطعت بحكمتك أن تمدني بالقوة والعزم، أعتذر منك يا جدي الحبيب، فخر لي أن أكون شبيهك، وأن أكون وسيما مثلك، وأتمنى أن يمدني الله بالقوة لأكون شجاعا مثلك، وأكون حكيما وصبورا ومحبا وذكيا ونبيلا مثلك، وأرجو أن تقبل اعتذاري الذي فات أوانه، أنا آسف...أنا فعلا آسف يا جدي الحبيب، عن تلك الفترة المشؤومة والمظلمة من حياتي لما أهملتك، وتصرفت كجبان شرير، وأنا حزين لأنك مت بسبب المرض، والبرد، والجوع، مهانا في مخيم موحل، دون أن تجد دواء يخفّف عنك الأوجاع، أو سريرا دافئا يحتويك، أو طعاما كافيا يقويك، ودُفنت في أرض غريبة، وآسف لأننا تخلينا عن جدتي وحيدة في الصحراء لننجو بأنفسنا.

تنهدت بحرقة، وقبلت صورته، وأغلقت الألبوم، ووضعته على قلبي، ثم أعدته إلى مكانه بين أغراضي.

الفصل التاسع

ما هو اليوم العظيم بالنسبة لكم؟ إنه حسب فهمي، اليوم الذي تحدث فيه العديد من الأحداث السعيدة، والمفاجآت الحلوة دفعة واحدة، وعلى حين غفلة، كهدية لم تكن تنتظرها، أو كسرب من الفراشات يحيط بك ويحملك ويطير بك إلى أرض الأحلام، لقد عشت لحظات هذا اليوم منذ يومين فقط، دخلت إلى المكتبة فرأيت ما لم أكن أتوقعه، هل هي فعلا موجودة هنا في المعسكر؟ كانت جالسة تقرأ بجدية كاملة، في القارئة الإلكترونية، مستعملة الطريقة العادية، وشعرها الطويل والحريري، منسدل على كتفيها، كما عهدته قبل النزوح، والإضاءة القوية تكشف عن رسمة جانبية لوجهها، فتبدي تناسق ملامحه وطول أهدابها، رفرف قلبي داخل صدري بقوة، اقتربت منها وقلت بسعادة:

- غيثة، أنت موجودة هنا.

التفتت ناحيتي، ففوجئت بوجودي.

- آدم، صديقي العزيز، ظننت بأنني وحيدة في هذا المعسكر البارد.

نزلت دموعها، لكنها كانت سعيدة، لم أرها منذ وجودنا في المركبة، كانت نحيفة وهشة، ولم يستطع زي المعسكر الرمادي أن يخفي نحافتها، لكن جمالها ظل ثابتا، أنا أيضا ذابت عضلاتي واختفت وأصبحت فتى نحيفا أثناء النزوح، لكن لحسن الحظ توجد هنا الصالة الرياضية، واظبت على التمرّن كل يوم تقريبا، فاستعدتها في فترة وجيزة.

رن الجرس معلناً عن وقت الغذاء:

- تعالي لنتناول طعام الغذاء معا، ونتحدث.

توجهنا إلى مطعم المعسكر الكبير، وأنا أحاول جاهدا أن أخفي فرحتي، وقفنا في الصف، وانتظرنا دورنا، أخذنا طعامنا، واتجهنا إلى طاولة في عمق القاعة، في زاوية قرب الجدار، أشعرني الجلوس قبالتها بالثقة وبالقوة وبالسعادة، لكنها كانت عكس ذلك، حزينة ومنكسرة، أحسست بالحيرة، ماذا سأقول لها؟ خفت أن أثير مواجعها، إن سألتها عن شيء:

- أنا سعيد بوجودك في المعسكر.

حدقت في وجهي وكأنها تريد التأكد من صدق كلامي:

- أنا سعيدة أيضا بوجودك هنا، من حسن الصدف أنني قابلتك، هل ألفت هذا السجن؟

- أتعايش مع الأمر، لكن الإيجابي هنا، أنني جد منهمك، ومشغول من الصباح إلى المساء كما تعرفين، فلا وقت لي للتفكير السلبي.

- لا زلت لا أعرف، وصلت إلى هنا، منذ ثلاثة أيام فقط، لم أتحمل الأمر في البداية فانهرت.

قالتها وهي تخبئ نظرتها بين يديها المتشابكتين في حجرها.

قربت الكرسي منها وحدقت في عينيها:

- ماذا حدث لك؟

بدا أن سؤالي غبي، الأمر واضح، غيثة فتاة هشة ورقيقة كزهرة برية ضعيفة، ولن يتحمل من في مثل هشاشتها هبة ريح، فكيف ستتحمل كل الويلات التي مرت بها.

- أصبت بانهيارات عصبية متكررة، فأدخلوني المستشفى، عالجوني لمدة أسبوع، ثم أخذوني لمكان آخر من أجل الراحة، مكثت فيه شهرا كاملا، لذلك لم تلتقيني من قبل، لم أتحمل فراق أمي وأختي، لكن لحسن الحظ، أختي تركوها مع أمي، لأن عمرها ثلاثة عشر عاما، لو كان عمرها أقل من ذلك، لفصلوها عنها.

- ريان عزلوه عن أمي، لكننا سنجتمع بهم من جديد إن شاء الله.

ثم أضفت بحذر:

- إن قمنا بدعم بعضنا البعض.

أيدت غيثة كلامي بهزة من رأسها، ومدت يدها وشدت على يدي، وكأنها تريد أن تستمد مني بعض القوة، أحسست بيدها رقيقة وناعمة في يدي كوريقات الورد الجاهزة للتقطير وصنع العطر، قد أكسر أصابعها إن ضغطت عليها بقوة، تسرب دفء أصابعها إلى روحي، فسرى فيها بعض النور، وأصبح كتفي جاهزا لتسند عليه رأسها الصغير المتعب، اعتبرت نفسي صديقها والمسؤول عن رعايتها وحمايتها، أنا أهلها هنا وهي أهلي.

في اليوم التالي، التقينا في المكان المخصص للفسحة تحت القبة الزجاجية، حدثتها عن الفصول الدراسية والمختبرات، متجنبا إثارة الحديث عن أحبتنا، لأنني رأيت بأن وجودنا معا كفيل بأن يخفف عنا وطأة الوجع الذي خلفه فراقهم.

أخرجَت علبة صغيرة من جيبها، ملفوفة في ورقة من أوراق مذكرتها ذات اللون الوردي الباهت، لأنه لا وجود في المعسكر لأوراق تغليف الهدايا.

وضعَت العلبة في حجري، وأنا جالس إلى جانبها على المقعد الطويل، وقالت وابتسامة مشرقة تعلو وجهها:

- هذه لك، عيد ميلاد سعيد.

كنت قد نسيت عيد ميلادي فعلا، لأنه لا أحد يحتفل هنا بعيد ميلاده.

فتحت العلبة فوجدت منديل رقبة أحمر، سبق أن رأيتها تلفه حول عنقها في المدرسة، رفرف قلبي من السعادة وأنا أقلّبه بين يدي:

- شكرا على الهدية الثمينة.

رفعت المنديل إلى أنفي وشممته، كانت لا تزال عالقة به، بقايا عطر خفيف، ربما لم تستعمله منذ تواجدها في بيتهم.

لمّا عدت إلى غرفتي، وقبل أن أضع المنديل في درجي شممته من جديد.

رآني وديع، فاقترب مني وفي عينيه نظرة ماكرة:

- منديل أحمر؟

وضعته بسرعة في الدرج وأغلقته، فضحك وأكمل كلامه:

- هل يوجد في معسكرنا من يهدي منديلا أحمر؟
- هدية من صديقة قديمة التقيتها البارحة هنا.
- يا لك من محظوظ.

قالها ضاحكا وقفز إلى سريره، دون أن يستعمل السلم الصغير.

لمّا يرن جرس الاستيقاظ من النوم على الساعة السادسة صباحا، نقوم من أسرتنا بلا تردد، وفي قفزة واحدة نكون في الحمامات، ثم نرتدي البذلة الرمادية، ونتناول فطورنا الذي يخرج من الجدار، وجبة الغذاء ووجبة العشاء نتناولهما في مطعم المعسكر.

في البداية لم أستسغ الطعام المقدم لنا في المطعم، كنت أقول لأصدقائي كلما جلسنا لتناول طعام الغذاء وإحساس بالقرف يعصر وجهي كإسفنجة مضغوطة:

- يا إلهي، من يعد هذا الطعام؟ طعام الكلاب أفضل منه.

أصبحت أحن باستمرار لطعام أمي اللذيذ، وأتذكر كيف كنت أرفض تناوله، لأنني كنت أكره الخضر التي كانت أساس الوجبات التي تعدها لنا، لأنها تراها مفيدة لصحتنا، كسكس بالخضر، مقلوبة بالخضر، حساء بالخضر، دجاج في الفرن بالخضر، مفتول بالخضر، أرز بالخضر، لحم بالخضر، ومعكرونة بالخضر، خضر متبلة بالبهارات والثوم، خضر مخللة، خضر مشوية، سلطة خضراء، في كثير من الأحيان كنت أحتج عليها:

- طعامنا كله خضر، خضر، خضر...متى تعدي لنا طعاما حقيقيا؟

لكن أمي كانت غير متسامحة في هذا الموضوع، وتعتبر الأكلات غير الصحية شيئا محرما في بيتنا الذي قد يدخله نمر أو زرافة أو وحيد القرن ويبدو لها أمر عادي ويمكنها تقبله، لكن الذي يبدو أنه غير عادي ومصيبة كبيرة، أن يدخل بيتنا الطاكوس أو الهمبرغر أو البيتزا، كان أبي متواطئا معي، لما كنت أرافقه لقضاء غرض ما، نعرج على مطعم للوجبات السريعة لأتناول ما أريد، لكنه كان من مناصري الطعام الصحي، ولا يتناول إلا ما تعده أمي من أطباق.

الآن فقط، بدا لي الوضع على حقيقته، وعرفت متأخرا كم كنت محظوظا بأم عظيمة مثلها تحبنا وتتعب نفسها في رعايتنا، إعداد ذلك الطعام كان يكلفها الوقوف لساعات طويلة في المطبخ، وتضيف له الكثير

من الحب مع التوابل والثوم وزيت الزيتون، تمنيت لو يعود الزمن إلى الوراء لأتناول الطعام الذي تعده، فينسيني طعام المعسكر المقرف، "كم اشتقت لك يا أمي".

في البداية بقيت جائعا لعدة أيام، أنا والعديد من الفتيان الذين لم يستسيغوا أيضا طعام المعسكر، كنت أتناول الفطور فقط، لأنه مكون من الخبز والجبن والمربى وعجة البيض في بعض الأحيان، لكن حليمات تذوقي اعتادت على طعامهم، وربما الجوع هو ما أرغمني على أكل قطعة اللحم المطاطية في وجبة الغذاء مع المعكرونة وقرص فيتامينات، وحساء مجهول الهوية في وجبة العشاء، بلا مذاق ولونه كلون الوحل، وكأس ياغورت.

المرحوم جدي كان يقول لأمي لما كنت أرفض تناول الطعام وأنا صغير:

- لا ترغمي طفلا على تناول الطعام، سيطلبه بنفسه لما يجوع، لأن الجوع أحسن طباخ.

لم تكن حياتنا تخلو من بعض لحظات الصفاء في المعسكر، والسقف الزجاجي الذي يغطي فضاء الفسحة تبدو من خلاله السماء خلابة لما تتوهج الكويكبات في الليل، فتتلون بأضواء ذات ألوان مبهجة، الأزرق الباهت والأصفر والوردي والأرجواني والأخضر والأحمر، كانوا يسمحون لنا بالخروج إلى ساحة الفسحة بعد تناول وجبة العشاء، لمدة ساعتين، ليلة السبت فقط، من أجل الاستمتاع بذلك المنظر البهيج، في باقي أيام الأسبوع، كان ممنوعا علينا الخروج ليلا، نخرج في الفترة المسائية

فقط، بعد انتهاء الفصول الدراسية من أجل التمارين الرياضية أو من أجل الترويح عن النفس في الساحة.

ما أثار اهتمامي هنا في هذا الكوكب المتطور، أننا نقوم باستعمال التكنولوجيا في المكتبة، وفي الصفوف الدراسية، والمختبرات فقط، أما ساحة الفسحة فهي لتصفية الذهن، وتبادل الحديث مع أقراننا، وقاعة الرياضة لممارسة التمارين الرياضية والليل للنوم، لا يوجد هاتف محمول هنا، فقط الحراس من يملكون ذلك وهو مدمج في ساعاتهم الذكية، والتواصل تنظمه المرأة الافتراضية، والأساتذة لهم ساعة ذكية ولوح إلكتروني صغير.

كنت أظن بأنني سأستغرق وقتا طويلا لأستطيع التأقلم مع حياة المعسكر، لكن ما حدث هو العكس، اندمجت بسرعة مع نظامه ومع نزلائه، تم الأمر بسهولة ويسر، وكأنني ولدت مدربا على ذلك، أصبح لي أيضا عدة أصدقاء، وهم وديع ويوسف ورياض وأيوب، أما بالنسبة للأساتذة فقد أحبوني منذ اليوم الأول، لأنهم وضعوا نصب أعينهم إعدادي لأكون القائد المستقبلي، وخاصة الأستاذ رونالد الذي خصني باهتمامه ورعايته، الأستاذ شوفيك فقط من لاحظت بأنه يكرهني، وسبق أن حذرني منه الأستاذ رونالد، كنت أرى كراهية سوداء في عينيه الذئبتين، حاولت إرضاءه خلال صفه أو في مختبر الأسلحة، لأنه هو مدربنا والمشرف علينا هناك، لكنني لم أنجح إلا في رفع منسوب كراهيته لي، فبدأت أحاول تجنب التحدث أو إبداء الرأي أثناء حصته الدراسية أو أثناء التدريب، واكتفيت بالمراقبة والتعلم الصامت.

لمّا انتهت السنة الدراسية، كنت تقريبا قد تمكنت من استيعاب معظم العلوم المدرّسة بالكوكب الرمادي، واخترت التخصص في مجال الروبوتات، ولحسن حظي، مدربي هو الأستاذ رونالد، ذات مرة كنا في المختبر، وبعد انصراف كل التلاميذ، قال لي وهو يضع لوحه الإلكتروني الصغير في جيب سترته:

- أراك لاحقا، لقد حققت تقدما ملحوظا فيما يتعلق بتطويرك للروبوت "إيربال".

منذ وصولي إلى المعسكر، استهواني علم الروبوتات، فبدأت أبحاثي حولها، وشاركت في الأعمال التطبيقية، وبدأت العمل على تطوير روبوت عادي، لأحوله إلى روبوت قادر على الطيران، وسميته "إيربال" وبدأت ذلك حتى قبل التخصص، انبهر الأستاذ رونالد بما كنت أنجزه، وقام بدعوة العلماء، والأساتذة الآخرين، لأقدم أمامهم عرضا حول سير عملي على الروبوت، وكل الأهداف التي أرمي إلى تحقيقها من وراء ذلك، لما انتهيت صفقوا لي طويلا، فأسعدني ذلك، لكن ما عكر سعادتي بهذه اللحظة عدم وجود والديّ معي ليفرحا بإنجازي.

قال رونالد للحاضرين والفخر مرسوم في عينيه:

- لقد اخترت الفتى المناسب، ليشاركني قيادة كوكبنا، سبق وأكدت لكم ذلك، وهناك من عارضني.

- إن نجحت ستكون قد طورت أول روبوت يستطيع الطيران في كوكبنا، ربما كنا سنطور واحدا، لكننا لم نفكر في فعل ذلك، والأفكار دائما هي المهمة، لأن كل إنجاز يبدأ بفكرة.

قالتها الأستاذة ماريا وهي تصافحني، وفي عينيها نظرة ودودة.

لما غادر الجميع القاعة، نظر إليّ الأستاذ رونالد بإمعان والسعادة بادية على وجهه:

- إنك عبقري يا بني، كنت على حق في اختياري لك، عقل فتِيّ يستوعب كل علومنا تقريبا في مدة زمنية قصيرة، والتي أمضينا نحن آلاف السنين في تطويرها، إنه أمر مذهل، ستصبح قريبا زميلا لنا، تدرّس الفتيان رغم صغر سنك!

انصرف الأستاذ رونالد أيضا، فظللت واقفا أمام الروبوت، أحدق فيه بسعادة، والإضاءة القوية تغمره، كدت أحدثه كصديق، وأخبره بأنني ممتن له، لأنه شحذ أفكاري، وأخرج مواهبي إلى النور، وجعلني فخورا بنفسي، وضعت يدي في يده الفولاذية الضخمة ذات المفاصل التي تطقطق لما يحركها، وكأنني أريد مصافحته، لكن ما حدث، أنه ضغط على يدي بيده الباردة برقة وقال لي:

- أنا أيضا فخور بك، وأعتبرك صديقي.

أجفلت وتراجعت للخلف.

مد يده وربت على كتفي:

- لا تخف، أنت من فعل هذا أيها العبقري، لقد ضمّنتني دون أن تنتبه، الكثير من العواطف والمشاعر التي تتمتع بها، وهذا ما يميزك عن هؤلاء العجائز، إنهم لا يملكون ما هو روحي، لا يختلفون في شيء عن الروبوتات التي يصنعونها، إنهم بلا مشاعر وقساة، لم أرد أن أظهر ما أتمتع به أمام أساتذتك، ربما لا يوافقون، ويأمرونك لتحولني إلى آلة باردة، وسيحزنني ذلك، أشكرك لأنك جعلتني أحس بشعور جميل.

كنت في حاجة لبعض الوقت لاستعادة هدوئي، "هل أحلم؟" قرصت ذراعي وحدقت من جديد في الروبوت الناطق.

- إنك مستيقظ، وما تراه حقيقة، وليس حلما.

كنت مشدوها، ففرّت مني كل العبارات ولم أجد ما أقوله، لأن ما سمعته غير معقول وغير منطقي.

- أرجو أن تضع لي اللمسات الأخيرة وتمكنني من الطيران، لأتجول في الكوكب، مللت من المكوث في هذا المختبر، بجانب هذه الروبوتات الخرساء والحمقاء.

لم أخبر أصدقائي، ولا حتى غيثة التي التقيتها ذلك المساء في الساحة، عن الروبوت الناطق، يجب أن أترك الأمر سرّا في الوقت الحالي.

لما نمت في تلك الليلة، رأيت في الحلم بأنني أتلوى وأعض الوسادة وأصرخ من الألم، وأنا ممدد على بطني فوق السرير، وكأن هناك من يفتح ما بين كتفي بسكين وبدون بنج، تمنيت الموت لأستريح من هذا العذاب، تحسست موضع الألم فوجدت ما يشبه عظما ناتئا في أعلى عمودي الفقري بين الكتفين، سمعت صراخ الفتيان، وأصوات طلبهم للنجدة، أتى حارس مسرعا، وما إن رأى ما يحدث لي، حتى اتصل بزملائه، فأحضروا محفة في الحال، وأخذوني إلى المستشفى، فحضر العديد من الأطباء، ووضعوني على سرير، ووجهي إلى الأسفل، ثم قصوا ثيابي، وحقنوني بحقنة، اقترب رونالد من أذني، وقال لي: "إنها لتخفيف الألم، إنك في حالة مخاض"، كانت مرآة كبيرة مثبتة في الجدار المقابل، نظرت إليها، فرأيت ما صدمني، رأيت أجنحة تنمو لي بسرعة فائقة، فجأة تبخر الألم، وأحسست بخفة عجيبة، يا له من إحساس رائع! أصبحت كالريشة،

فجلست على حافة السرير، ورأيت الفرح في عيون الأطباء، كانوا يبتسمون لي ابتسامة واسعة، وقفت وجناحي الطويلان يمتد ريشهما خلفي كذيل ثوب طويل، صفقوا طويلا وهم يهزون رؤوسهم استحسانا، لكن الأستاذ شوفيك كان غاضبا وعابسا، وقال مخاطبا الأستاذ رونالد:

- هذا من سيستولي على كوكبنا، وأنتم تساعدونه على تحقيق ذلك.

سمعوه، فأداروا رؤوسهم وحدقوا في وجهه، وفي عيونهم نظرة ملتهبة، تكاد تحرقه، فطأطأ رأسه، وسكت.

خاطبني رونالد، وهو يبتسم:

- أرأيت ما يفعله التعلّم الجاد وقراءة الكتب؟ إنهما يمنحان للفرد أجنحة تمكنه من الطيران إلى حيث يريد.

بقدر سعادتي بامتلاكي جناحين، أحسست ببعض الخوف، وأنا أراني قد أصبحت كطائر خرافي، ينقصني المنقار فقط، لكنني حمدت الله أن الريش نبت في الجناحين فقط، كنت أتضايق من البثور على وجهي، فكيف إذا نبت الريش مكان لحيتي، ابتسمت للفكرة، ثم، ركزت بصري على الموجودين أمامي وهم يتناقشون، قالت الأستاذة ماريا:

- لا أنصح بذلك، علينا أن نكون حذرين في البداية.

لكنهم في النهاية اتفقوا على أن أطير تحت القبة الزجاجية.

رافقني الأطباء والأساتذة إلى الساحة التي كانت فارغة، وتباشير الصباح الأولى الخافتة تغزو السقف الزجاجي.

تقدم مني رونالد ووضع يده على كتفي مشجعا:

- حاول أن تُمرّن جناحيك الجديدين.

لما ضربت الهواء بجناحيّ، أحسست وكأن طاقة قوية تدفعني إلى الأعلى، فارتفعت كصاروخ، واصطدمت بالسقف الزجاجي للقبة فانكسر وتحول إلى شظايا، حلقت في سماء الكوكب، وأنا أفكر، إلى أين ستوصلني هذه الأجنحة؟

استفقت على رنين منبه المعسكر، فابتسمت وغادرت فراشي سعيدا ومنتعشا بسبب الحلم الجميل.

التقيت غيثة في مساء ذلك اليوم، في ساحة الفسحة المكتظة بالفتيان والفتيات الذين يقصدونها للترويح عن أنفسهم، لم نجلس على أحد المقاعد الطويلة المزروعة على جانبها الغربي، بعيدا عن عيون الحراس، بل فضلنا أن نظل واقفين كشجيرتين متجاورتين تكاد أغصانهما تتشابك، بادرتني بقولها وهي تحدق في وجهي:

- تبدو سعيدا، ما الذي حدث؟

فعلا، كنت سعيدا بسبب الحلم وبالروبوت الناطق، سبق وقررت عدم إخبار أي أحد بسر الروبوت، لكنني لم أصمد أمام نظرات غيثة التي تحاصرني:

- لن تصدقي، ما سأخبرك به، لكنه سر أريده أن يبقى بيننا.
- طبعا.

عدلت وقفتها، وابتسامة تعلو وجهها، مشجعة لي على التعجيل بإفشاء السر.

- رجلي الآلي الذي كنت أطوره لأجعله يطير، يتكلم أيضا، وله مشاعر.

ظهرت الدهشة في عينيها، ورمقتني بنظرة حاولت من خلالها سبر أغواري، لترى إن كنت صادقا أم لا؟

- لكن كيف؟

- أظنني أضفت له شيئا من مشاعري وعواطفي دون قصد مني.

قصصْت عليها، كل ما بدر منه، وحديثه إليّ وكأنني صديقه، كانت متعجبة ومنفعلة وهي تسألني:

- متى أستطيع رؤيته؟

أجبتها وأنا أتابع حركة يدها التي رفعتها لتعيد بأناملها شعرها للخلف، بعدما تهدل على جانب وجهها:

- لا يمكنك رؤيته حاليا، لأنني سأحتفظ بالأمر سرا، ربما لا يقبل ذلك أساتذتي فأتعرض للعقاب أو يقومون بتدميره، اتفاقي معهم، أن أجعله قادرا على الطيران فقط، وليس التحدث والتمتع بالذكاء العاطفي.

وافقت على ما قلته، بحركة من رأسها، وإن بدت أنها مصابة بخيبة أمل كبيرة، لكنها حدقت في وجهي، والسعادة مرتسمة في عينيها:

- أظن بأنه يوجد بيننا فائز، هنيئا لك، كنت أظن بأننا هنا في سجن، لكن يبدو أن الأمر إيجابي من بعض الجوانب، أنا سعيدة بما قمت به أيها الذكي.

قالت ذلك وضربتني بقبضتها الرقيقة على كتفي.

كنت سأطلب منها أن نجلس على أحد المقاعد، لأنني لاحظت بأن الوقوف أتعبها، لما أضافت قائلة:

- سأنصحك نصيحة أرجو أن تعمل بها، لا تبالغ في الظهور بمظهر العبقري، فتحدث جلبة حولك، الجميع يعرف بأن الأستاذ شوفيك

يكرهك، وأنا أيضا لاحظت ذلك، قد يؤذيك هو أو غيره من العجائز، وسيعتبرون الأمر شخصيا، وأنك تتحداهم وتريد التفوق عليهم.

لمع خاتمها الذهبي الذي يحيط بسبابتها كشعاع دافئ لما رفعته أمام وجهي محذرة، نظرت إلى وجهها الودود، فبدت كصوفية صغيرة ترشد مريدها إلى طريق النور.

في تلك اللحظة رن الجرس معلنا عن موعد تناول وجبة العشاء.

بعد يومين كنت أتمرن في صالة الرياضة، لما انقض علي حارسان وأسقطاني أرضا، وقيّداني، وقاما باقتيادي عبر ممرات لم أدخلها من قبل، من الجيّد أنني تمالكت نفسي، ولم أقاومهما، لم أعرف الذنب الذي ارتكبته، طريقة اقتيادي أنبأتني بأن الأمر خطير جدا، لو استدعتني الإدارة لأخبروني بلطف، ولرافقني أحد الحراس، لكن مهاجمتي واقتيادي كسجين، أدخلا الرعب إلى قلبي، وصلنا إلى ممر ضيق، فتح أحدهما باب غرفة بدت أنها ضيقة، وبيضاء ومبطنة من الداخل، وعارية من الأثاث، دفعاني داخلها، وأغلقا الباب، فعم الظلام. لم أسمع شيئا، ربما بابها عازل للصوت، حتى خطوات الحارسين المبتعدين لم أسمعها، بعد ساعة فُتح الباب ودخل أحدهم، أضيء النور تلقائيا، رفعت بصري لأرى من الزائر، لأنني كنت جالسا في زاوية الغرفة ورأسي على ركبتيّ، فوجئت بوجود الأستاذ شوفيك، بقامته القصيرة ورأسه الكبير وشعره المشعث، ووجهه السمين، ولغده الضخم، كان واقفا أمامي وهو يصوّب إليّ نظرة نارية، ركلني في جنبي ركلة جعلتني أتكوم على نفسي وأنا أصرخ، عاجلني بركلة أخرى وهو يأمرني:

- قِفْ، أيها الحثالة.

وقفت بصعوبة وأنا منحن، ويدي على بطني بسبب الألم، باغتني بلكمة على وجهي، فنفر الدم من أنفي، فمسحته بطرف كمي، تراجعت، فاقترب مني وهو يقول غاضبا ورذاذ بصاقه يتطاير على وجهي:

- تريد أن تكون قائدا كما أقنعك رونالد، ولتثبت له أنك قادر على القيام بتلك المهمة، تحاول أن تبدو ذكيا، أعرف بأن رونالد يشجعك لتتمادى فيما تقوم به، لأنه يعتبرك حيوانه المدلل، تحاول أن تنافسنا؟ هل تفكر في التفوق علينا؟ لقد بدأت ذلك بتطوير رجلك الآلي التافه، وربما تخطط لاختراع أمور أخرى، ولم لا، سلاح تقضي علينا به، وتستولي على كوكبنا، هل تظن بأنك قادر على تحقيق ذلك؟ حتى وإن ساعدك رونالد الغبي، هل تظن بأنني سأسمح بتسليم كوكبنا لحثالة متخلفة قادمة من قطعة بائسة من الأرض، وُجدت لتوفير الإكسير؟ إنك وقح وحقير وتافه، لذلك سأحرص على كسرك، وتحطيمك، وجعلك عبرة لكل من يحاول تخطي حدوده، إنكم هنا جميعا، كل من أحضرنا من مدينتك الغبية، من أجلنا، ومن أجل خدمتنا، وليس من أجل منافستنا، وإن استمررت في التذاكي سأقتلك، ولن يحميك رونالد طويلا، ولن تعرف أين سيباغتك الموت، قد تواجهه في سريرك أو في أحد الممرات، أو في ساحة الفسحة، أو في المختبر، أو في نظارات القارئة الإلكترونية، أو في حسائك، أو حتى في المرحاض، طرق كثيرة أستطيع أن أرسلك من خلالها إلى الموت دون أن يعرف رونالد أو غيره، وما أسهل ذلك، ووقتها ستعرف من الذكي، لكن سيكون قد فات الأوان.

لم أعقب على كلامه لما توقف، وتذكرت نصيحة غيثة، إظهار ذكائي هو السبب، كنت خائفا ومرعوبا، قد يأمر أحد الحراس بقتلي حالا، لأنني

لمحت ظِلّ حارسين أمام الباب لما انفتح، أو يخرج سلاحه فيرديني، تمنيت أن ينصرف بسرعة، عاجلني بلكمة أخرى أسقطتني أرضا، فتكوّمت على نفسي، وأحسست بطعم الدم المعدني يملأ فمي، فلم أجرؤ على بصقه قبل انصرافه، استدار وغادر وهو ينفض يده، فعم حولي الظلام من جديد، وقد غزا الألم وجهي وأسناني وجسدي كله.

دخل حارس في المساء، وقدّم لي قنينة ماء، وقرص طعام وانصرف، كنت عطشا وجسدي يؤلمني من أثر الركل واللكم، شربت الماء، وابتلعت قرص الطعام، ونمت على أرضية الغرفة العارية والصلبة نوما متقطعا تتخلله الكوابيس.

بقيت في سجني الانفرادي لمدة يومين، وفي صباح اليوم الثالث انفتح الباب، فتوقعت عودة شوفيك، لكنه كان الأستاذ رونالد، فوجئت بوجوده، ساعدني على النهوض، وأثناء خروجنا قال لي وهو يربت على كتفي:

- لن يتعرض لك أي أحد بعد الآن، قمنا بنقل ذلك المتطرف شوفيك إلى معسكر آخر، أنا الرئيس هنا وليس هو، لو لم أنتبه لغيابك لكان أعدمك، كان يجس النبض بسجنك، ليرى إن كنت سأنتبه لغيابك أم لا؟ لو لم أفعل لنفذ تهديده، لكنني البارحة بحثت عنك في الصف فلم أجدك، فسألت زملاءك فأخبروني بأنهم رأوا حارسين يصطحبانك لأحد الممرات، فعرفت السر، سبق لشوفيك أن حاول ثنيي عن مشروعي، وخاصة اختيار قائد من بني جنسك ليشاركني الحكم، ما أقوم به فيه مصلحة للكوكب، لكن تطرفه يعميه عن رؤية ذلك.

شكرته فقال لي:

- اذهب إلى سريرك لترتاح، ونلتقي غدا في المختبر.

استقبلني أصدقائي بالأحضان، وديع بكى كطفل وهو يعانقني، وقال من بين دموعه:

- ظننتهم أعدموك.

قال يوسف وهو ينتظر دوره ليهنئني بعودتي سالما:

- ماذا فعل ليعدموه، هل هدد أمنهم؟

أيوب ورياض كانا قد غادرا لحضور الصف، اندسست في سريري ونمت نوما عميقا، فرأيت في الحلم بأن الحراس قاموا بمهاجمتنا أنا وأصدقائي، وديع ويوسف ورياض وأيوب، وناصر أيضا كان معنا، واقتادونا لمدرج مستدير، كذلك الذي كانت تجري في ساحته المصارعة في عهد الرومان، وكانت أرضيته محاطة بسياج عال، يشبه قضبان السجن، يفصلها عن مقاعد المتفرجين الحجرية الذين كانوا قد التحقوا بأماكنهم، نظرت إليهم فارتعبت، وجوههم وجوه حيوانات وطيور وأسماك، لكنها مشوهة، وأجسادهم بشرية لكن مع ذيل طويل، وفي طرف الساحة تم ربط حيوان هائج، شكله بين الأسد والنسر، لكنه آلي، ومصنوع من الصفائح الفولاذية، وله مخالب لكنه بلا أجنحة، أعطونا سيوفا لنحارب بها الحيوان الذي يبدو من شكله وحجمه أنه سيقطعنا إلى مليون قطعة، وسينهش لحمنا بأنيابه في رمشة عين، وسيوفنا لن تستطيع حتى خدش جسمه المعدني، فبالأحرى القضاء عليه، جمعت رفاقي حولي واقترحت عليهم خطة، ووزعت عليهم الأدوار من أجل إتعاب الوحش، فلا يصل إلى أي أحد منا، بدأ ناصر بالمراوغة والقفز من مكان إلى آخر بخفة، ليشتت انتباهه عنا ويشغله بمطاردته، ولما تعب ناصر، صرخ وديع في الوحش،

فزمجر وطارده، وهكذا، كلما أصاب التعب أحدنا يصرخ من فيه الدور ليقوم الوحش بمطاردته، لكن فجأة وكأن السماء تدخلت لنجدتنا، نمت وسط الساحة، شجرة دم الأخوين متشابكة الأغصان، تراجع المتفرجون، وصدرت عنهم صرخة دهشة لرؤية الشجرة تنمو وترتفع وتتشابك أغصانها في ثوان معدودة، استمرت المعركة لكننا غيرنا الخطة، كل من أصابه التعب يصعد إلى الشجرة، تسلقها رياض بسرعة واندس بين أغصانها المتشابكة، واصلنا تشتيت انتباه الوحش ومراوغته، وكل من يقترب منه يتسلق الشجرة، بقيت الأخير، ظللت أراوغه، فازداد غضبه، ولما تعبت تسلقت الشجرة واندسست في فجوة بين أغصانها، دار الوحش حول جذعها وهو يزمجر، ثم ضربه بمخلبه المعدني ضربة قوية، فتفجر منه الدم، واندفع هادرا كالسيل، لم يكن لزجا وإنما سائلا كالماء، وبما أن الساحة كانت منخفضة عن الدرجات التي يشغلها المتفرجون، فقد بدأت تمتلئ بالدم وتحولت لما يشبه الحوض العملاق، ظل الحيوان يزمجر والدم يحاصره، فتجاوز قوائمه، فتصاعدت من جسمه شرارة كهربائية، ثم تعطل وتهاوى على الأرض كركام من الخردة، وغمره الدم، فر المتفرجون وهم يتدافعون وبعضهم سقط أثناء ذلك، ارتفع منسوب الدم ولما حاذانا، قفزنا من الشجرة، وسبحنا إلى الخارج ولم يعترضنا أحد، التفت وأنا أسبح فرأيت أعلى الشجرة قد أصبح كجزيرة صغيرة وسط المدرج الغارق في الدماء.

عدنا إلى عنبرنا منتصرين، وأخذنا حماما ساخنا، وتناولنا وجبة الغذاء، جاء أحد الحراس وطلب مني مرافقته، زحف خوف بارد على ظهري كأفعى سامة، لا بد أنهم يريدون معاقبتي، لأنني صاحب الخطة التي

مكنتنا من قتل الوحش، بمساعدة تلك المعجزة التي حدثت، رافقت الحارس وأنا متوجس، مررنا بممرات طويلة، ثم دخلنا إلى قاعة اجتماعات زجاجية ومضيئة، تتوسطها طاولة اجتماعات حولها عدد كبير من العجائز، ويترأس الاجتماع الأستاذ شوفيك، لم يأذن لي أحد بالجلوس، وحتى وإن تم ذلك فلا يوجد مقعد زائد في الغرفة، كل المقاعد مشغولة:

- أنت وأصدقاؤك، متهمون بتهم عظمى، وقد سبق وحكمنا عليكم بالإعدام الذي ينفذه في هذا المبنى ذلك الوحش الآلي حتى لا نلطخ أيدينا بدمائكم.

نظرت إلى الآخرين، فكانوا بدورهم ينظرون إلى قائدهم بنوع من التواطؤ، ويؤمنون على كلامه بهز رؤوسهم التي يعلوها شعر أخضر، ووجوههم وجوه حيوانات، إنهم نفس الجمهور الذي كان يتفرج علينا في المدرج، فجأة تحول شوفيك إلى رونالد وقال وهو يبتسم لي ابتسامة مشجعة:

- لما هزمت الوحش، لم تهزمه بذراعك القوية وعضلاتك، لكن بذكائك وأفكارك وبالعمل الجماعي المنظم مع فريقك.

نظرت إليه، وأنا أتعجل وصوله إلى النقطة التي سينطق فيها بالحكم، لكنه لم يفعل، بل اكتفى بالقول:

- إنك بطل وقائد.

وقف وبدأ بالتصفيق لي، فحذا حذوه كل من في القاعة، وقفوا وصفقوا لي طويلا، بعدما أصبحوا بوجوه بشرية عادية.

استفقت ووجدت وديع يصفق قرب وجهي لأستيقظ، بعدما عاد من الصف.

لم أحك لأصدقائي الحلم الذي رأيته، كنت لا أزال متعبا وفي حاجة لنوم ساعات إضافية.

في المساء، بعدما أخذنا عشاءنا وجلسنا إلى إحدى الطاولات في مطعم المعسكر، والحساء ذو اللون البني الذي يشبه لون الوحل يمنع عني أية رغبة في الأكل رغم إحساسي بالجوع، قال لي رياض بدون مقدمات:

- أعد لك يوسف مفاجأة، بمناسبة عوْدتك سالما.

توقعت أن تكون هدية، لكنني فكرت، " لا توجد هدايا في المعسكر".

بدت في أعينهم ابتسامة تدل على تواطئهم، طلب مني رياض أن أغمض عيني، فعلت ذلك ولما فتحتهما نظرت أمامي فلم أجد شيئا، فقلت ليوسف:

- أين هي المفاجأة؟

اكتفى بالإشارة إلى طبق حسائي دون أن يقول شيئا، نظرت إلى الحساء، فكان لونه قد تغير إلى اللون الأبيض، حساؤهم أيضا تحول لونه.

قلت متفاجئا:

- كيف حدث...؟

قال وديع:

- الأمر بسيط، استغل يوسف مهارته في الكيمياء، وطور مادة في مختبر الأدوية، وهربها، وجربناها على الحساء فأصبح لونه أبيض كالحليب بعدما وضع نقطة واحدة من السائل الذي اخترعه في طبقه

وحركه بالملعقة، أصبح الآن مستساغا، لأن لونه البني المقرف كان يسد النفس.

قال الجملة الأخيرة وجعد أنفه.

قالت غيثة وهي سعيدة بنجاتي أكثر من سعادتها بالاختراع الجديد:

- لو كانت لنا الإمكانيات لأعددنا لك حفلة حقيقية.

عانقت يوسف وأنا سعيد بالمفاجأة:

- هنيئا لك، إنه أمر مذهل، هل عرف الأساتذة بذلك.

- غدا سأطلع الأستاذة ماريا على اختراعي.

همست لي غيثة:

- أيوب أيضا أعد لك مفاجأة جميلة، ستعجبك:

ما إن أكملت جملتها حتى بدأ أيوب بالغناء:

أنا مشتاق لك يا أمي،

زوريني في أحلامي،

واسقني شربة ماء

من دفق نهر حنانك،

فأنا عطشان،

عطشان لحبك يا أمي.

صمتنا جميعنا ونحن نستمع لصوته الجميل والعذب وللكلمات التي نكأت جراحنا، كانت لحظة مقدسة ورهيبة، لم أكن أعرف بأن أيوب يملك كل هذه الموهبة، توقف من كانت طاولاتهم قربنا عن تناول طعامهم، واستفاق في قلبي كل الوجع الذي أحاول مداراته، مرت أمام عينيّ صور متلاحقة، وجه أمي وأبي وأخي وجدي وجدتي وبيتنا وحديقتنا

وشجرتا الليمون ومدينتي ببناياتها البيضاء وحدائقها، نزلت دموعي في صمت، اقترب أحد الحراس، فصمت أيوب ورفعنا أيدينا إلى أعيننا لنمسح دموعاً نزلت لتسقي زهور الذكريات التي لا تذبل أبدا.

عانقت أيوب، وقلت له:

- إنها مفاجأة لطيفة، صوتك يأسر القلب.

الفصل العاشر

كنت أتساءل باستمرار عن سر حفاظ العجائز على لياقتهم البدنية وقوتهم الجسدية، لكني لم أجد الجواب الشافي لسؤالي، وهذا الأمر سبب لي أرقا في بعض الليالي، وضعت فرضيات كثيرة، لكني لم أصل إلى نتيجة، فظل حب الاستطلاع والرغبة في معرفة السر يفترساني بلا رحمة.

لما ناقشت الموضوع مع أصدقائي ونحن نتناول العشاء منذ عدة أيام، قال لي أيوب مازحا:

- السر في حساء العشاء.
- ربما سكان هذا الكوكب خالدون.

قالها يوسف وهو يفتح غطاء كأس ياغورت:

- أو ربما اكتشفوا دواء يعطل الشيخوخة، من استطاع أن يعوض وجبات الطعام بقرص صغير، يستطيع توقيف الزمن داخل جسده.

هز رياض رأسه، موافقا غيثة، وأضاف:

- هذا هو التحليل المنطقي، لأن ما رأيناه منذ وصولنا إلى هذا الكوكب، من تطور كبير وخرافي في كل شيء، في العمران والتكنولوجيا والأسلحة، والغذاء، يؤكد بأنهم قادرون على اختراع دواء له هذا المفعول، قبضاتهم تبدو أقوى من قبضاتنا، إنه أمر عجيب وسحري وخارق.

نظر إليّ يوسف نظرة طويلة، وقال وهو يطرق حافة الطاولة برؤوس أصابعه، وابتسامة تعلو وجهه:

- لماذا لا تسأل الأستاذ رونالد، إنه الرئيس، وأنت المفضل لديه يا رأس البطيخة.

ضحكنا جميعا، وبدت لي فكرة جيدة، مركزي لدى الأستاذ رونالد يجعلني في موقع يمكّنني من سؤاله، وهو نفسه يشجعني على فعل ذلك، إنه يتحدث معي بأريحية ودون حواجز، وكأنني ندّ له، لكن لا أظن بأنني تبوأت عنده مكانة تخولني معرفة أسراره الخطيرة، إذن لا داعي للسؤال، لأنني في أفضل الظروف سأجاب بتوبيخ معتبر أنا في غنى عنه بعد الذي حدث لي مع الأستاذ شوفيك، قد يكون مزاجيّا، فينقلب ضدي في أية لحظة، فأجد نفسي مصابا بطلقة في الرأس، وفي أحسن الأحوال مسجونا في السجن الانفرادي.

لما انتهى الدرس وانصرف الطلاب في الغد، تعمدت التأخر متظاهرا بالنظر في اللوح الإلكتروني، حزمت أمري، وألقيت خلفي كل المحاذير، أردت أن أسأل الأستاذ رونالد عن الموضوع الذي يؤرقني، وليحدث ما يحدث، لكنني ترددت خوفا من رد فعل مفاجئ، لأنني خبِرتهم جيدا، يشبهون البرق الذي يضرب شجرة، فيضيئها، ثم يغير رأيه ويحرقها، لكن حب الاستطلاع نهشني بأسنانه الحادة، وتشجيع أصدقائي على طرح السؤال، حفزني على المضي قدما في الأمر، نزع الأستاذ رونالد وزرته البيضاء، وضغط على زر قرب الشاشة فانفتحت باب خزانة علقها داخلها، انتبه إلى وجودي، فقال لي:

- لم تنصرف بعد؟ هل هناك جديد بخصوص تقدم أبحاثك الخاصة بإيربال؟

قلت مترددا:

- بعد إذنك يا أستاذ، الأمر لا يتعلق بالرجل الآلي، بل بشيء آخر.

نظر إليّ مشجعا:

- أنا هنا لأجيب على أسئلتك يا بني، تفضل.

- شكرا أستاذي، فقط أردت أن أسأل، لماذا يوجد العجائز فقط في هذا الكوكب؟

فوجئت لما لم يوبخني على سؤالي كما كنت أتوقع، بل تنهد ونظر أمامه، وكأنه يبحث بين صفحات الماضي البعيد عن الإجابة:

- منذ مئات السنين، دارت حربا طاحنة بين جيشنا، وجيش الكوكب الأرجواني، فكان النصر لنا، لأننا فجرنا الكثير من صحونهم الطائرة، وقتلنا معظم جنودهم، وفرّ من ظلوا على قيد الحياة، لكنهم لم ينسوا الهزيمة التي ألحقناها بهم، فتسللوا إلى كوكبنا بعد ذلك بسنين طويلة، بعدما استعدوا لنا جيدا، وطوروا أسلحتهم، فلم يقوموا بمحاربتنا عن طريق المواجهة المباشرة، لأنهم استوعبوا الدرس، ولم يكن لهم أي استعداد للتضحية بجنودهم، فاستخدموا سلاحا متطورا جدا وغير مرئي، قاموا بتلويث هوائنا بمادة تصيب بالعقم، لم نكتشف ذلك إلا لما بدأنا نلاحظ عدم حمل أي سيدة، أجرينا التحاليل، فاكتشفنا عقم الجميع، رجالا ونساء، إنها مصيبة قاسية حلّت بنا، والمؤلم، أن لا حلّ لها، قمنا بالكثير من الأبحاث لعلنا نجد دواء شافيا لذلك، لكننا لم نفلح، عجزنا عن إيجاد حل ناجع للمشكل، وانقراضنا كان آت لا محالة، أرادوا إبادتنا تدريجيا وبطريقة ذكية، كل من يموت لا يتم تعويضه بجيل جديد، إلى أن يشيخ الجيل الأخير ويموت فننقرض، ووقتها قد يعود جيش الكوكب الأرجواني للاستيلاء على كوكبنا بسهولة ويسر، حاولنا إيجاد

طريقة تمنحنا الخلود لنحافظ على كوكبنا، لكننا لم نصل إلى حل، وصلنا إلى باب مسدود، لكن فجأة بدت نقطة ضوء في نهاية النفق، بحوثنا أوصلتنا إلى أن الإكسير الذي نبحث عنه موجود في كوكب الأرض، فتوجه بعض الجنود إلى هناك في طبق طائر، وأحضروا عينة، وقمنا بالتجربة على رجل عجوز منا، فأصبح قويا، واختفت كل أمراضه.

- لاحظت بأن الشكل الخارجي لا يتغير لسكانكم.

- إنه العيب الوحيد لهذا الإكسير، يدمر الشيخوخة من الداخل فقط، لكنه لا يؤثر على البشرة، فتظل مجعدة، وهذا حل أرضانا، لأن الداخل هو المهم، أما القشرة الخارجية فلا أهمية لها، عدنا إلى الأرض، واخترنا نقطة غنية، بها ماس كثير وبها كمية هائلة من الإكسير، وشعبها ضعيف ولا يستطيع مواجهتنا، كانت مدينتك، فأخذنا الكمية التي نريد من الإكسير، ومن الماس، وما بقي من الماس، وضعنا عليه حراسة صنعناها من موجات كهربائية عبّأناها في الصخور، غنيمتنا كانت كبيرة هذه المرة أيضا، لما غزوناكم أتينا بالماس، وأحضرنا الكمية الكافية لكل شعبنا من الإكسير.

ربما مصدر الإكسير، هو الأعشاب الطبية، قد أعود إلى هناك يوما، فأكون عارفا بالوصفة السحرية التي توقف الشيخوخة، فأقود اكتشافا مذهلا يمكن سكان الأرض من الخلود، أردت التأكد من صحة تخميني فسألته:

- هل تستخرجون الإكسير من الأعشاب الطبية؟

ضحك لسؤالي وأجاب:

- أعشاب طبية؟ قطعا لا، الإكسير أثمن من ذلك بكثير، أثمن حتى من الماس الذي في جبلكم، وهو سر من الأسرار التي لا يمكن أن نبوح بها، حبي لك جعلني أطلعك على جزء من الأسرار، لأنني أعتبرك فردا منا، ستعرف في يوم ما، لما تحظى بثقتنا الكاملة، ولما تشيخ سنمرر لك الإكسير، لأن من في ذكائك وفطنتك لن نفرط فيه ونتركه لأمراض الشيخوخة والفناء، في الماضي كنا نغزو مدينتكم من أجل الإكسير والماس فقط، لكن هذه المرة، ذهبنا من أجلك ومن أجل الآخرين، وضعت خطة لدمج الفتيان داخل شعبنا، لأنهم الفئة الأكثر قابلية للتعلم، والأزواج سينجبون لنا أطفالا جدد، مللنا من وجود العجائز وحدهم على هذا الكوكب، نريد أن نرى أطفالا وفتيانا وشبانا بيننا، ستظلون هنا معززين مكرمين ولكم كل الحقوق، لكن مبدأ الطاعة لن نتنازل عنه، وعقوبة الإعدام ستظل سارية المفعول في قوانيننا، وأظن بأننا لم نعد في حاجة لغزو مدينتكم من جديد، لأنكم ما دمتم معنا، سيزداد عددكم بسبب ولادة أفراد جدد، والإكسير أصبح بحوزتنا بطريقة دائمة، وهذا مهم لنا، لأنه سيمكننا من الحفاظ على جنسنا فلا ننقرض أبدا، إن اضطررنا إلى العودة إلى هناك، فسيكون فقط من أجل إحضار الماس.

لمْ أفهم قصده، لما قال بأن الإكسير أصبح في حوزتهم بطريقة دائمة، هل أحضروا الإكسير من الأرض، وطوروه ليستمر في التكاثر؟ أم غرسوه لينمو وتُجنى محاصيله؟ لكنه أكد بأنه ليس نباتا، لم أطمئن لأجوبة الأستاذ رونالد الغامضة حول الإكسير، بدأت منذ مدة أتعامل بحسن نية، وأميل لعدم إدانة هؤلاء القوم، وحاولت تغيير رأيي فيهم، لأنهم في كل الأحوال كانوا ولا يزالون مفيدين لنا، ومكّنوني أنا وباقي

الفتيان والفتيات الموجودين في المعسكر من علومهم، ويفعلون ذلك بجدية تامة، وربما يحبوننا، وشوفيك الذي كان مهددا لي تم التخلص منه، لكن كل ذلك تزعزع الآن، وأحسست بأننا ربما نخدم مصلحتهم وليس مصلحتنا، غاضني تبجحه بغزونا والاستيلاء على ماسنا، وأصبحت شبه متيقن بأنني ربما تسرعت في إصدار حكم إيجابي عليهم، لأنهم على ما يبدو مجرد استعماريين وغزاة متغطرسين، يخدمون مصالحهم فقط، ويعتبروننا جنسا من الدرجة الثانية، لقد انكشف الغطاء عن ذلك، أصيبوا بالملل من النظر إلى الوجوه المجعدة حولهم، فقاموا بإحضارنا من مدينتنا لنوفر لهم المراحل العمرية التي لا يتوفرون عليها، ونرفه عنهم كحيوانات السيرك.

انصرف الأستاذ رونالد فتبعته بخطوات ثقيلة، وأنا أفكر في كل ما يحدث لنا، مشاعري متضاربة ورأسي مشوش، أيجب عليّ أن أحب رونالد أم أكرهه؟ هل هو صديقي، أم عدوّي، أم لا هذا ولا ذاك؟

أصبت بالأرق، نتيجة الضيق الذي أحسست به بسبب ما قاله لي الأستاذ رونالد، تقلبت على سريري طويلا، وتنفس وديع المنتظم، يصلني فيفشي بنومه العميق، لو كان مستيقظا لتدلى من طرف سريره كخفاش حتى يصبح وجهه قبالة وجهي ليسألني، "لماذا لا زلت صاحيا؟" أردت التسلل إلى فضاء الفسحة لأستمد بعض التسلية من منظر الكويكبات السابحة في السماء بألوانها الزاهية، ونورها الخلاب الذي يتسرب من زجاج القبة كشلالات من الضوء الملون، لكنني ترددت، إن تم ضبطي سيكون عقابي عسيرا، لأن لنا الحق في الخروج إلى هناك، ليلة السبت فقط، أما خلال الأيام الأخرى، فممنوع علينا مغادرة عنابر النوم بعد

تناولنا وجبة العشاء، ماذا سيحدث إن خرجت؟ هل سأرتكب جريمة؟ أريد فقط التمدد على أحد المقاعد الطويلة تحت القبة الزجاجية العظيمة، وتأمل الكويكبات المنيرة التي تبهج القلب، أزحت الغطاء، ونزلت من السرير، فضّلت أن أخرج حافي القدمين، حتى لا يُسمع صوت خطواتي، سرت في الممرات، لم يكن هناك أي حارس، ربما كلهم نيام، لكن قبل وصولي إلى فضاء الفسحة، وأنا أجتاز ممرا طويلا، رأيت ضوءا يتسرب من باب زجاجي سميك، وهو نفس الباب الذي لم أتمكن يوما من معرفة ما خلفه، وظل سرا من الأسرار، لكن حب الاستطلاع الذي كانت تعتبره أمي من صفاتي السلبية وتنتقدني بسببه، دفعني للاقتراب منه، فانفتح في وجهي، لما دخلت، فوجئت بوجود سلالم تؤدي إلى قبو، قررت العودة إلى عنبر النوم، لأندس في سريري وكأن شيئا لم يحدث، لأن خروجي في هذا الوقت مخالفة كبيرة، فكيف سيكون وضعي إن تم ضبطي متلبسا بالتسلل إلى مكان محظور علينا دخوله؟ قد أُعدم، لكنني لم أستطع مقاومة الرغبة في معرفة ما يوجد في الأسفل.

سحبني حب الاستطلاع كيد قوية، نزلت السلم وأنا خائف، لما وصلت إلى منتصف الدرج، رأيت ما يشبه قاعة عمليات جراحية بمستشفى، ثم... سارعت إلى إغلاق فمي براحة يدي لأمنع نفسي من إطلاق صرخة، فتوقفت في حلقي، قلبي بدأ يدق بسرعة جنونية، وقشعريرة اجتاحت كل جسمي، بقيت مسمّرا في مكاني أشهد على الجريمة المروعة التي ينفذها طبيبان، صعدت الدرج بسرعة، قبل أن يكتشفوا وجودي هناك، فانفتح الباب وخرجت، تنفست بعمق، وجريت عائدا إلى سريري، لكن توجد كاميرات المراقبة المزروعة في كل شبر من المعسكر، إن كانوا قد

رصدوني من غرفة المراقبة، فنهايتي وشيكة، على كل حال، ستظهر الحقيقة في الصباح.

كنت أرتجف تحت الغطاء، وأنا أردد بيني وبين نفسي:

- يا إلهي، ما هذا الذي رأيت؟ يا للهول، يا للهول...

مرت ليلتي بيضاء من غير نوم، واضطررت إلى دخول المرحاض عدة مرات للتبول، زملائي يواصلون نومهم، وكأن لا سفك دماء، ولا جرائم ترتكب قريبا منهم، تفصلنا عنها بعض الأبواب فقط، وربما نحن الضحية التالية.

كنت متوجسا ومرعوبا ومترقبا بعد مغادرتي لسريري في الصباح: "هل كشفوا تسللي ورؤيتي لما لا يجب عليّ أن أراه؟" إن فعلوا ذلك، سيقتحمون العنبر في أية لحظة لاصطحابي إلى حيث النهاية المحتمة.

سألني رياض وهو يحدق في وجهي:

- ألم تنمْ، عيناك حمراوان، ووجهك شاحب، لماذا لا تتناول فطورك؟ إن كنت مريضا نطلب الطبيب.

أجبته وأنا مرتبك، وقلقي لا يهدأ:

- أنا بخير، فقط أصبت بالأرق.

كلما ظهر حارس، يدق قلبي، وأنتظر أن يتوجه نحوي، لكنني تأكدت من نجاتي، لما انطلقت مناقشة كتب الكيمياء في المدرج، ولاحظت تعامل الأستاذ العادي، ظل ذهني غائبا وأنا أستعيد ما رأيته في ذلك القبو، فلم أستطع متابعة الدرس أو التركيز مع المدرس.

اجتمعت بأصدقائي في فضاء الفسحة، بعيدا عن عيون الحراس، كانت غيثة غير موجودة، حمدت الله على ذلك، لا داعي لسماعها لمثل هذه الأخبار الفظيعة، قلت لهم دون مقدمات:

- هل تتذكرون الفتيان الذين لم يحضوْا بأي تعليم، والآخرين الذين لم يتجاوزوا المرحلة الأولى من التعليم الابتدائي؟

- نعم ومنهم صديقك اللطيف...

فرك وديع جبينه وكأنه يريد تذكر اسمه، فقلت له:

- ناصر... نعم صديقي وأخي ناصر.

- لقد تم عزلهم، ولم نعد نراهم، ربما نقلوهم إلى معسكر آخر، ليبدؤوا تعليمهم من الصفر.

لم ألتفت لتبرير أيوب، وسألتهم من جديد:

- هل تذكرون، لون البذلة التي ارتدوها قبل المغادرة؟

- اللون الأحمر على ما أظن.

نظرت إلى رياض، وأنا أحرك رأسي في انفعال وغضب:

- ليس الأحمر وإنما الأرجواني، لم يغادروا المعسكر، إنهم لا يزالون هنا، رأيت اثنين منهم البارحة ليلا.

فوجئوا، فاقتربوا مني وهم يستعجلونني بنظراتهم لأكمل كلامي.

لكن وديع سألني وكأنه تذكر بأن الخروج ممنوع ليلا:

- كيف خرجت؟ رأيتك بعينيّ وأنت تندس في فراشك وقت النوم.

- ذلك موضوع ثانوي الآن.

تأملت وجوه أصدقائي واحدا واحدا، استعدت المشهد الرهيب الذي لن أنساه أبدا، فأحنيت رأسي ثم ضغطت على صدغي وأنا أفكر، "هل أخبرهم بما رأيت؟" هل هو الخيار الصائب؟ حزمت أمري، إن لم أشاركهم السر، لن أستطيع إيجاد الحل لوحدي.

- اقتربوا.

قلتها بصوت خافت، ثم أضفت:

- ما سأخبركم به، خطير جدا، إن عرف العجائز بأننا نعرف هذا السر، سيقومون بإعدامنا.

بدا في أعينهم الخوف وهم يقتربون ويحدقون في وجهي متعجلين معرفة السر الخطير:

- رأيت أحد الفتيان يرتدي البذلة ذات اللون الأرجواني وهو مربوط إلى سرير المستشفى، وآخر عاريا وعليه غطاء معقم وهو ومربوط أيضا إلى سرير، ويعدم ببطء وهو تحت التخدير.

وضع وديع يده على صدره وقال:

- يا إلهي، هل أنت متأكد؟ وكيف عرفت بأنه يعدم؟

- كان بجانب سرير الفتى الثاني، سرير آخر، يستلقي عليه عجوز، كما يحدث لما يتم تبرع أحد بكليته، لكن ما رأيته مختلف، رأيتهم يسحبون دم الفتى، ويمررونه بواسطة أنابيب إلى جسم العجوز مباشرة، ودماء العجوز تمر عبر أنبوب لتُفرغ في قنينة زجاجية كبيرة.

اعترتني رجفة وأنا أتذكر المشهد، وأصدقائي بدوا غير مستوعبين لما سمعوا، وغير مصدقين آذانهم، رياض هو الوحيد الذي ظل متيقظا، لأنه بدأ ينظر حوله خوفا من أن يسمعنا أحد، سألني وديع ووجهه ممتقع:

- ماذا يعني هذا؟

- ماذا يعني؟ أجبت منفعلا.... يعني شيئا واحدا وواضحا وضوح الشمس، يموت الفتى لما يسحبون دمه ويمررونه للعجوز، فيصبح شابا من الداخل وقادرا على صفعنا بكفه القوية إن خالفنا أوامره، أو تسديد بندقيته إلى رؤوسنا بكل ثبات إن عصيناه أو تمردنا عليه... لقد انكشف سرّ الإكسير، ولم يبق سرّا لمدة طويلة.

- ما العمل إذن؟ إنها كارثة وجريمة.

قالها رياض وملامحه متكدرة وهو يضرب كفه بقبضته.

قال يوسف وهو يتلفت حوله:

- لا ترفعوا أصواتكم، انفعالكم أنساكم وضعنا، تكلموا بصوت خافت، إن عرفوا بأننا كشفنا سرهم سنُربط إلى تلك الأسرة الليلة.

عض أيوب شفته السفلى، وصرّ على أسنانه وشد قبضتيه:

- إنهم وحوش وقتلة، الآن فهمت، يذهبون إلى الأرض وبالخصوص إلى بلدنا الفقير والمتخلف ليقوموا بغزونا وإحضار فتيان مساكين حظهم قليل من التعليم إلى كوكبهم، ليقوموا بامتصاص دمائهم بأنابيبهم اللعينة، ويمررونها إلى أجسادهم الهرمة، سأكسر رؤوسهم بقبضتي.

تنهدت، واتجهت إلى مقعد قريب، وجلست ووضعت رأسي بين كفي، وفي داخلي تضطرم نار مستعرة من الغضب، أتت غيثة، وجلست بجانبي ونظرت إلينا وقالت وابتسامة تعلو وجهها:

- هل مات أحد؟

ظنت بأننا سنضحك للنكتة، لكن تجهمنا ازداد، غيرت رأيي، لا بد أن تعرف، لا داعي أن نخفي عنها الأمر، أشرت لوديع:

- أخبرها أنت، أنا تعبت من الكلام.

حكى لها وديع ما حدث همسا، وضعت كفيها على خديها وفغرت فاها من الصدمة، ثم نزلت دموعها، فمسحتها بظاهر يديها وهي تردد:

- حرام أن يحدث هذا للفتيان المساكين.

رن الجرس، إيذانا بانتهاء وقت الفسحة، قلت لهم محذّرا:

- إياكم أن يعرف أحد بالخبر، لا تظهروا حزنكم أو غضبكم، أو خوفكم، تعاملوا بطريقة عادية، وموعدنا غدا في المكان نفسه، لنواصل مناقشة الموضوع.

- بعد الذي حدث، عليّ أن أبذل جهودا جبارة لأبدو طبيعيا.

قالها أيوب وهو يشد قبضتيه.

فكرت في ناصر، وأنا أقلب الأمر على وجوهه، تيقنت الآن بأنه ضمن من يتم سحب دمهم، يا للقسوة التي يتصف بها هؤلاء العجائز المجانين، لكن كيف سنتمكن من إيقافهم؟ كنت قد ظننت، لما لم أقابله، بأنهم نقلوه مع زملائه إلى معسكر آخر، ربما سيكون قد مات الآن وانتهى أمره، المجرمون، القتلة، قتلوا عائلته في الوطن والآن...، أصبت بغضب أعمى، وكاد رأسي ينفجر ويتحول إلى شظايا، العجائز الشياطين، السفاحين، كدت أن أغير رأيي فيهم، وأدين لهم بكل ما علموني إياه، وأصدق ثقتهم المزيفة التي أظهروها لي، ربما فعلوا ذلك لتحقيق أهداف لا أعرفها، وقد يكون فيها موتي أنا أيضا، يقومون بتعليمنا أنا والفتيان الآخرين، وفي الوقت نفسه يقومون بتنفيذ جريمتهم، ويسحبون دماء إخوتنا بكل قسوة، والأمور كلها تتم في المبنى نفسه.

كنت أسمع مصطلحيْ، السحب والتمرير، يردده الأساتذة فيما بينهم، ولم أكن أفهم معناه، سمعت أستاذا يقول لزميله: "ستبدأ قريبا عملية السحب والتمرير"، فأجابه الآخر "نحن جاهزون، مرت مئات السنين على التمرير الأول".

إذا كان ناصر لا يزال حيا، فإنه في خطر، وإن كان قد قُتل، فإن باقي الفتيان الذين معه في خطر، إن لم نتمكن من إنقاذ ناصر، ننقذ زملاءه على الأقل، لكن كيف...؟

لما اجتمعنا في الفسحة، حرصنا أن نفعل ذلك في زاوية بعيدة عن أعين الحراس، جلسنا على أحد المقاعد متزاحمين، وقلت دون مقدمات، لأن الموضوع لا يتطلب الأخذ والرد في الكلام:

- بما أن سحب دم الفتيان يتم هنا، فلا بد أن من لم يصلهم الدور بعد لا يزالون في المعسكر، وضعت خطة أولية سأقترحها عليكم ونناقشها، وإن رأيتم بأنها قابلة للتنفيذ سنعجل بتنفيذها، لأن الوقت يداهمنا، أنا متأكد بأنهم يسحبون دم الفتيان كل ليلة.

تدخل رياض الذي يغضب لأقل سبب:

- هل الخطة هي أن نهاجم العجائز؟ أنا مستعد لكسر العديد من الرؤوس الشريرة.

أجبته وأنا أفرك جبهتي، ورأسي يكاد ينفجر من التفكير ومن الغيظ:

- لا، ليس الأمر كذلك، بما أننا أصبحنا تقريبا متمكنين من كل علومهم، واستطعنا أن نطور بعض الأدوية، والروبوتات، والأسلحة...

قاطعتني غيثة:

- لكن أين الخطة في كل هذا؟

- لا تتعجلي، الخطة هي أن نعمل كفريق متكامل لنبتكر بكتيريا نلوث بها دماء الفتيان بطريقة لا تضرهم، فنجعل العجائز غير قادرين على تمرير دمائهم لأجسادهم، وبما أنهم بدؤوا التمرير كما يسمونه، والتمرير السابق الذي يدوم لسبع مائة عام، اقتربت صلاحيته من الانتهاء، كما أخبرني العجوز الملعون رونالد، لكنه لم يحدد المدة المتبقية، وعلى حسب ما رأيته في القبو، يبدو أنهم بدأوا يمررون دماء الفتيان المساكين إلى أجسادهم النتنة، كنت أظن بأنهم يستخلصونه من الأعشاب الطبية، فتبين بأنها دماء الفتيان الطرية.

فرك يوسف يديه في حماس، وقال:

- أظن بأن اقتراحك يندرج ضمن مجال أبرع فيه.

أضاف أيوب:

- إذن سنخترع إكسيرنا الخاص الذي سيحافظ على حياة الفتيان.

- لكن يجب أن نحرص على صنع بكتيريا نافعة، ونطعّمها بمادة كيميائية تجعل دم الفتيان خاصا بهم، وإن تم نقله لجسد آخر يموت صاحبه، وأظن بأن وفود العجائز الذين سيستبدلون الدم بدأت تصل إلى المعسكر، ألا تذكرون ما قالته الأستاذة ماريا منذ عدة أيام في نهاية الحصة الدراسية، لما أخبرتنا بأن بعض الضيوف سيفدون على المعسكر خلال الأيام المقبلة، لذلك ستضطر للتغيب عن بعض الحصص. إذن علينا القيام بعمل متقن، دون أن تتخلله ولو ثغرة صغيرة، وعلينا أن ننجز العمل في يومين.

سألني يوسف:

- لكن لم تجب عن السؤال الأهم، كيف سنحقن أولئك الفتيان بالبكتيريا، وكيف سنصل إليهم؟

قال رياض غاضبا:

- نقتحم ذلك القبو المخيف، ونحقنهم هناك.

ربتّ على كتفه وقلت:

- هنا ينفع الذكاء وحده يا صديقي.

- الفكرة هائلة، لكنها قد تقتل الفتيان، ومن الناحية العملية تبدو غير مجدية، حتى وإن صنعنا هذه البكتيريا، أين سنجد الفتيان لنحقنهم بها؟

يوسف وغيثة محقان، عليّ أن أفكر في حل آخر، نساهم كلنا في إنجازه.

- لماذا لا نمزج بين الدواء والأسلحة؟

قالها رياض الذي كان مهووسا بالأبحاث التي يجريها في مختبر الأسلحة، وكان يحصل على الكثير من الثناء من الأستاذ المشرف على المختبر، ذات مرة أخبرنا بأنه كان يحب مشاهدة والده، وهو يفكك بندقية الصيد ويمسحها، لكن أمه كانت ترفض طبخ الطرائد التي يصطادها والده، وكانت تلومه على اعتدائه على الحيوانات والطيور، وهي في غابتها الآمنة، فيضطر إلى منح طرائده للجيران، وفي النهاية تخلى عن هوايته مقتنعا بوجهة نظر زوجته، وفي طفولته كون رياض جيشا كاملا من الألعاب مجهزا بالدبابات والرشاشات، وأحبّ ألعاب الفيديو الخاصة بالقتال، جسمه أيضا كان كجسم بطل خارق بعضلاته، وضخامته، ووجهه الوسيم.

سألته:

- الأسلحة...كيف؟

- الأسلحة التي أصبحنا نعرف كل أسرارها، إنني قادر على اختراع سلاح بمساعدتكم نقوم بواسطته بنشر البكتيريا في المعسكر.

بدأ الحل يتشكل بسرعة، فتنفست الصعداء، وحاولت صياغة خطة لذلك:

- نمزج بين السلاح اللامرئي والبكتيريا النافعة، ثم نمرر تلك البكتيريا في هواء المعسكر، فيتنفسها الجميع مع الهواء، نحن أيضا سنتنفسها، سيصاب الجميع بحمى خفيفة، لكننا سنشفى ونصبح منيعين على العجائز، ولن يستطيعوا استعمال دمائنا، وحتى العجائز الذين سبق لهم تمرير دماء الفتيان لأجسادهم وأظن بأن عددهم قليل جدا سترفض أجسادهم دماء الفتيان وسيموتون، وهناك سؤال جوابه واضح، هل تظنون بأنهم إن عجزوا عن الاستفادة من دماء الفتيان الموجودين في القبو، سيتركوننا بسلام؟ سيقومون باستباحة دمائنا نحن أيضا، إذن الحل الأمثل هو أن يحمل الجميع تلك البكتيريا، وبما أن المعسكر مغلق تماما، وتهويته اصطناعية، سوف لن ينجو أي شخص في الداخل، كل من استنشق تلك البكتيريا ستتسرب إلى دمائه ولا يمكن التخلص منها.

بدت علامات الارتياح على وجوه الجميع، لكنني ظللت متوترا وخائفا من فشل الخطة.

أصبحت مُراقبة الحراس لنا يطبعها التساهل والتراخي، ولم تعد مشددة كما كانت في البداية، اكتسبنا ثقة أساتذتنا من مدة طويلة،

فأصبحنا نشتغل في المختبرات لوحدنا في الكثير من الأيام، ونطلعهم على النتائج فقط.

في الغد عملنا على تطوير البكتيريا النافعة تحت إشراف يوسف، لأنه نابغتنا في الكيمياء، صنعنا التركيبة السرية التي ستصبح جزءا من صاحبها، كبصمة وراثية، فتجعل دمه غير قابل للعمل بجسد آخر، ثم هرّبناها إلى مختبر الأسلحة وهناك مزجها رياض بالسلاح اللامرئي الذي ساعدناه في إعداده، قمت بحقن المزيج في علبة صغيرة بحجم الكف، واتفقنا أن نضعها مفتوحة بفتحة للتهوية.

بعدما نام جميع الفتيان، دخلت المرحاض، ورفعت فتحة التهوية، وفتحت العلبة، ووضعتها هناك، وأعدت إغلاق الفتحة، وعدت إلى سريري دون أن يلحظني أحد، لن يستطيع أحد أن يكتشف الأمر، لأن المراحيض غير مجهزة بالكاميرات، تسربت البكتيريا المركزة والمعالجة كيميائيا، من فتحات التهوية، ولم تدعْ أنفا واحدا دون أن يستنشقها، ولم يبق دم أي شخص داخل المعسكر لم يحملها.

كان كل أصدقائي مستيقظين لما نفدت المهمة، انحنى وديع وأطل علي، فاكتفيت بأن رفعت إبهامي علامة على نجاح العملية، واندسست في فراشي من جديد.

في الصباح أخذت العلبة وأعدتها إلى مكانها في مختبر الأسلحة، خوفا من أن يقوموا بعملية تفتيش دقيقة، بعدما يتم اكتشاف تلوث دماء الفتيان، فيجدونها ويصلون إلينا، فمحونا بذلك الدليل على قيامنا بالأمر.

بعد مرور يوم واحد على العملية، تم إعلان حالة الطوارئ الصحية في المعسكر، وتم القيام بعدة إجراءات، منها، سحب عينة من دمائنا

والزامنا بالبقاء في العنابر، كما تم توقيف الدراسة، وأخبرونا بأنه وقع تسرب لبكتيريا من المختبرات، وحمّلوا المسؤولية للأستاذ المشرف على مختبر الأسلحة.

زارنا بعض الأطباء وبعض اساتذتنا، للتأكد من أن حرارتنا لا تستدعي نقلنا لإجراء فحوصات في المستشفى، تحدثت طبيبة كانت تقيس حرارتي، إلى زميل لها كان يقف بجانبها:

- ارتفعت درجة حرارة الجميع، لكن درجة حرارته كانت الأعلى، ربما كان قريبا من البكتيريا لما تسربت، لكنه الآن بخير، بدأت حرارته تنخفض.

أجابها الطبيب وهو يضع كفه على جبيني:

- ذلك جيد، خفت أن يصيبه مكروه، إنه القائد الذي اختاره رونالد.

لا زال رأسي يؤلمني وجسدي متعبا، استعدت أحداث اليومين السابقين وأنا متوتر، كان العنبر ممتلئا عن آخره بالفتيان، لا أحد غادر فراشه، وبعض الأطباء يطوفون بين الأسرّة، وقد بدا عليهم التعب أيضا، بدأت أراقب ردود أفعالهم في حذر، خوفا من أن يشكّوا في الأمر، اقترب أحد الأطباء من طبيبة وهمس في أذنها، فبدت الدهشة على وجهها، وغادرا العنبر.

أطلّ عليّ وديع، وابتسم ابتسامة ذات معنى، كان وجهه متعبا وشاحبا، ذلك كل ما استطاع فعله، ثم تراجع ليضع رأسه على وسادته.

خرجت علبة الطعام من الجدار، وكانت مكونة من حساء العشاء فقط، رغم أنه وقت الفطور، لكنه كان أبيض، اللجنة العلمية أجرت التحاليل على اختراع يوسف وأجازته، لأنهم وجدوا بأن تلك المادة لا تؤثر

على تركيبة الحساء، تناولت ملعقتين فقط، فأحسست بالوهن، رفعت وسادتي بتثاقل لأسند رأسي، وأغمضت عيني، وخدر يسري في جسدي، ربما وضعوا دواء في الحساء للقضاء على البكتيريا.

استيقظت من النوم، فوجدت وديع، ويوسف، ورياض، وأيوب جالسين على طرف سريري، نظرت إليهم بدهشة، قبل أن أقول أي شيء، نظروا إليّ نظرة ذات معنى، وابتسموا لي دون أي إشارة أو كلمة، قد نُكشف إذا أظهرنا الفرح، أو رفعنا شارة النصر، كانت الحمّى قد اختفت من جسدي، فبادرني يوسف بقوله:

- نحتاج إلى بعض الوقت في فضاء الفسحة، لكن الخروج من العنابر ممنوع، لأنهم سيقومون بتعقيم المعسكر.

شُفينا بعد يومين، وتعايشت أجسامنا مع البكتيريا الجديدة التي توطنت في دمائنا لتجعلها منيعة على العجائز، ما حققناه كان انتصارا كبيرا، ويستحق احتفالا، لكن لا احتفالات تقام في المعسكر.

عدنا إلى مواصلة حضور الصفوف الدراسية، وفي الحصة الأولى فوجئنا بدخول كل أساتذتنا، كانوا واجمين وعيونهم زائغة، ويظهر عليهم القلق، قال الأستاذ رونالد وعيونه مركزة عليّ:

- توجد بعض المشاكل في المعسكر، ومنها الحمى التي عانينا منها جميعا، سنتفرغ لإيجاد حل للمشكل الصحي الذي أصبتم به ولا يزال قائما، لذلك قررنا أن نكلف آدم ليحل محلنا، وستتلخص مهامه في المراقبة وتسيير النقاش فقط، وبالنسبة لمختبر تطوير الأدوية والأسلحة سنشْغلهما نحن، من أجل إيجاد حل للمشكل الطارئ، فقط مختبر تطوير الرجال الآليين هو الذي سيبقى مفتوحا في وجوهكم، لأن آدم يضع

اللمسات الأخيرة على إيربال، وأظن بأننا سنحتفل قريبا بأول رجل آلي يستطيع الطيران في كوكبنا، ونرجو أن نستطيع حل المشكل الآخر لنحتفل بمناسبتين بدل واحدة.

أشار الأستاذ رونالد لزملائه علامة على إنهاء كلامه، ثم تحرك باتجاه الباب، فتبعه الأساتذة الآخرون في تثاقل ويأس، بدا القلق على وجوه الطلاب الآخرين، خوفا من أن يكون أصابهم مكروه نتيجة البكتيريا الدخيلة على أجسامهم، لأنهم لم يتلقوا أي طمأنة من طرف الأساتذة، فقط أنا وأصدقائي من كنا مطمئنين وسعداء.

انطبع الحزن والقلق على وجوه الحراس أيضا، وكثر التهامس فيما بينهم، كنت في فضاء الفسحة، جالسا على أحد المقاعد دون أن يكون معي أي فرد من الفريق، لأننا اتفقنا، ألا نعقد أي اجتماعات، حتى لا نثير الشكوك، نجتمع فقط إذا دعت الحاجة إلى ذلك، حتى غيثة لم أعد أقابلها إلا أثناء الاجتماعات، كان حارسان يقفان قربي، فوصلني حديثهم:

- إن لم يشف الفتيان، سيفقد الإكسير مفعوله بعد أقل من شهر، ذلك هو الوقت المتبقي لكل من في الكوكب، وسنصاب بأمراض الشيخوخة.

- المشكل أننا لا نستطيع الاستفادة من دماء من هم في المعسكرات الأخرى.

- لماذا؟

- هل أنت غبي؟ أظن بأن أمراض الشيخوخة بدأت تضرب عقلك، يستحيل أخذ الإكسير من الرجال والنساء والأطفال والشباب، فقط الفتيات والفتيان الذين سنهم بين الخامسة عشر والثامنة عشر، من

تلائم دماؤهم أجسادنا وتمنحها القوة، كل من عمره أكبر من ذلك أو أصغر، سنموت إن مررنا دمه إلى أجسادنا.

رقص قلبي فرحا لهذه الأخبار العظيمة، يا إلهي لك الحمد والشكر، والديّ وأخي، وكلّ من لم يصابوا بالبكتيريا في المعسكرات الأخرى هم في أمان.

قال الحارس الأول:

- إذن، الحل، هو أن نقوم بغزو جديد، ونستقدم فتيانا أخرين دمهم غير ملوث.

- غزو جديد...هل تفكر بعقلك؟ لقد أصبت بالخرف فعلا، كم سيكفينا من الوقت للإعداد للغزو؟ ثم للحرب، ثم لدفع السكان إلى النزوح، ثم لإحضارهم إلى كوكبنا كلاجئين، ثم لإجراء عملية العزل، ذلك يتطلب سنتين أو أكثر من العمل الدؤوب، ألم تسمعني أيها الأحمق؟ أنا أقول لك بأنه بقي لنا شهر واحد فقط، ويفقد دمنا مفعوله، وتفقد أجسادنا قوتها، ونصبح مجرد عجائز مساكين، مصابين بالخرف، تحت رحمة هؤلاء الفتيان والفتيات، وأنت تقول لي غزو جديد.

- لا تغضب، بلغني بأن علماءنا يبذلون جهدهم لحل المشكل.

- علماؤنا الأغبياء من تسببوا في حدوث هذه الكارثة.

نظر الحارس حوله وخاطب زميله:

- اخفض صوتك، سيسمعنا الفتيان ويعرفون سرّ الإكسير.

- حتى وإن سمعوا ما دار بيننا من حديث، لن يفهموا شيئا.

بدت لي المعلومات التي سمعتها ثمينة جدا، لكنني لم أطمئن، قد يجدون الحل للمشكل فنعود إلى نقطة الصفر، بقي شهر واحد، يوسف

أكد لي بأن البكتيريا التي طورها لها شيفرة لن يستطيعوا حلها، بحثت عن أصدقائي وعن غيثة بساحة الفسحة، وكلما وجدت أحدهم رفعت إبهامي، كإشارة كنا اتفقنا عليها، وهي ترمز إلى دعوة لاجتماع طارئ، التقينا في زاوية بعيدة عن أعين الحراس، رسمت ابتسامة كبيرة على وجهي، فنظروا إليّ باستغراب وبادرتني غيثة بقولها:

- تقوم بدعوتنا إلى اجتماع وتفتتحه بابتسامة، ظننت بأن هناك خطبا ما.

قال وديع:

- أظن بأن هناك أخبارا جديدة.

- لنجلس أولا، حتى لا نثير الشكوك...الأخبار التي أحمل إليكم عظيمة، كنت أظن بأننا سننتظر وقتا طويلا وغير معلوم ليفقد الإكسير مفعوله في أجساد العجائز، لكن لحسن حظنا سيكون ذلك بعد وقت قصير.

بدت الدهشة على الوجوه، فسألني رياض:

- كم من الوقت...؟

-شهر...، شهر فقط ويصبح العجائز بلا حول ولا قوة.

قالوا بصوت واحد:

-شهر!

وضعت غيثة يدها على فمها، أثرنا انتباه بعض الفتيان الذين كانوا قربنا، فالتفتوا نحونا، وخوفا من أن يكون قد سمعنا أحد الحراس فيشك في الأمر، قلت بصوت تعمدت أن أجعله مسموعا:

- نعم، بعد شهر سيصبح الرجل الآلي الذي أطوره جاهزا للطيران.

بدا على الفتيان أنهم سمعوا جوابي، فابتسموا لي، لأنني في حكم أستاذهم الآن.

سأل يوسف بصوت خافت:

- سيصبحون عجائز حقيقيين، بأمراضهم وضعفهم وخرفهم؟

- تماما.

بدت الفرحة على وجوههم، فوأدْتها، لما رسمت على وجهي تقطيبة الجِد، وقلت لهم:

- علينا التفكير في خطة لهزيمة العجائز، وأول خطوة هي عرقلة بحثهم عن الحل.

قال يوسف بيقين:

- لن يحلّوا شيفرة البكتيريا، كن مطمئنا، لا حاجة لنا لأي خطة.

- إذن لنفترق، ونلتقي للضرورة فقط خلال هذا الشهر، حتى لا نثير الشكوك، وواصِلوا إظهار الطاعة، إنهم غاضبون وسيبدؤون في القتل لأقل سبب.

ارتسم الخوف في عيني غيثة، فوجهت كلامي لها أكثر مما وجهته للآخرين لأطمئنها:

- سنكون حذرين فقط، وأنا سأطور عملي على رقاقة الرجل الآلي إيربال، لأجعله يطيعني وحدي حتى أتمكن من استغلاله ضد العجائز إن احتجنا لخدماته إذا بدأت ثورتنا ضدهم.

أجاب وديع:

- ليمرّ الشهر أولا، وإن فقدت أجسادهم مفعول الإكسير، سيكون كل شيء سهلا، ولن نحتاج لمساعدة إيريال.

انصرفوا، وبقيت غيثة بجانبي، فظللنا نحدق في الفراغ دون أن ننبس ببنت شفة، قامت وانصرفت، وبقيت جالسا أفكر في نهاية ما بدأناه.

أنهيت تطوير رجلي الآلي، وجعلته مطيعا لي، وزودته بسلاح كهربائي يستعمله إن أمرته بذلك، أحسست بالفخر وأنا أنظر إلى عضلاته اللامعة والمصنوعة من الفولاذ، حدثني عن حلمه بالطيران والتحليق عاليا ورؤية الغابة وبيتنا ووالدي وريان، تعجبت، هل ضمنته ذكرياتي دون انتباه مني؟ لا بأس بذلك، أخبرت الأستاذ رونالد عن النتائج، وأن الرجل الآلي جاهز للتجربة، لكنني أخفيت عنه موضوع قدرته على الكلام والعواطف التي يتمتع بها وطاعته لي، لأن اتفاقي معه كان متلخصا في جعله قادرا على الطيران، بدا غير متحمس، فأجابني بدون اهتمام والكدر يغطي وجهه:

- أنا مشغول حاليا...

ندمت على تسرعي، خاطبت نفسي: "فلتبق بعيدا عنهم أيها الأحمق، ألم يكن ذلك هو الاتفاق مع أصدقائك؟".

سرنا على الخطة المرسومة طيلة الشهر، صامتين ومترقبين، الحراس ازدادوا غضبا، تعرض الكثير من الفتيان لصفعاتهم ولركلاتهم، وكأنهم يختبرون قوتهم بفعلهم لذلك، أو يفشّون غضبهم الذي جعلهم مسعورين، ويعاقبون على أقل هفوة، ازداد ابتعادنا عن بعضنا البعض، تجنبا للعقاب، وازددنا انعزالا.

لم يبق إلا أسبوع واحد على انتهاء الشهر، لاحظت وجود وجوه جديدة معنا في ساحة الفسحة، فتيان لم يسبق لي رؤيتهم، ما يميزهم عنا ارتداؤهم للبدلة الأرجوانية، خفق قلبي بقوة، وردّدت بيني وبين نفسي: "إذن، سأعرف الآن إن كان ناصر حيا أم لا؟"، تجولت في الساحة وأنا أتطلع إلى وجه كل فتى يرتدي البذلة الأرجوانية، لم أعثر على ناصر، فجلست على مقعد وأنا شبه منهار، ووضعت رأسي بين كفي، إذن، اكتشافي للسر جاء متأخرا، لكن عزائي الوحيد، هو أننا حتى وإن عجزنا عن إنقاذ ناصر، فقد ننقذ الفتيان الآخرين، وربما قد نتخلص من العجائز إلى الأبد.

بعد يومين، كنت جالسا على أحد المقاعد، فشاهدت فتى مألوفا، جالسا على المقعد القريب مني، وهو ينظر إلى الأعلى، طريقة تأمله للقبة وللكويكبات المنطفئة أثار اهتمامي، لأنه ذكرني بشخص أعرفه، آه، إنه هو، عزيزي ناصر بشحمه ولحمه، اقتربت منه، فتأكدت من تخميني:

- ناصر.

التفت إليّ، فتفاجأ بوجودي، فقام من مكانه بتثاقل، وارتمى عليّ وعانقني:

- آدم، آدم، اشتقت إليك، ظننت بأني لن أراك أبدا.

تكلم بصوت واهن، ونظراته لا تفارق وجهي، وكأنه في حلم ويخشى أن يستفيق منه ولا يجدني بجانبه، حمدت الله كثيرا لأنه نجا.

- أنا أيضا اشتقت إليك، ظننتك...

كدت أن أفشي السر، وأقول له "ظننتك قد مت" وسط موجة الانفعال التي لفتني.

عانقته من جديد، ثم أجلسته على المقعد، وجلست بجانبه، وعينايّ مركزتان على وجهه الشاحب، وأنا غير مصدق بأنه نجا من الموت:

- بحثت عنك في الساحة من قبل ولم أعثر عليك.

- كل يوم يسمحون لفوج بالخروج، عددنا كبير جدا، لذلك لن تستوعبنا هذه الساحة إن قصدناها دفعة واحدة، أمضينا السنتين الماضيتين في العنابر، وكان العجائز يقومون بإخراجنا إلى أرض خلاء، كانوا يقولون لنا إنهم يفعلون ذلك من أجل تمكيننا من تنفس هواء طبيعي حتى نظل بصحة جيدة.

العكس هو الصحيح، صحته لم تكن جيدة، أردت أن أعرف منه من تم سحب دمه من الفتيان، لكن بطريقة ذكية، فسألته:

- هل كل الفتيان الذين معك بخير؟

- نعم كلنا بخير... منذ بضعة أسابيع أخذوا بعضهم، ربما أربعة، لكنهم لم يعودوا، لا نعرف ماذا حصل لهم، ربما نقلوهم إلى معسكر آخر، كان ذلك قبل أن نصاب بمرض غامض ألزمنا الفراش، فناولونا الكثير من الأدوية في الأسابيع الماضية، وأجروْا لنا عددا لا يحصى من التحاليل، فأصبح عقلي مشوشا، وأحس بتعب متواصل.

- آه فهمت.

صوب إليّ عينين زائغتين، منتظرا أن أوضح له ماذا فهمت، لكنني غيرت الموضوع، ووعدته بأن نلتقي كلما سمحت الفرصة بذلك، وأخفيت عنه الحقيقة، لأنه قد يفشي السر، بسبب حالته الصحية، إنه غير مؤهل لإدخاله في دائرة مجموعتنا حاليا، لا يزال الوقت مبكرا على ذلك.

الفصل الحادي عشر

كل الانتصارات تبدأ بالأفكار والتخطيط المحكم وتجاوز الخصم بعدة خطوات، وهذا ما سنحرص على القيام به الآن، لأننا أمام خصم عمره مئات السنين، شرس، وصعب، وخبير، وذكي، وقاس، ويده هي العليا، وهو صاحب الكوكب والعارف بأسراره، والمتحكم في كل شيء، حتى في مصيرنا، ونحن الفتيان الموجودين بالمعسكر، أبناء الفرصة الواحدة، سننتصر إن عجزوا عن تثبيط عمل البكتيريا التي امتزجت بدمائنا، وإن نجحوا ستستباح هذه الدماء رغم تأكيد يوسف على عجزهم عن فعل ذلك، لكني لن أطمئن أبدا حتى ينتهي الشهر، فيصبحوا مجرد عجائز في حاجة إلى عكاز، وفي أسوء الأحوال في حاجة إلى حفّاظات. مسحت وجهي من العرق، وأنا ألعب لعبة نط الحبل في صالة الرياضة، وأفكر في كل المخططات وأراجعها وأقلبها على وجوهها، فترتفع توقعاتي وتنخفض، يجب أن يكون التخطيط محكما، ولا تتخلله ولو ثغرة ضئيلة في حجم خرم إبرة يتسلل منها العجائز الأذكياء، وعقابنا وقتها معروف، طلقات كهربائية في الرأس، ويتخلصون من عناصر سيعتبرونها مخربة ومهددة لسلامهم ولمستقبلهم ومستقبل كوكبهم، متناسين بأنهم قاموا بغزونا وخربوا مدينتنا ودفعونا إلى طرق النزوح، ورسموا لنا طريقا نتبعه لنصل إلى كوكبهم ليؤسسوا بنا بنك دم يغترفون منه كما يشاؤون، وقد سبق وفعلوا ذلك مع أجدادنا.

قررنا أن نلتزم الصمت في الوقت الحالي، ونكتفي بمراقبة استمرار عمل البكتيريا في دمائنا، إنها دفاعاتنا الأمامية في مواجهة العجائز الأعداء، قال يوسف معلقا على مخاوفي من تثبيطهم عمل البكتيريا:

- لا تقلل من شأننا يا صديقي، إننا لا نقهر.

أضاف رياض:

- إن عطلوا عمل البكتيريا، سنخترع سلاحا آخر لمحاربتهم، عرفنا كل علومهم وكل أسرارهم تقريبا، والرجل الآلي الذي قمت بتطويره يؤكد ذلك، لم يتمكنوا من تطوير واحد، وجعله قادرا على الطيران، حتى أتيت أنت وقمت بذلك، ويوسف حول الحساء إلى اللون الأبيض، وصنعنا بكتيريا لوثنا بها دماء الجميع، لن يجدوا الحل للمشكل أبدا، وسيبقى الفتيان المساكين في أمان ونحن أيضا.

أضافت غيثة بحماس:

- هل تعرف لماذا سننتصر على العجائز؟ لأننا تفوقنا عليهم، والإكسير هو قلعتهم الأخيرة، وقد قمنا بدكها.

فاجأتني الروح العالية والتفاؤل اللذين أبدتهما غيثة، لقد تخلصت من هشاشتها وضعفها وأصبحت قوية وعنصرا فعالا في مجموعتنا.

أضفت وأنا أحدق في الحارسين الواقفين في ركن بعيد من ساحة الفسحة:

- الإكسير أيضا، كشف عن وحشيتهم وعن إجرامهم الذي بلا حدود، ويمنحنا الشرعية الكاملة لما قمنا به ضدهم، ولما سنقوم به للدفاع عن حياتنا، نحن الآن في عنق الزجاجة، وقريبا ستتوضح كل الأمور، نتمنى أن نعيش نهاية سعيدة في المقبل من الأيام، إن فشلت

خطتنا ووجد العجائز الحل للمعضلة التي ووجهوا بها سنكون قد انتهينا وكفى.

أصبحت لي مخططات وأحلام كبيرة لم أكشفها كلها بعد لأصدقائي، أو بعبارة أخرى فريقي الذي لا يقهر كما قال يوسف، سأعلن عنها في وقتها، لا داعي للتسرع.

وضعت اللمسات الأخيرة على رجلي الآلي، فقال لي قبل أن أنصرف:

- أنا فخور بصانعي آدم، لأنه صممني بشكل فريد، فجعل لي مشاعر وأحاسيس، وجهزني ببرنامج يخدم كل ما هو خيّر في كل مكان أوجد فيه، أو يرسلني إليه، لأنني قادر على الطيران والتحليق والانتقال من مكان إلى مكان، بناء على أوامره وحده، ولن أمتثل لأوامر أي شخص آخر، وأستطيع أيضا أن أخوض حربا ضد أعدائه، إنني أساوي جيشا كاملا.

قبل انتهاء الشهر، بدأت تظهر بعض الأمور المبشرة بنجاح خطتنا، لاحظت شيئا غريبا، الحراس جالسون على الكراسي في الممرات، بعضهم نائم، وهو جالس ورأسه مائل على صدره، أحسست بأن ساعة الصفر قد اقتربت، أعلنت الأمر لأصدقائي بعدما دعوتهم لاجتماع طارئ، اجتمعنا بمكاننا المعتاد في ساحة الفسحة:

- أظن بأننا في الطريق الصحيح.

ألقيت بجملتي، وأنا أشير بطرف عيني لحارسين جالسين على أحد المقاعد، وقد بدا الوهن على وجهيهما وسلاحهما بجانبهما، في العادة يكون الحراس واقفين، أو يتجولون أثناء الحراسة، وفوهات بنادقهم الإلكترونية موجهة لنا، وكأنهم في موسم الصيد.

بدت علامات الفرح على وجوه أصدقائي كزهور تتفتح، لكنني فضلت ألا يظهروا أي حماس، فحذرتهم من التمادي في توقع النصر:

- علينا التزام الحذر في تصرفاتنا وتحركاتنا، لأنهم قد يجهضون كل شيء في طرفة عين.

- أراهن بأن العجائز قد أصيبوا في مقتل، وقواهم قد خارت، ودماء الفتيان أصبحت محرمة عليهم، ونحن سائرون في طريق النصر.

قالها رياض، وضرب قبضته بقبضة يوسف.

- علينا الاستيلاء على المعسكر.

نطقها يوسف ببساطة، وكأنه يطلب مني مرافقته إلى صالة الرياضة، كنت ألمس فيه شجاعة واندفاعا، لكن كان في عينيه حزن دفين لم أعرف مصدره، والغريب أنه لم يخبرني يوما عن ماضيه أو عن أسرته، فلم أسأله مراعاة لمشاعره، ربما قتلهم الأغراب أثناء الغزو.

- لماذا لا نحرض الفتيان الآخرين، فنكوّن جيشا غاضبا يهاجم العجائز ويستولي على المعسكر؟

- عليك أن تتحلى بالصبر، ولا تكن متعجلا يا صديقي أيوب، إنهم مدربون، والأسلحة في أيديهم، وهم قادرون على الضغط على الزناد، حتى وإن كانت أيديهم مرتجفة، لننتظر انتهاء الشهر ونراقب إن كانوا فعلا، سيفقدون قوتهم وتركيزهم.

- لنفترق إذن، وإن ظهر العجز على العجائز في الأيام المقبلة، وأصبحوا فاقدين لقواهم، سنتفق على برنامج معركتنا.

- لا أطيق الانتظار.

قالها رياض ورفع قبضته ولاحت في عينيه عاصفة قادمة، الآخرون أيضا بدوا وكلهم عزم وتصميم على خوض معركتنا الفاصلة.

- لنفترق الآن حتى لا نثير الانتباه.

قلتها وغادرتهم، وفي تلك الليلة كان الأرق رفيقي لما لذت بفراشي، أطلقت تنهيدة عميقة، وتقلبت في فراشي دون توقف، وديع أيضا جفاه النوم، لكنه لم يبادلني أية كلمة، هل أنا على قدر المسؤولية؟ وهل سننجح أنا وفريقي الصغير في تحقيق النصر؟

لما كنا متوجهين إلى المدرّج، في صباح اليوم التالي، كانت الممرات خالية، ولا أثر للحراس فيها، لم نجد أي حارس في باب المدرج أيضا، انفتح الباب ودخلنا، لا وجود للأساتذة، لكن غياب الأساتذة مبرر، لأنهم سبق وكلفوني بالإشراف على التلاميذ، ليتفرغوا لحل المشكل الصحي كما يسمونه، لكن عدم وجود الحراس، هو ما منحني الأمل في نجاح خطتنا، انطلق الدرس، وناقشنا بعض الكتب، لكن عقلي لم يكن حاضرا، وإنما كان غائبا يبحث خارج المدرج عن العجائز، ويتوقع ما سيجده، لما خرجنا، دعوت فريقي إلى اجتماع عاجل في ساحة الفسحة، لم نأخذ حذرنا هذه المرة، لأنه لا أحد من الحراس يحرس المكان كما هي العادة، حضروا كلهم إلا غيثة:

بادرتهم بالسؤال:

- أين غيثة؟

قال وديع:

- ستأتي...هاهي قد وصلت.

- صباح الخير.

قالتها، ووقفَتْ إلى جانبي في الدائرة.

قلت لهم بعدما اكتمل عددنا:

- أظن بأننا انتصرنا، وأنقذنا الفتيان، وأنقذنا مدينتنا على الأرض، لن يعود إليها العجائز من أجل غزوها أبدا.

- أنت من أنقذتنا، لأن الأفكار كلها من اقتراحك، وهذا ما جعل العجائز يجعلون منك مشروع قائد، نحن الآن نعلنك قائدنا، على كل حال، كان الأمر سيحصل مع العجائز أو بدونهم.

قالها يوسف وعانقني، ثم فعل الآخرون الشيء نفسه، قالت غيثة بجدية وهي ترفع قبضتها إلى الأعلى:

- فليحيا قائدنا البطل.

صفقوا لي طويلا، ووجوههم تعلوها السعادة، كنت أيضا سعيدا ليس لأنني أصبحت قائدا، ولكن لأنه منتصف النهار، والعجائز لم يظهر لهم أثر، لكن كان عليّ قول كلمة لفريقي:

- الفضل فيما حققناه، يعود لنا جميعا، لأننا اشتغلنا كفريق، وكل فرد قام بما يجيده، وذلك سر نجاح خطتنا.

اقترحت بعد ذلك، أن نتوجه للبحث عن العجائز.

قال وديع، وقد تسمر في مكانه:

- انتظروا، هناك أمر لم نفكر فيه، ربما يكونون في اجتماع، وسيقومون بمعاقبتنا، إن تخطينا عتبات أبواب ممنوع علينا تجاوزها.

- الأمر سهل، لا تخافوا، سنبرر لهم بحثنا عنهم، بأنه من أجل الاطمئنان عليهم، لما لاحظنا غيابهم.

وافق الجميع على فكرتي، فذهبنا سويا، لممرات مخصصة لغرفهم، لأنهم لا يسكنون العنابر مثلنا.

طرقنا الباب الأول، فلم يجب أحد، كررنا الطرق عدة مرات، وصلنا صوت أنين، لم نكن نملك البطاقة الخاصة بفتح الباب، فتحه لنا العجوز الذي كان في سريره، بجهاز التحكم عن بعد، كان واهنا وشاحبا، وكانت يداه ترتجفان، وكلامه يُفهم بصعوبة، وعلى وجهه بعض الفزع، حاول أن يأخذ سلاحه، فأبعدته عنه وقلت له بكل أدب:

- فقط أردنا الاطمئنان عليكم، قلقنا لعدم وجود الحراس في الممرات والأساتذة في المختبرات.

قال وهو ينظر إليّ بشك:

- لم نخرج، لأننا أصبنا بالمرض.

سألته عن رقم غرفة الأستاذ رونالد، فقال لي:

- إنه الرئيس، غرفته رقمها (1).

طلبت إذنه للانصراف، فأخذ يدي ورجاني كطفل:

- أرجوك، وزعوا علينا الطعام، أحس بالجوع.

- سأفعل، لما أطمئن على الأستاذ رونالد.

كنت أريد رؤية الأستاذ رونالد لحثه على قول بعض الأمور التي ستفيدنا، لأنه هو رئيس الكوكب، وثقته بي قد تدفعه إلى إفشاء بعض الأسرار المهمة.

وجدناه أحسن حالا من العجوز الأول الذي زرناه، بدا قادرا على الكلام، في البداية وجه لي نفس نظرة العجوز الأول، نظرة فيها شك وارتياب، حافظت على هدوئي وأنا أقترب منه، فذاب ارتيابه واستعاد ثقته

بي، لأنه أشار إلى كرسي قرب سريره، وأمرني بالجلوس، ثم رمق زملائي بنظرة غير مرحبة، وهمس لي بصوت خافت:

- اطلب من زملائك المغادرة، أريد أن أحدثك على انفراد.

أومأت لهم، فغادروا الغرفة في الحال، وأغلقها رونالد بجهاز التحكم خلفهم، وقال دون مقدمات:

- هناك حقيقة لا مفر منها، أنا أعتبرك ابنا لي، فلا بد من إخبارك بها، أنتم أهل الأرض سترثون كوكبنا، نحن انتهينا، إنك قائد بالفطرة، وكنت أعدّك لليوم الكبير، كنت أظن بأنك ستشاركني قيادة الكوكب، لكنك الآن ستضطر لقيادته بمفردك، لا تخف من ثقل المسؤولية، لأن كوكبنا صغير جدا، بحجم مدينتك وضواحيها، وأظن بأنني سبق وأخبرتك بالأمر، لي يقين بأنك ستنجح في مهامك، ولي اعتراف صغير، وهو أنكم أذكى منا، لقد أثبت أنت وباقي الفتيان والفتيات بأنكم تمتلكون كل المقومات لتتفوقوا علينا، وذلك ما كان يخيف الأستاذ شوفيك، وحذرني مرارا من الأمر، فقط كنتم تحتاجون لمن يقدح الشرارة في عقولكم الفتية، ونحن فعلنا ذلك، وها أنت قد رأيت النتائج، استوعبتم علومنا في وقت وجيز، وبالخصوص أنت، والرجل الآلي الطائر الذي طورته يؤكد ذلك، سنترك كوكبنا الذي كلفنا آلاف السنين ليصبح على الصورة التي تراها الآن في أيد أمينة.

أصابته نوبة سعال، وأراد الجلوس فساعدته، وأسندته على الوسائد:

- ظهرت علينا كل أعراض أمراض الشيخوخة بمجرد انتهاء مفعول الإكسير.

أضاف والحزن ظاهر على وجهه:

- كنا نظن بأننا سنخلد في كوكبنا، وأن الإكسير سيمكننا من ذلك، لكننا فشلنا، ذلك الإكسير كان مكافأتنا، لكن ثمنه كان باهظا، ولم نكن نحن من ندفع ذلك الثمن وإنما...

نظر إليّ مترددا، ولم يكمل جملته، رفع يده اليسرى ونش بها أمام وجهه، وكأنه يطرد الفكرة عن رأسه، هل خاف أن يفشي سر الإكسير؟ إنه يعرف بأنني في موقع قوة ويخشى العقاب، لم يكمل جملته، ولم يعرف بأنني على علم بجريمتهم.

قال بحسرة:

- لم نستطع تأمينه مؤخرا، فشلنا فشلا ذريعا.

التزمت الصمت، واكتفيت بالإنصات له، وذلك كان صائبا، لأن صمتي شجعه على إفشاء أكبر عدد من الأسرار، حدّق في وجهي، وفي عينيه ألم وضياع وحزن:

- ستبدأ اليوم مهمتك كقائد، سأكلفك بالمهام التي كنت أقوم بها.

أشار إلى درج بجانب سريره وقال لي:

- افتح ذلك الدرج، وستجد بطاقة ذهبية.

كانت في الدرج ساعة ذكية وعدة بطاقات بكل الألوان، إحداها ذهبية، أخذتها وأغلقت الدرج:

- تلك البطاقة تفتح جميع مرافق المعسكر، وجميع الحواسيب، وقاعدة البيانات تشمل كل المعلومات الخاصة بالكوكب.

تذكرت أمرا هاما، لما ذكر قاعدة البيانات:

- هل تشمل بياناتنا، وبيانات اللاجئين الموجودين في المعسكرات الأخرى؟

- طبعا، كل فرد في الكوكب توجد بياناته في قاعدة البيانات، هذه البطاقة تفتح أيضا كل الأبواب المصفحة للبنك المركزي للأحجار الكريمة، نملك ثروة كبيرة من هذه الأحجار، الماس قمنا باستخراجه من جبلكم، والأحجار الكريمة الأخرى مصدرها نيازك صغيرة تتساقط على كوكبنا، نحن هنا نتعامل بالأحجار الكريمة بدل العملات التي يتعامل بها أهل الأرض، الاختراعات وتطوير الصناعات نواتها هنا في المعسكر أيضا، ولحسن الحظ تعلمت أنت وباقي الفتيان كل علومنا، كأنني أحسست بما سيحصل، لما اقترحت أن نحضركم ونعلمكم علومنا، لو لم نفعل ذلك لاندثرت حضارتنا.

ركزت على كل كلمة قالها، يجب ألا أنسى أي تفصيل، إنه نوعا ما، يمرر لي سلطاته، فعلي أن أكون يقضا، وأستوعب هذا الكم الكبير من المعلومات المتعلقة بإدارة المعسكر والكوكب، إن رونالد كان رئيسا للمعسكر وللكوكب أيضا، لكن يبدو أن العجائز كلهم متساوون في الحقوق والواجبات ولا فرق بين رئيس ومرؤوس، لأن غرفة رونالد تبدو بسيطة ولا فرق بينها وبين غرفة الحارس الذي زرناه منذ قليل، كما أنه كان يمارس التدريس كأي أستاذ من الأساتذة الآخرين، والبيوت التي يملكونها في المدينة يقضون بها أيام العطل، كما أخبرني رونالد ذات مرة.

أطلق تنهيدة عميقة وأخذ يدي بين راحتيه:

- يا بني، لي ملتمس، باسمي وباسم شعبي، أرجو أن تسمعني، كلنا أصبحنا عجائز حقيقيين، لا حول لنا ولا قوة، فأرجو أن نلقى رعاية لائقة

في محطة عمرنا النهائية، أصبح أمرنا بيدكم، وأنتم أصحاب الكلمة العليا، وأعتذر على القسوة التي عاملناكم بها.

قلت له صادقا:

- سنفعل ذلك، كن مطمئنا.

تنهد، وأضاف:

- لست متفاجئا مما حدث لنا، كان لا بد أن يحدث هذا في وقت من الأوقات، وخطأ واحد كان كفيلا بحصول الكارثة، وهذا مصير كل من يتحدى الطبيعة.

ضغطت على يده وكأنني أطمئنه، فنزلت دموعه، وتساقطت على صدره، واحمرت عيناه من التأثر، فرمى رأسه على صدري، وبكى كطفل صغير، فأشفقت عليه، وتذكرت جدي، إنه عجوز وأنا مدين له بكل ما تعلمته، ونهايته وشيكة، وسنصبح أسياد هذا الكوكب المتطور الذي يشبه الأرض في كل شيء، فقط الكويكبات المعلقة في سمائه ما يميزه عنها، لذلك لا مكان للحقد في قلبي.

- سأبذل ما في وسعي، لأوفر لكم الرعاية اللازمة، كن مطمئنا يا سيدي.

- لم يخب ظني فيك، أشكرك يا بني.

قالها وارتمى على الوسائد، ولما هممت بمغادرة الغرفة، ناداني:

- آدم، نسيت شيئا مهما، خذ.

مد لي لوحه الإلكتروني الصغير، وأضاف:

- ستمكنك البطاقة الذهبية من فتح الأبواب، لكن هذا اللوح الإلكتروني، يحتوي على كل أسرار المعسكر والكوكب، وعلى كل أبحاثي.

قبل أن أنصرف، تذكرت بأنه في حاجة إلى الطعام، فسألته إن كان يرغب في تناول شيء، فقال لي:

- توجد في درجي علبة أقراص الطعام، لكن إن تفضلتم ووزعتم علينا الطعام أنا وباقي العجائز سنكون ممتنين لكم، لكني أفضّل أن تفعلوا ذلك بطريقة إلكترونية، عليك أن تعين من الفتيان من يطبخ الطعام، لقد سبق ودربناكم على ذلك.

فعلا، كنا قد خضعنا لدورة تدريبية لمدة أسبوع، حول فنون الطبخ وطريقة توزيع الطعام بطريقة ذكية عبر تمريره من خلال ممرات خاصة في الجدران، ليصل إلى صاحبه عبر فتحة قرب سريره.

هز رأسه بأسف وأكمل:

- أرجو أن يكون تعاملكم معنا لائقا، لا نريد أن نفقد كرامتنا في المحطة الأخيرة من عمرنا، ولن يطول الأمر، قريبا سنبدأ في التساقط كالثمار اليابسة.

لقد نسي بأنه سبق وطلب ذلك، زممت شفتي وأنا أبادله النظر، ثم حزمت أمري وربت على يده المعروقة:

- كن مطمئنا، سنعمل ما في وسعنا لتشعروا بالراحة.

تنهد بارتياح، فودعته ووضعت اللوح الإلكتروني في جيبي وانصرفت.

أول ما فعلته، أنني قمت ببرمجة صوت المرأة الافتراضية ليصبح تحت سيطرتنا، فتقول ما نمليه عليها نحن، بحثت في اللوح الإلكتروني، ودخلت إلى خانة نظام تشغيلها، واتبعت الخطوات اللازمة، برمجتها على دعوة كل فتيان وفتيات المعسكر بدون استثناء، من أجل حضور اجتماع

في ساحة الفسحة، بعد ساعة، سيكون العجائز أيضا قد سمعوا النداء الذي اخترق كل المعسكر، وهم ينتظرون وجبة الطعام.

قبل انتهاء الساعة، كانت الساحة والممرات، مكتظة بذوي البذلة الرمادية وأيضا ذوي البذلة الأرجوانية، من الفتيات والفتيان الذين كانوا يمثلون بنك الدم الخاص بالعجائز، كانوا يثرثرون دون توقف، وعلى وجوههم الترقب، وقفت على مقعد وحولي فريقي لدعمي، تحدثت في مكبر صوت ليسمعني الجميع:

- زميلاتي، زملائي، اليوم هو يوم عظيم بالنسبة لنا جميعا، ويوم فارق، وسينقلنا لمرحلة جديدة من حياتنا.....

توقفت قليلا فبدت كل النظرات تستعجلني لإتمام خطبتي.

- جميع الحراس والأساتذة والعمال في هذا المعسكر وفي الغالب، خارجه أيضا، فقدوا القدرة على السيطرة، لظروف صحية طرأت عليهم بسبب أمراض الشيخوخة، وهم كلهم الآن بلا حول ولا قوة، إنهم في غرفهم وكلفوني أن أنوب عنهم في عملية تنظيمكم لتقوموا بالمهام التي كانوا يقومون بها، وكلفني الأستاذ رونالد رئيس الكوكب، أن أكون قائدكم في هذه المرحلة، لتيسير استمرار عمل المعسكر، ولا تنسوا أن هناك عجائز سنعتني بهم، وطعاما علينا أن نعده لأنفسنا وللعجائز، والدراسة يجب أن تستمر، والبحوث في المختبر لن نهملها، والمكتبة ستظل مفتوحة، في انتظار ما ستفصح عنه الأيام المقبلة، ثم بعد ذلك سننتقل إلى المرحلة الموالية المتمثلة في لقائكم بأسركم.

ظهر الفرح على الوجوه، فصفقوا لي بحرارة، وهنئوا بعضهم البعض، وتبادلوا العناق، وصاحوا بأعلى أصواتهم، ابتهاجا بنيلهم

لحريتهم، وقرب لم شملهم بأسرهم، رد فعلهم يؤكد بأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم سجناء في المعسكر، طلبت من فريقي أن يختار من يستطيع الطبخ والتنظيف، وهو الأمر المستعجل حاليا، فضلت ألا أخبر فتيان وفتيات المعسكر بكل الأسرار، اتفقت مع أصدقائي ألا نفعل ذلك، قد يثورون ضد العجائز ويقتلونهم، أو قد يمتنعون عن خدمتهم، وخاصة مجموعة ناصر الذين كان حكم الإعدام سينفذ فيهم، أردت أن أسمح للعجائز بقضاء ما تبقى من عمرهم في سلام، لن أنسى ما فعلوه بعجائزنا ومرضانا، ولن أنسى عزمهم على سحب دماء فتياننا وقتلهم، لكننا لن نكون قتلة مثلهم، سنظهر لهم جانب الحب والتسامح فينا.

ذهبنا لتفقد المطبخ الضخم، مع فريق من الفتيان والفتيات الذين تطوعوا للقيام بمهام الطبخ والتنظيف. لما شاركنا في الدورة التدريبية الخاصة بالطبخ، ظل باب المخزن الخاص بالمؤونة مغلقا في وجوهنا، فلم نعرف محتوياته، لكننا الآن دخلنا إلى هناك، فوجدنا مخزونا هائلا من الأجبان والحليب واللحم المجفف والزبدة والمعلبات والتوابل والفواكه الجافة، اقترحت غيثة، أن يتناول الجميع اليوم الجبن والياغورت والبسكويت، وأن يتم التوزيع بالطريقة الإلكترونية لكي يصل الطعام إلى كل عجوز أو فتى حتى سريره، خاطبت الفريق الذي تكلف بالطبخ بقولها:

- سنكتفي اليوم بوجبة خفيفة، وغدا قوموا بطبخ الأطباق المعتادة، وإن أردتم تغيير حساء العشاء بوجبة من اختياركم، افعلوا ذلك.

بدت السعادة واضحة في أعين الفريق، لأنهم أخيرا، سيتخلصون من الحساء المقرف والمجهولة مكوناته.

قبل تفقد أقسام المعسكر، قمت بتعطيل أبواب غرف العجائز لتبقى مفتوحة، ويتمكن الفريق المكلف بالعناية بهم من زيارتهم متى شاء، كلفت ناصر بتكوين فريق ليقوم بجمع الأسلحة التي في غرف الحراس، خوفا من قيامهم باستعمالها ضد الفتيان إن قاموا بزيارتهم، فعلوا ذلك، ووضعوها في قاعة ملحقة بمختبر تطوير الأسلحة.

لم أضف أي عنصر آخر لفريقي، خوفا من فشل خطتنا إن تسربت أسرارنا، ناصر أيضا تركته بعيدا، لكنني سأضمه إلى فريقي لما يصبح جاهزا، ولن يصبح جاهزا، إلا عندما يكمل تعليمه، سأنظر في هذا الأمر، وسيكون أولوية، كل الفتيان الذين لا حظ لهم من التعليم أو الذين غادروا المدرسة مبكرا، سيبدؤون الدراسة بعد يومين، سأخصص جزءا من الفترة الصباحية لهذه الفئة، وسيعلمهم الفتيان ذوو البذلة الرمادية إلى أن يصبحوا في مستوانا، لن أترك أحدا خلفنا. بالنسبة لنا، سنواصل الدراسة والقيام بالتجارب المختبرية، وسأكلف مجموعتي بالمختبرات، وبالفصول الدراسية، وأي فتى من الفتيان يبدي التميز والنبوغ في تخصصه، يصبح أستاذا لكي تتواصل مسيرة العلم والمعرفة. إذن، سنكوّن نواة صلبة من هؤلاء الفتيان لنواصل تطوير كوكبنا الجديد بعدما كان سجننا، وسننقل في المستقبل كل علوم هذا الكوكب إلى مدينتنا على الأرض.

لما أخبرت فريقي بالفكرة الأخيرة، علقت غيثة:

- هل سنستطيع التنقل بين هذا الكوكب والأرض بمركبة ضخمة؟

- وهل الأمر صعب؟ لقد تمكنا من استيعاب هذا الكم الهائل من العلوم والمعارف في ظرف وجيز، فكيف سنعجز عن قيادة مركبة

فضائية؟ سيحب الكثير من الفتيان، التخصص في قيادة المركبات الفضائية والصحون الطائرة.

لكن هذا الأمر لا يشكل أولوية الآن، يجب تنظيم الكوكب أولا، لا زلنا في بداية الطريق، ولا علم لنا حتى الآن، بحال العجائز الموجودين في المعسكرات الأخرى وفي المدينة، وهل انتهى مفعول الإكسير بأجسادهم أم ليس بعد، سأكون مجرد غبي أحمق إن تسرعت في الإعلان عن نواياي، أنا الآن وضعيتي سليمة، حتى وإن قدم إلى المعسكر عجائز أقوياء ومدججين بالأسلحة، سأخبرهم بما حدث للعجائز الموجودين هنا، وسيشهد على صحة روايتي، كل من يوجد في المعسكر من فتيان وفتيات، وسيؤكد الرئيس رونالد أقوالي، وعلى الأرجح سيقومون بشكري، لكن ما يجعل هذا الاحتمال غير وارد، ما قاله الحارس لزميله. إذن، كل العجائز فقدوا قوتهم وسيطرتهم، وتساقطوا مرة واحدة كمجسم تم تركيبه من قطع الدومينو.

في اليوم التالي، كانت أول نقطة في البرنامج الذي سطرته هو الاطلاع على قاعدة البيانات، إنه أول مهمة كنت أتعجل القيام بها، لقد صدق رونالد، كل بيانات من يوجد في الكوكب من عجائز ولاجئين، مثبتة في هذه القاعدة، فكرت في والديّ وأخي وفي عائلات فريقي وعائلات كل الموجودين في المعسكر، صور عائلتي منقوشة في قلبي، لكنني أريدهم معي، أحسست بالدقائق تمر ثقيلة وكأنها دهر، وأنا متأكد بأن ما أحس به يحس به كل من له أسرة مشتتة هنا، على هذا الكوكب الرمادي.

وضعت خصلة من شعري في علبة آلة البحث، لتقرأ حمضي النووي، وتحدد من لهم نفس الحمض في قاعدة البيانات، ركزت على

الشاشة الخضراء أمامي، والبيانات تتوالى، بيانات كل من يوجد في الكوكب، كتمت أنفاسي من الترقب والقلق، والخوف من أن يكون حدث لأهلي مكروه، ما أعرفه، أن من ماتوا يتم حذفهم، طال الأمر، فبدأ اليأس يتسرب إلى نفسي، والأسئلة السوداء تتزاحم في صدري، هل أعدموهم لكسرهم قواعد الولاء والطاعة؟ إن كانوا فعلا قاموا بذلك، لماذا لم تظهر بيانات أخي الصغير؟ لأن الأطفال لا يحاسبون على عدم طاعتهم، هل أصيب ريان بمرض ومات؟ كنت أدور في دوامة من الحيرة والحسرة والألم لما تحولت بيانات خمسة أشخاص من اللون الأخضر إلى اللون الأحمر، الإشارة إليهم ليست بالأسماء، وإنما بالأرقام فقط، لكن ما حيرني هو الشخص الخامس، أسرتي مكونة من أربعة أشخاص، إذن من هو صاحب الرقم خمسة؟ احترت، ربما عمتي، أو ابن عمتي، لكن البيانات تخص الآباء والأبناء فقط، لم أهتم بأمر العلامة الخامسة، لأن فرحتي بنجاة أهلي غطت على ذلك، تنفست الصعداء بعمق، وغمرتني سعادة بلا حدود: "يا إلهي، إنهم على قيد الحياة، الحمد لله حمدا كثيرا"، واصلت عملي على الشاشة من أجل تحديد مكانهم، فتبين لي بأن ثلاث نقط في مكان ونقطة لوحدها في مكان بعيد عنهم، ونقطة أخرى تشير إلى حيث أوجد الآن.

سارع كل أفراد فريقي المتحلقين حولي إلى قص خصلة من شعرهم، وبدؤوا عملية البحث، تبين بأن كل من وصل من عائلاتنا إلى هذا الكوكب لا يزال على قيد الحياة، لكن يوسف قال وهو يبتعد ويجلس على مقعد ووجهه مكدر:

- لا عائلة لي، لأبحث عنها.

لم نُظهر الفرح الذي يستحقه الموقف، نجاة أحبتنا ليست بالأمر العادي، والأمل في قرب الاجتماع بهم يدعو إلى إقامة حفل، لكننا كبحنا فرحتنا احتراما لمشاعر يوسف، قررت أن أعيّن على وجه الاستعجال فريقا ينظم عملية البحث عن أسر كل الموجودين في المعسكر، من فتيان وفتيات استعدادا للمّ الشّمل.

استدرت وواجهت فريقي وقلت لهم:

- علينا أن نقوم باجتماع الآن، ونضع برنامجا للأيام المقبلة، لأن المهام التي علينا القيام بها كثيرة، وسيكون جدول أعمالنا مزدحما.

قالت غيثة ودموع الفرح لا زالت تبلل عينيها:

- لكن، متى نرى عائلاتنا؟

- لا تتعجلي.

قال أيوب الذي له أسرة كبيرة هنا في الكوكب مكونة من والديه وستة إخوة:

- ما داموا بخير، فلا بأس إن انتظرنا قليلا.

توجهنا إلى قاعة مخصصة للاجتماعات، بها طاولة اجتماعات بسطح أبيض لامع، تحيط بها كراسي مبطنة بالجلد الأبيض، جلست على رأس الطاولة، والفريق حولي، كانت أمام كل واحد منا لوحة إلكترونية مدمجة بالطاولة، شغّلت تلك التي أمامي، فانفتح فيديو لتسجيل ما سأقوله في الاجتماع، إذن ستكون اجتماعات العجائز كلها مسجلة بهذه اللوحات الإلكترونية وسنستفيد منها مستقبلا، طلبت من الجميع تشغيل لوحاتهم، فعلوا ذلك، وهم يترقبون بدء الاجتماع الأول الذي سيشاركون فيه كفريق مساعد لقائد الكوكب الرمادي:

- أنا أشكركم على مساندتكم لي منذ البداية، إنكم فريق من الشجعان، خاضوا حربا من أجل تحرير أنفسهم وأحبتهم وإخوتهم من الشر، لقد مر الجزء الصعب، وبقي الجزء الأصعب، لأن الجزء المقبل من مهمتنا يتطلب الكثير من التنظيم، ومن العمل الجاد، ومن الدقة، ومن التركيز، ومن التضحية، وأول أمر علينا التفكير فيه هم العجائز.

ما إن قلتها حتى أطلق الفريق صيحة استهجان.

- دعوني أنهي كلامي، لا يتواجد العجائز في هذا المعسكر فقط، إنهم في جميع المعسكرات، وإن تركناهم في أماكنهم الحالية، إما سيموتون لعدم وجود من يرعاهم، أو سيتعرضون للأذى من طرف من آذوهم، وبما أنه يصعب رعايتهم حيث هم الآن، أقترح تجميعهم هنا في هذا المعسكر الكبير، ونعين من يرعاهم من الرجال والنساء، وسنستقدم أيضا العجائز الذين يعيشون في المدينة، لقد سبق ورأيتم الأبراج الزجاجية، والبيوت المستقبلية، لما كنا في طريقنا إلى هنا، تلك أيضا يسكنها العجائز الذين يمارسون أعمالهم هناك، وقد أخبرني رونالد بذلك، وهو أيضا له بيت في المدينة، كان يمضي فيه أيام العطل، لما نجمع العجائز في هذا المعسكر، سنتفرغ لتنظيم اللاجئين من أهالينا، والذين أصبحوا الآن مواطنين في الكوكب الرمادي، ثم بعد ذلك، نغادر المعسكر، ونقطن تلك الشقق والبيوت مع عائلاتنا، لكننا سنواصل الحضور للمعسكر، لتنظيم أمور الكوكب، واستكمال دراستنا وأبحاثنا، نحن وكل الفتيان والفتيات، وسنخصص قسما للأطفال، لكن علينا أولا أن نقوم بعملية جرد من أجل تحديد عدد العائلات ونستخرج كشوفات بذلك.

قال رياض:

- سأقوم بعملية الجرد، إنها سهلة جدا بوجود قاعدة البيانات.

أضاف يوسف:

- بالنسبة للأيتام، أقترح ألا نتركهم في المعسكر الذي يتواجدون فيه حاليا، لأن باقي الأطفال الذين لهم أسر سيلتحقون بها قريبا، والأيتام سيظلون هناك، وأظن بأن أقصى ما سنقوم به من أجلهم هو تغيير اسم المعسكر لدار أيتام، إن فعلنا ذلك لن يتغير وضعهم، لا أرغب في بقاء يتيم واحد على هذا الكوكب، أقترح أن نطلق حملة للتكفل بهم، كل أسرة بها أم وأب، تتكفل بطفل، ليكبر وسط أسرة محبة، هل تعرفون لماذا اقترحت هذا الاقتراح؟ لأنني عانيت من اليتم والتنقل بين دور الرعاية، توفي والداي بسبب حادثة وأنا في سن الثالثة، فتم إلحاقي بدار رعاية، فتمت معاملتي بقسوة منذ وعيت الدنيا، أغلب من كانوا معي من الأطفال، فروا من هذه الدور، وفضلوا التشرد والانحراف على الاستمرار في تحمل القسوة والعنف، لكنني وجدت صدرا حنونا يستقبل أحزاني ودموعي ويحفزني على الصمود، لم يكن صدرا بشريا، وإنما صدرا مخلصا لا يتركك أبدا إلا إن اخترت أن تتركه أنت، إنها الكتب، كنت أقرأ في مكتبات دور الرعاية الصغيرة بنهم، وفي المدرسة بدأت أحصل على معامل جيد في كل المواد بسبب القراءة، وتفوقت على زملائي، لكن كل ما مر بي في حياتي من عذاب لا يساوي حرماني من حنان والديّ، تمنيت لو حظيت بوالدين يقومان بحمايتي والاعتناء بي.

لقد انكشف السر، وعرفت لماذا كان يوسف غير واثق من نفسه، رغم ذكائه وعبقريته، ولم يخبرني يوما بقصته، رغم الصداقة التي تجمعنا.

أكمل كلامه وعيوننا مركزة على حركاته المتوترة:

- لا أريد أن يمر أطفال آخرون بنفس معاناتي، أريد أن يحظى جميع اليتامى هنا بأسرة تتكفل بهم، ويكون الأمر تطوعيا طبعا، لن نرغم أحدا على القيام بذلك.

اقتربت منه، وعانقته، ثم أخذت يده بين راحتي وقلت له:

- أول من سيتم التكفل به هو أنت، رغم أنك فتى كبير، والأسرة التي ستتكفل بك هي أسرتي، وسبق أن تكفلت أمي بناصر لما وصلنا إلى هذا الكوكب، ستكون ابنا لوالديّ وسيفتخران بك، أمي تحب الأسرة الكبيرة، وأنا أحب أن يكون لي أخوان مثلك ومثل ناصر.

نزلت دمعة من عيني يوسف، فرفع يده ليمسحها، وصفق الآخرون وقاموا وأحاطوا به وعانقوه.

عدت إلى مكاني على رأس الطاولة وقلت لهم وأنا أحس بالسعادة:

- لنواصل عملنا، ونكتفي اليوم بهذا القدر من المشاعر.

تدخل وديع الذي بدا متأثرا بقصة يوسف:

- حسنا، إنك أخونا جميعا، كلنا نحبك حتى قبل أن نعرف قصتك يا عزيزي يوسف، لننتقل لنقطة أخرى، أقترح أن نُعْلِم اللاجئين الموجودين في المعسكرات بالمستجدات، ونطلب منهم العناية العجائز، دون أن نوضح أسباب ذلك الطلب، ونُخبرهم أيضا بأن القيادة الجديدة ستعيد توزيع المهام في الكوكب، ونبشرهم بقرب لم شملهم بأفراد أسرهم.

قالت غيثة متحمسة وهي تفرك يديها:

- فكرة هائلة، علينا تطبيقها في الحال.

فعلا ذلك ما قمت به، برمجت التعليمات وترجمتها لصوت المرأة الافتراضية، وأرسلتها إلى جميع المعسكرات والإدارات والبيوت بالكوكب.

تذكرت الرجل الآلي إيربال، كانت مهام كثيرة تزدحم في رأسي، وأريد أن أكلفه ببعضها، وسأجرب في الوقت نفسه، إن كنت قد نجحت في جعله قادرا على الطيران، وهل سيستطيع إنجاز هذه المهام بطريقة دقيقة؟ ذهبت إلى مختبر تطوير الروبوتات، ضغطت على زر التشغيل، فقال لي مباشرة، وكأن تلك الجملة كان قد أعدها مسبقا:

- لقد طال غياب آدم، فأحسست بالحزن، ظننته نسيني، لكنني لم أيأس، كنت أعرف بأنه سيأتي في النهاية، لأنه يختلف عن العجائز القساة.

كنت مستعجلا، فقلت له:

- ستقوم بأول مهمة لك، لأرى إن كنا سننجح، وبعد ذلك سأقوم بتوسيع مجال المهام التي سأكلفك بها.

- حاضر يا سيدي.

وقفت أمامه وسجلت مقطع فيديو في المكان المخصص لذلك، جهة القلب، حيث أدمجت شاشة صغيرة.

أمرته بأن يتبعني، قمت بالأمر دون حضور أي أحد من فريقي، تجاوزنا الممر الذي سبق ومررنا به أنا وناصر، لما دخلنا المعسكر أول مرة، لم أطأه منذ ذلك اليوم، كانت خطواته تهز الأرض تحت قدمي، وصلنا إلى الباب الخارجي، فانفتح تلقائيا، كان المكان خاليا تماما، ضغطت على زر الانطلاق، فانفتحت أجنحته الحديدية التي تشبه أجنحة تنين، انطلق كصاروخ، فتابعته حتى غاب عن بصري فوق الكويكبات، عدت إلى الداخل، وتوجهت إلى المختبر لأنتظره هناك، جلست على مقعد والقلق

يفترسني، خوفا من ألا ينجح في أداء المهمة، أو يتعطل ويسقط على الصخور ويتحول إلى شظايا، أو ينفجر في الجو، كنت مستغرقا في التفكير لما سمعت خطواته في الممر، ثم دخل إلى المختبر ووقف في المكان المخصص له:

- يا إلهي، لقد عدت بسرعة، هل وجدتهم؟
- نعم.

ما إن نطق بكلمته، حتى اشتغل مقطع الفيديو تلقائيا، وظهرت أمي على الشاشة وهي تشاهد المقطع الذي سبق وسجلته لهم، الشاشة تشغّل مقطع الفيديو وتسجل آخر في نفس الوقت، بدت مفزوعة في البداية لما وقف أمامها الروبوت الضخم، ثم قالت، وقد بدا عليها الاضطراب، ثم نزلت دموعها:

- إنه حبيبي آدم، تعال لترى، إنه يخبرنا بأننا سنجتمع قريبا، ابني الغالي بخير، وقد وفى بوعده.

اقترب أبي ووقف بجانبها، وما فاجأني أنه كان يحمل رضيعة رفعها أمام الشاشة:

- انظري، هذا أخوك الكبير آدم، بطلي، ستتعرفين عليه قريبا.

كانت طفلة جميلة كدمية، ووجهها كقمر صغير، وعيناها كبيرتين وسوداوين ومحاطتين برموش كثيفة، أظنها ورثت عيني جدي رحمه الله، آه، لقد حُلّ اللغز، هذه هي النقطة الحمراء الغامضة التي ظهرت إلى جانب النقط الخاصة بأفراد أسرتي، لقد أصبحت لي أخت صغيرة، ابتسمت لما تذكرت أوامر العجائز للمتزوجين بتكثير النسل في الكوكب، لقد نفذ والديّ الأوامر.

غمرتني سعادة جارفة، لأنني قريبا سأرى أفراد أسرتي، وسيحس والداي بالفخر لما يعرفان بأنني أنا القائد، وبأنني طورت رجلا آليا وجعلته قادرا على الطيران، وبأنني قرأت عددا هائلا من الكتب، وأصبحت متمكنا من علوم الكوكب وأسراره التكنولوجية.

قمت باجتماعات ماراطونية أنا وفريقي، وسطرنا برنامجا، بعض نقاطه مستعجلة، وأخرى تتطلب وقتا لإنجازها، من النقط المستعجلة، اتفاقنا على القيام بجولة في الكوكب، نبهني رياض قائلا:

- كيف سنتجول في الكوكب ونحن نجهل كيفية قيادة سياراتهم؟

- الأمر سهل، افتحوا لوحاتكم الإلكترونية، يوجد موقع خاص بهذه السيارة، ستستطيعون استيعابه في ساعة واحدة، وستعرفون طريقة قيادتها على الأرض والطيران بها في الجو.

في اليوم التالي، قمنا بجولة بموكب من السيارات الجعل، كل فرد من فريقي قام بقيادة سيارته، غيثة فضلت أن ترافقني في سيارتي، كانت صفوفا كثيرة منها مركونة أمام المعسكر، في مرآب مغطى، استغرقنا ساعة واحدة لنحلق فوق الكوكب، كان صغيرا في حجم مدينتي والبلدات المحيطة بها، تماما كما أخبرني رونالد، به أراض صخرية وهي التي حلقنا فوقها لما قاموا باصطحابنا أنا وناصر إلى المعسكر أول مرة، وجبل وغابة صغيرة يخترقها نهر، وأراض زراعية، وبحر من ناحية الغرب، وتتوسط الكوكب المدينة المستقبلية ذات الشكل المربع، وحولها أربع معسكرات، وكل معسكر تمركز خارج إحدى زوايا المدينة، فمنحها ذلك شكلا هندسيا بديعا فبدا المشهد من الأعلى كعمل فني تجريدي عملاق، غيثة كانت منشغلة بتأمل الكويكبات الصغيرة التي كدت أن أصطدم بها عدة مرات،

فكنت أراوغ لأتجنبها، عدنا بعد انتهاء الجولة وقد أخذنا فكرة عن الكوكب الرمادي الذي أصبح تحت قيادتي.

اكتشفت من خلال اطلاعي على قاعدة البيانات بأن عدد العجائز بالكوكب عشرة آلاف، والفتيان الذين كانوا محتجزين من أجل سحب دمائهم بعدد عجائز الكوكب، يعني عشرة آلاف فتى وفتاة، كل هذا التنظيم وهذه العمارة، وهذا التطور بسواعد وعقول هذا العدد القليل من العجائز، لكن بدماء فتية، دماء الفتيان هي من كانت وقودهم لتحقيق كل هذا، فكرت في العدل الإلهي، إذن ستعود الأمور إلى نصابها، العجائز سيموتون والفتيان بلحمهم ودمهم وليس بدمهم فقط، مع اللاجئين الآخرين، من سيرثون هذا الكوكب، وهم من سيواصلون العمل على تطويره.

كلفت فريقا ضخما من الفتيان، من أجل مساعدتنا أنا وفريقي على إعادة تنظيم الكوكب، فقمنا بتوزيع البيوت على الأسر، كل يوم كنا نوزع عددا محددا، الفتيات والفتيان هم من يسوقون السيارات، والذين لا يعرفون السياقة، لأنهم لم يتمكنوا من التعامل مع البرنامج الإلكتروني الذي يعلم السياقة، كناصر، قام الفتيان الآخرون بتوصيلهم لأسرهم وأخذهم لبيوتهم المحددة في اللائحة، الأسر التي لا أبناء لها في المعسكر أرسلنا لهم أيضا الفتيان من أجل توصيلهم إلى بيوتهم، وسلمنا لكل أسرة الرمز الخاص بفتح باب البيت، كنت أبلغ التعليمات عبر الكوكب، من خلال صوت المرأة الافتراضية، وقد أفاد ذلك في التعامل مع الذين لا يجيدون استعمال التكنولوجيا، طلبت من فريقي أن نترك الآخرين يجتمعون مع عائلاتهم، ونحن ننظم العملية، ولما يتم لم شمل الأسر،

نعمم إعلانا نوجهه لمن يرغب في التكفل بالفتيان والأطفال اليتامى، ولما ننتهي من العملية نلتحق بأسرنا.

رأيت التردد في عيني غيثة، لأنها على ما يبدو متلهفة لرؤية والدتها وأختها، لكن الآخرين وافقوا على اقتراحي.

كل من كان يوصل أسرته من فتيان المعسكر وفتياته، لبيتها الجديد، يعود إلى المعسكر نفسه الذي أخذ منه أسرته، ويحضر إلى المعسكر الذي نتواجد فيه عددا من العجائز.

في نهاية ذلك النهار، كان أغلبية الفتيان مع أسرهم وفي بيوتهم الجديدة، وعجائز الكوكب جميعهم في المعسكر، وضعناهم في العنابر مكان الفتيات والفتيان، وخاطبتهم عبر المرآة الافتراضية:

- مرحبا بكم في المعسكر، لقد حولناه إلى دار للعجائز، سنقوم برعايتكم وستقضون شيخوخة مريحة هنا.

لم أعرف رد فعلهم، ولا أريد أن أعرف، لكن أظن بأن كلمتي طمأنتهم بقدر ما ستكون قد أحزنتهم، ربما كانوا يتوقعون تركهم للإهمال والموت كما فعلوا مع جدتي.

كانت المشتريات تصل إلى بيوت السكان الجدد، بطريقة إلكترونية، وبالنسبة للأداء فقد كان يتم بقيمة من الأحجار الكريمة، اكتشفت بأن لكل مواطن من العجائز رصيد بنكي من الأحجار الكريمة المكدسة في البنك المركزي بالمعسكر، وليصبح للمواطنين الجدد حسابات بنكية، عبأت قاعدة البيانات وما يوجد في اللوح الإلكتروني الذي سلمه لي الأستاذ رونالد في دماغ الروبوت إيربال، ووجهت له الأمر عبر رسالة إلكترونية بما عليه أن ينجزه، فقام بإنشاء حساب بنكي لكل أسرة، وقام بتحويل مبلغ

شهري من قيمة الأحجار الكريمة، كأجر شهر مقدما عن الوظائف التي سيلتحق بها القادرون على العمل قريبا، وأرفَق كل حساب برسالة توضيحية حول طريقة الاقتناء، والطريقة التي سيتوصلون بها بأغراضهم، ثم قام بإرسالها إلى اللوح الإلكتروني الخاص بكل بيت، وأيضا تم تبليغها للجميع بصوت المرأة الافتراضية.

ذهبت أنا وفريقي للقاء أسرنا، ووديع للقاء أخته الصغيرة، لقد التمس ألا يعيش مع أسرة تتكفل بهما، وإنما اختار أن يعيشا لوحدهما، لأنه كبير كفاية ليعتني بها، غيثة أصبحت سائقة ماهرة للسيارة الطائرة، لمست ذلك بعد مرافقتي لها في عدة جولات، في إحدى المرات كادت تصطدم بكويكب وتقتلنا، التقيت بوالديّ أخيرا، لكنني عرجت أولا على المعسكر الذي يوجد به أخي الصغير ريان، أردت أن تكون أسرتنا كاملة لما نلتقي، كان الكثير من الأطفال قد غادروا مع أسرهم إلى البيوت ليعيشوا من جديد بطريقة طبيعية، لكن لا يزال بعضهم هنا، إنهم يتامى المعسكر، كانوا لوحدهم، نزلنا ووزعنا عليهم الطعام، تطوع يوسف للبقاء معهم ورعايتهم، في انتظار تسليمهم للأسر التي قدمت طلب التكفل بهم، وكان ذلك سيتم في اليوم التالي.

- ابتعد عني.

قالها ريان وهو يبكي والخوف باد في عينيه:

- حبيبي ريان أنا آدم.

حملته بين ذراعي، فلم يعترض، حدق في وجهي ومرر كفه الصغيرة على خدي، ثم دفن وجهه في صدري، يبدو أنه تذكرني.

- لا تخف يا حبيبي، بعد قليل سترى بابا وماما.

التقينا أخيرا، أمي حملت أخي الصغير، وبكت وهي تغمره بقبلاتها، غمرنا بعضنا البعض بالقبلات وبالدموع وبعناق جماعي حار، حملت أختي الصغيرة التي لم أعرف اسمها بعد، بين ذراعي، فبدأت تبكي، وهي تمد ذراعيها الصغيرتين ناحية أمي:

- اسمها ياسمين، ستألفك، ترفض أن يحملها من لا تعرفهم.

قلت، وأنا أنظر إلى ناصر الذي بدا سعيدا:

- أنتم أضفتم طفلة جميلة للعائلة، وأنا أضفت أخوين.

نظر إليّ أبي متفاجئا، ثم قال:

- لا أرى إلا واحدا، وأمك هي من أضافته.

- هناك فتى آخر، ستلتقون به غدا، اسمه يوسف.

قالت أمي مبتهجة:

- مرحبا به في أسرتنا، ومرحبا بابني العزيز ناصر.

قالتها، وأخذت يد ناصر بين راحتيها، فرفعهما، وقبلهما ثم قبل رأسها:

- أنا ممتن لك يا خالتي، وممتن لعمي ولآدم قائدنا.

تساءل أبي متعجبا:

- قائدكم...؟

حكيت لهم القصة باختصار، وكيف أصبحت قائدا، وأن ما كان يخبرني به الشبح والمخلوق الفضائي، بأنني أنا المختار، تبين بأنه أمر حقيقي.

كانت الفيلا التي سكناها منظمة ونظيفة وأنيقة ومعقمة كمستشفى، إنها تعود لرونالد، قال لي بيتا لكن تبين بأنها فيلا بحديقة فسيحة، لم يرُق ذلك لأمي، فاحتجت قائلة:

- أف، اللون الرمادي يجعلني مريضة، إنه يذكرني بالمعسكر، حتى ثيابنا رمادية، لم نر ألوانا مفرحة منذ قدومنا إلى هذا الكوكب الرمادي الكئيب، والحديقة أيضا متربة وشجيراتها جافة.

- سيُحل هذا المشكل قريبا يا أمي، لا تتسرعي، سنضيف الدفء والألوان والحب إلى هذا الكوكب.

- طبعا، بما أنك إبني القائد ستُحَلّ كل المشاكل، لكنني لا زلت قادرة على ضربك.

ضحك أبي وقال:

-لم تضربيه حتى ونحن في مدينتنا، أظن بأنك لا زلت قادرة على الصراخ عليه لما يرفض الاستيقاظ من النوم في الصباح.

أنا متأكد بأنها لن تفعل ذلك أبدا، لأنني أصبحت أستيقظ على الساعة السادسة صباحا.

التحق بنا يوسف أيضا، بدا سعيدا بوجوده ضمن أسرة مُحِبّة، ومستمتعا بالحنان الذي أحاطته به أمي، غيثة جاءت لزيارتنا هي ووالدتها وأختها، غمازتاها ازدادتا عمقا، وابتسامتها ازدادت دفئا، وأنا غرقت في عينيها العسليتين، لكن حاليا أمامنا مسؤوليات كبيرة، وهي ضمن فريقي، فلنؤجل العواطف قليلا، حتى ننظم أمور كوكبنا، لن تهرب إلى أي مكان، ولا بد أن أضع في المستقبل، تاجا حقيقيا على رأسها الجميل.

بعد مرور بضعة أشهر، كانت باقات الأزهار تزين أركان بيتنا، والحديقة معشوشبة وشجيراتها خضراء بعدما أعاد لها أبي الحياة، وبما أن الجدران مركبة من ألواح ومن مواد غير قابلة للصباغة، ابتكرتُ طريقة الإضاءة الملونة التي تندمج مع الجدار، فيتحول للون الذي تختاره والدتي.

نظمنا دورات تكوينية مكثفة لجميع من في الكوكب، من رجال وشبان ونساء ليتمكنوا من مزاولة مهامهم ووظائفهم وحياتهم الطبيعية، لأن كل شيء هنا يُشغّل بالتكنولوجيا، وكل من يجيد عملا بدأ يزاوله، صنعت رجلا آليا صغيرا في حجم أخي ريان، ليساعد أمي في تنظيم أمورها، لم تلتحق بوظيفة لأن لها طفلين صغيرين وأسرة كبيرة مكونة من سبعة أفراد، تسابقت الأسر من أجل التكفل بالأطفال اليتامى، فلم يبق أي طفل على الكوكب بلا أسرة، العجائز بدأ الموت يحصدهم، مات أكثر من النصف، رونالد أيضا توفي، كنت أزوره في بعض الأحيان، ولما لم يعد يعرفني انقطعت عن زيارته، حتى رأيت اسمه في كشف الوفيات، مرت بضعة أشهر، فماتوا جميعا.

رغم التقدم والتطور هنا، ورغم مركزي، لما كنت أخلو إلى نفسي، أفكر في مدينتي وفي بيتنا، ويهزني الحنين إلى الوطن، فأفكر في العودة إلى هناك، لكنني أستفيق لأؤكد لنفسي، بأن الكوكب الرمادي وطننا أيضا، وأصبح مجرد مقاطعة تابعة لمدينتي الموجودة على كوكب الأرض، وكل علوم ومعارف هذا الكوكب سأنقلها إلى هناك لما تسمح الظروف بذلك، وأيضا سأعيد لمدينتي جزءا من الماس الذي سلبه منها العجائز، وسأنقل لها هذا النوع من العمارة، لأنه صديق للبيئة، وهي تعاني من التلوث، وبما

أن الأغراب ربما قد هدموا معظمها أو كلها بعد مغادرتنا، فلن نجد الكثير قد أنجز فيما يخص البناء، وتلك فرصة لنجعلها مدينة مستقبلية.

أردت أن أجرب أمرا، لا يزال هاتفي الذي أحضرته معي من الأرض، يحمل كل أرقام أصدقائي، ورقم عمتي، ورقم ابنها صديقي أنس الذي لم ألتق به في المعسكر، كنت أفكر فيه كثيرا، وطول تواجدي هنا، كنت أبحث عنه دائما بين وجوه الفتيان، إنه في سني، والمكان الوحيد الذي يمكنه التواجد به لو كان معنا على هذا الكوكب، هو المعسكر، جربت الاتصال برقمه عدة مرات، وفي الأخير وصلني صوت متقطع لم أسمعه منذ أكثر من سنتين:

- ألو، من معي؟
- هل أنت أنس؟
- نعم من ...؟ هل ما أسمعه حقيقي، ولست في حلم؟
- نعم حقيقي.
- عزيزي آدم، أنت حي؟ ظننتك قد استشهدت أنت وجدي وجدّتي وريان ووالديك.

قال ذلك وخنقته الدموع.

- أنا حيّ، ووالدي وأخي أيضا، لكن جدي وجدتي...
- هل استشهدا...؟ كيف نجوتم أنتم؟ وصلتنا أخبار بأنكم نزحتم، وكنتم تبحثون عن طريق يوصلكم لبلد تلجؤون إليه، فأعدمكم الأغراب كلكم، ولم يتركوا أي فرد منكم حيا، هناك من قال بأنهم قاموا برشّكم بمادة كيماوية أذابتكم، لذلك لم يتم العثور على الجثث في أي مكان.

- إننا أحياء والحمد لله، كيف حال عمتي وأخويك؟

- إننا بخير، لكن أمي ليست كذلك، إنها مصابة بارتفاع الضغط وبمرض السكري.

- أين تتواجدون الآن؟

- إننا في بيتنا، لم ننزح، والدتي رفضت ذلك، العديد من الأسر لم تغادر بيوتها، دمر الأغراب بعض الأحياء على من بقي من السكان، وأجزاء كبيرة من المدينة نجت، ومنها حينا، الكثير من السكان عادوا، لأنهم لم يركبوا الحافلات، ونزحوا لمدن قريبة، والذين وجدوا بيوتهم مدمرة، أعادوا بناءها... لماذا لم تعودوا...؟

سكت لحظة، ثم أضاف لما لم أجبه:

- في أي مدينة تتواجدون؟ ولماذا لم تتصل بي؟ أو على الأقل، ترسل لي رسالة عبر الفايس بوك أو الواتساب، أو تنشر مقطعا على تيك توك لنطمئن عليكم...؟ اتصلنا بكم فكانت كل هواتفكم مغلقة، فظننا بأنكم استشهدتم.

وجدت صعوبة في إخباره بوضعنا، كنت أظن بأن الأمر سهل...تنهدت، كيف سأشرح له، صمتّ برهة، وفكرت، هل كنا على صواب لما نزحنا عن مدينتنا؟ قلت أخيرا:

- أنس هل تسمعني؟

- نعم، أسمعك.

- نحن لسنا في أي مكان على الأرض، لقد لجأنا إلى الكوكب الرمادي.

ساد الصمت برهة، ثم جلجلت ضحكة أنس في أذني:

- أتخشى أن أزورك في مدينتك الجديدة؟
- القصة طويلة يا ...

تشوش الاتصال ثم انقطع الخط قبل أن أنهي جملتي، حاولت الاتصال به من جديد لكن دون جدوى، لما أعود إلى الأرض سأزوره، وسيسعد إن دعوته لزيارة الكوكب الرمادي، وقد أُقنع عمتي بمرافقتنا، وبالتأكيد سأزور قبر جدي حبيبي، وأنقل رفاته إلى مقبرة العائلة، وأبحث عن جدتي، ربما ستكون قد نجت، أنس من مدني بهذا الأمل، لما أخبرني بأنه لم يكن هناك أي أثر لأشخاص أعدموا في المكان الذي تركنا فيه جدتي، وجاء في كتاب "الماس والحراس"، بأن شهود عيان رأوا بأم أعينهم بعض الهياكل العظمية البشرية في الصحراء بعد غزو الأغراب الأول لمدينتي، إذن هناك أمل، لكن الإكسير المشؤوم، سيبقي سرا، ولن يتجاوز أعضاء فريقي، لا أريده أن يكون سببا في تكدير صفْو أي فرد من شعبي، لأنني أطمح أن يعيش الجميع سعداء إلى الأبد.

الفهرس

الفصل الأول --- 5

الفصل الثاني --23

الفصل الثالث --32

الفصل الرابع -- 50

الفصل الخامس -- 64

الفصل السادس-- 88

الفصل السابع -- 104

الفصل الثامن-- 122

الفصل التاسع -- 144

الفصل العاشر-- 166

الفصل الحادي عشر -- 192

الفهرس -- 225

فجـأة، وبعـد حلـم رأيتـه، انقلبـت حيـاتي رأسـا عـلى عقـب، وكأن صاعقـة ضربتنـي، كنـت نائمـا فسـمعت صوتـا ينبعـث مـن داخـل رأسي يشـبه الفحيـح لكنـه عميـق وخافـت وكريـه ومرعب:

-آدم، آدم، آدم، أنت المختار... أنت المختار.

فتحـت عينـيّ فرأيـت شـبحا أمـام وجهـي يسـبح في ظـلام الغرفـة، لونـه رمـادي وجسـده غـير ثابـت وكأنـه مـن دخـان وعينيه وفمه حفر مظلمة.

اختفـى الشـبح فجـأة وعـم الظـلام، جلسـت وأشـعلت المصبـاح ونظـرت حـولي مفزوعـا، لا وجـود لأي شـبح والغرفـة يعمهـا السـكون، فـسّرْت الأمـر عـلى أنـه مجـرد كابـوس فدفنـت رأسي تحت الغطاء وعدت للنوم.

9 789920 251181

مطبعة وراقة بلال
IMPRIMERIE PAPETERIE BILAL
Tél/Fax: 05 35 61 86 03
FES - imp.bilal@gmail.com